عبد الله الطيب





الدار السودانية

عبد الله الطيب



بين الشعراء

الدار السودانية
الخرطوم

دار الفكر
بيروت

الطبعة الأولى

١٣٩١ هـ — ١٩٧١ م

الإهـداء

ذكرتك يادرة المـالح ... وذاك من العمل الصـالح
أحبك فوق الهوى فاعلمي ... وأصدي إلى وجهك الواضح
لقيتك في سبحات الخيـال ... إذ العيش كالزبـد الطافح
مَتَتّ اليك بحبل الوصال ... وطيري في الفَنَنِ الصّادح
عرفتك قبل لقائيكِ إني ... لقيتك في فكري السابح
تعشقت كلّ الوجوه الحسان ... من المُشبهـاتِك للاّمح
عرفتك معرفـةً لا تزال ... تزيد وطحنَ مع الطائح
تركت لأجلك شرب الحرام ... وتسليـةَ الكأس للسافح
وآنست نفسي بسفر الهيام ... وأشكر للخالق المـانح
فعودي إلي بمـأواك لي ... من الناس والزّمن الفـادح
وقالوا سلتك بأرض المعاد ... وقد كذبوا والهوى ناصحي
وأعلمها جَلْدةً في الفؤاد ... واعلم أنْ حُبها فاضحي
سَئمتُ الصّغارَ أو لاتِ النّوداد بَعْدَكِ يا صَفْقَةَ الرابح
ومن أجْل حبك أهْوى بلادي ... على عَنَتِ الحاسد الكاشِحِ

بسم الله الرحمن الرحيم

وله الحمد ربنا وحده لا شريك له

والصلاة والسلام على أفضل خلقه وخاتم أنبيائه

وبعد فقد كتبت هذه الخواطر، والنفس منقبضة ونوائب الدهر مايَنِينَ .. وفي الطرس تقرأ أو تكتبُ عزاءً . ووجدتني أستريح إلى الشعر وحديث الشعراء حتى تناول خاطري منهم عـــدداً . واقترح علي بعض الاخوان أن أجعل ذلك بحثاً جاداً لكي يهتم به طلاب الأدب . فوقع الاقتراح عنـــدي موقعا . وبدأت بأبي تمام أكتب عنه . وقلت أكتبُ بعـده عن زهير . ثم عن أبي الطيب وهلم جرا ... وبعد أن سودت أوراقا عددا بدا أن السفر الذي كنت قد أتممته وهو خواطر أجدر أن يترك كما هو ... لأنه منبىء عما كانت عليه حال النفس من التماس العزاء ... وعسى أن يكون به عزاء ... وهذا حين أبدأ والله المستعان .

والصلاة والسلام على خير البشر وآله وصحبه اجمعين .

(١)

ربما ضاق صدر امرىءٍ بالحياة

والقدر خفي المداخل

وعسى التجارب ألا تفيد أخا الخير شيئا

هل يجوز الايمان بالله بلا إيمان باليوم الآخر والمعجزات ؟

أم كل ذلك تفخيم للذّات وضن بها ألاّ تنتهي الآن فنلتمس لها الغد .

ما أطول ايام المحنة .

وكأيّنْ حوْلَكَ من عِهْنَة .

أتذكر إذ نظرت الحسناء إلى الأرقط الأربد يحسب أنه إنسان ؟

قالت له أنت أنت جعلته إنسانا .

متى أراانا يا رانا ... أي يا شمس بلغة هوسا حيث أحيا العلم شيهو عثمان وأخوه مفسر القرآن وابنه بلُّو السلطان شملتهم جميعاً رحمة الله العزيز الغفور .

طير حبيس يا لميس .

« في بلدٍ ليس به أنيس إلا اليعافير وإلا العيس »

وما اليعافير والعيس ؟

تذكرنا الجوز واللوز وقد صار لزج الطعم والنكهة واختمر هذا الموز يا فوز ...

عندي درهمان ولي وطران... وسمعنا لحنكم ... هل تحسبني من البوليس السري ؟ أنا ما جئت إلا للمجاملة بالملابس الاعتيادية ...

قالت الراجزة :

« يا ربّ من عـادى أبي فعادِه »
« وارم بسهمـين على فؤاده »
« واجعل حمـام نفسه في زاده »

وقال الشيخ رضي الله عنه :

« ومن يرد شرا لنا يقود — فكيده في نحره يعود »
« ومن يُرِدْ شرّاً لنا يجر — فسقفه من فوقـه يخر »

آمين آمين ...

لقـد دعوت الله إذ يجيب
بل خلت أن نصره قريب
هل ترجعنّ الخلة الطروب
ثم لنـا بالود تستجيب

ذكرتها إذ رأيتها بادىء الرأي ...
(الرأي ههنا بمعنى الرؤية)

كقمح لحَبّه أدَمُ

ما أجمل مزارع القمح بين فرنسة واسبانيا . القمح مدهام الخضرة . والشعير دون ذلك . وقال آكِلُو الشَّعِير هو أخف من القمح ونصنع منه الكعك .

ولا زال القمح للنعمة عنوانا وإن يك الأرز الجيد سلطانا .

ذكرتها إذ رأيتها بادىء الرأي كقمحٍ لحبه أدم
خضراء كالرجلة النضيرة في الرمل للألامِ وجهها ضرم
جديدة إذ رأيتها غاية الجدة عندي البيان والحكم
والشعر أنشدته فأعجبهـــا منه نصوع الأداء والفهم
يكاد من قصتي لمأساةشيخ النّحْوِ دَمْعُ الفتاة ينسجم
بها أقيس النجاح في حصص الدرس ومنها الإلهام والكلم

وشيخ النحو هو سيبويه وما بلغ في السن أن يُدعَى شيخاً إذ مات دون الأربعين في طريق فارس إذ خرج من بغداد وهو كالمنهزم للذي كاده بـــه الكوفيون في مجلس البرامكة . قالوا ومَرّضَهُ أخوه فلمـــا شارف الموت قطرت منه دمعة حارة على خده .

وكان سيبويه ينشد :

« يريـــد حياةً لتبقى له فمات المُؤَمّلُ قبل الأمل»
« حثيثا يُرَوّي أصول الفَسِيلفعاش الفسيل ومات الرجل»

والفسيل صغار النخل والرجل بصريّ والبصرة بلد النخل. والفسيل ههنا علمه وكتابه البحر . وخبر سيبويه في الجزء السادس عشر من ياقوت ...

ياقوت ... الياء للنداء وقوت منادى
وقد بلونا أننا نعادى
وقد وجدنا البهرجيّ سادا
والدهر أمسى كله فسادا
وقد أطالت هند البعادا
والله ربي هكذا أرادا ...

والحمد لله وسبحان الله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

(٢)

قال أبو العلاء .

« وردنا مـاء دجلة خير مـــاء وزرنا أشرف الشجر النخيـلا »

وماء النيل أعذب من دجلة . وكلاهما ينبعان من الجنـة . إلا أن النيل ينبع من الجنة أكثر ومن رآه يجتاز الصحراء تيقن صحة هذا . وفي اللغـة الانجليزية يقولون للصحراء « سهارا » لأنهم لا يقـدرون على نطق الصاد ولا الحاء ويضغطون على المقاطع والحركات باللسان الأعجم فيخالف ذلك طريقـة الاداء العربي . فاعجب لفـظ « سهارا » بعض العصريين من شباب العرب ، يحسبونه شيئاً أخضر ناعماً يمج ندى وبراعما . فسموا «سينما سهارا» «وهوتيل سهارا» .....

وجـاء المستعمرون ومعهم قوم المؤتفكات . وقـام مهندس بالتنقيب في أول القرن فقال نحفر ههنا خزاناً ... وههنا خزانـاً ... فقالوا نحفر ههنا خزّانين . وقالت البنات نحن حفرنا السد العالي .... بإيدينـا ... وعليهن الخضاب .

« إليك أشكو شدة المعيش ومر أعـوم برين ريشي»

حكى استاذنا الشيخ محمد مجذوب جلال الدين حفظه الله واطـال بقاءه قال قرأ في بعض ما كتب الشيخ الطاهر رضي الله عنه أن جدنا الشيخ محمد المجذوب الكبير نفعنا الله بجاهه كانت تعتريه حالة من غيبوبة جـذب ، فقد ينتهز بعض أعدائه فرصة ذلك ، فيعتدون على جرفـه ليحوزوه ، فيقال له مثلا إن فلاناً دخل في جرفك يهمس بذلك له في أذُنِه ، فيقول وهو في حالة جذبه اللهم أرسل عليه صاعقة . فيرسل عليه صاعقـة فتجعله كهشيم المحتظر « فذوقوا عذابي ونذر » .

ولله بأسٌ شديد ، وموعدهم الصبح .

« انـّـا إذا عضّ الثـّقَافُ برأس صَعْدَتِنَا لـَوَيْنا »
« نحمي حقيقتنا وبعض النـّاس يسقط بَيْنَ بينـــا »

هذا يقوله عبيد بن الأبرص ، والصعدة الرمح والثقاف الأداة التي تشذب بها القناة وتُصْلَح .

قالوا نريد دولة عربية يهودية مسيحيـــة فسكتوا عن الإسلام كما ترى وادعوا أن هذا يرضاه يهود . وعند يهود أنهم أبناء الله وأحباؤه، والنصارى يعلمون هذا منهم ويحترمونه في السر ويريدون من طريق النجاة بالابن أن ينضووا في المحبة والعهد الذي أعطاه الله يهود وشملهم . وعنـد أهل الإسلام أن اليهود ليسوا بأبناء الله ولا بأحبائه ولكن بشر ممن خلق . وقـد غضب عليهم بعد كفرهم فهم المغضوب عليهم . وفيهم كان المسخ . وأيما مسلم قـال بالعلمانية يرجو كسب أهل الكتاب فقد طلب المستحيل . ويهود قد صرحوا أنهم إنما يريدون دولة يهودية .

« ولا ينجي من الغمرات إلاّ بَراكَاءُ القتـــال أو الفرار »

احسن بشر بن أبي خازم وكان قومه أهل حرب .

موباسان جيد . لعله لا يوشك أن يبلغ حذقه ومرارة أرَبـهِ في قصصه القصيرات من أهل العصر أحد . تأمل الجبان ... هل انتحر ... هل استمر يمتحن نفسه وينظر في المرآة بعد أن مات.أم هذه خاتمة ضعيفة. وكان ينبغي أن ينهار عند المبارزة. أم لم يكن جبانـــاً ولكن دقيق الإحساس، مرهف العاطفة . القسوة التي يتعاطى بها موباسان بعض قصصه من سنخ حياة العصر؛ حيث الرحمة خور في الطبيعة .

في مذكرات دي‌غول في مقدمتها (الترجمة العربية) ان التخلي عن فشودة من وصمات الضعف في تاريخ فرنسة الحديث . ولعمري لقد غـفَلَ دي‌غول

كما غفل من قبله شرشل أن غزوة أوروبا بلادنا من وصمات التاريخ الحديث كله ... أقلُّ ما يعتذر به عنها من ضرب هذا الذي ذكره دي‌غول ، وهو ان دول أوروبا كانت تتباهى بفتوح البلدان ولا سيا افريقية في اخريات القرن الماضي . وكانت من أجل هذا التباهي لا تبالي أن تدك صرح دولة إفريقية قائمة بقوة النار والحديد . وقد تفتعل أسباباً شبه قانونية لتبرر ما عسى أن يقع من اعتداء. كادعاء ان دولة الخليفة التي بالسودان السناري جزء من أرض الخديوي لابدّ من استردادها .

وكان التبشير في الظاهر دافعاً شبه قانوني لما يشتمل عليه من إرادة الانقاذ . وكان قصد إبطال الرق دافعاً ثالثاً فيا زعموا .

وكان قصد تحطيم الإسلام هو الدافع العميق الأول لأن مهاجمة السودان المسلم إنما كانت امتداداً لقهر الأندلس وتدويخ العرب والتركان والفرس ومسلمة الهند وجاوة وهلم جرا .

قال الراوي :

هنا وقفت البواخر في زمن الفيضان وكانت مدافعها تصيب الهدف من خمسة كيلومترات . وهناك كانت الراية الزرقاء .ودار المكسيم من الاورطات البريطانية والمصرية والسودانية الذين هم عسكر الحكومة .

وكان الراوي رحمه الله يلبس الطربوش .

وكان إذا قال الحكومة عنى بذلك حكومة الترك الأولى أو الثانية لاغير.

الأولى هي التي غزتنا سنة ١٨٢١ م والثانية سنة ١٨٩٨ م .

ويذكر زيارة الخديوي عباس حلمي إذ كان الناس يقيمون سوقهم يوم الجمعة فعاب ذلك عليهم وأشار عليهم ان يقيموها يوم السبت . وقبلوا منه بأدب أولاد البلد الفقراء المتواضعين ، وكانوا يعلمون ان اقامتهم السوق يوم

الجمعة ادخل في روح الإسلام ليحضرها من تجب عليه من بعيد . وعند النداء لابيع. وعلى ذلك عمل المالكية ببلاد السودان إذ لا بأس بالبيع بعد الصلاة.

– الحكومة إياتَه يا عمي .

وعجب من هـــذا السؤال ... الحكومة ال كتلت الدراويش ، يعني الحكومة .

ذكر استاذ التاريخ اندفاع دول اوروبا لِغَزْوَةِ إفريقية .

والآن نذكر الأسباب التي حضرنا من أجلها ههنا .

وكان بريطانياً يجتاز فترة تدريبه السياسي الأولى بالتدريس في كليـــة غوردون ، ويرتقي من بعـــد ليكون مفتش مركز وصنفاً من أصناف الإداريين ... وبعد ذهاب الحكم الثنائي وسودنة الإدارد لم يتغير هذا الأسلوب في جملته وتفصيله أيضاً . .

ويرفع التلاميذ أصابعهم فندي فندي . هكذا كانوا يقولون لغيرالبريطاني من المدرسين . ويرفعون أيديهم صامتين أو يقولون سير سير سير ... وقــد اختفت كلمة أفندي الآن وحلت محلها السيد وهي ترجمة مستر ...

... سير سير سير أي Sir

– للتوسع في افريقية .

– م م معقول ...

– لتثأروا لجنرال غوردون. To avenge General Gordon.

– لأسباب إنسانية ... فور هيومانتاريان ريزنز .

For humanitarian reasons.

– ييس .

ونظر الطلبة إلى هذا التلميذ المتزلف وفي أسرار نفوسهم انتقاد له ... مخلص ، منتهز .

– لكي تكسبوا النقود To make money

– ييس ... نـ نـ نـ .... – نعم . لكي نكسب النقود .

ونظر استاذ التاريخ إلى التلميذ الكالح بألم وتوبيخ .

وكانت تلك الإقدامة حسنةً أذهَبَتْ تلك السيئة ....

إلا أن دهر النفاق آثر آخر الأمر أن يكون مع أهل التزلف وحرباً على أهل الجد والتعفف كما يصنع موباسان في القصص الحداد القصار .

« هبّت شمالاً فذكرى ما ذكرتكمو عند الصفاة التي شرقيّ حورانا »

هذا يقوله جرير . وقد جاءتنا انباؤكم فوجدناكم في قلوبنا .

واعلم أن في الناس من النفاق العظيم ما يكون به التلميح أبلغ من التصريح، حتى في تحدي هذا النفاق ، لأنهم يلتمسون للتصريح تأويلا باطناً .

الشجاعة والصدق وحدة النفس ...كل أولئك جميل جداً .

كانت اللبوءتان بحديقة الحيوانات بإبادان في حي الجامعة رائعتين حقاً تكادان تميزان من غيظ الحبس وفي أحداقهما نار تلظى ، شبلتا الليث الهصور

تتوقـــدان إليك من عينيهما والـلون لون النار أحمر صاهلا

وصعد الثعبان الأخضر ، ذو النقط السود عند رقبته ، الجدارَ يتلوّى سريعاً حتى إذا صار عند أعلاه اندفع . وكان الجدار من الطين مطلياً بالزبالة وقد تقشرت عند أعلاه وجوانب منه . واندفع اندفاعة وتلوّى ثم اندفع وهو في الهواء اندفاعة أخرى إلى فوق. ثم احتوته دوحة من شجر المهوقني. واضطرب النابلسي رحمه الله في تأويل الحية . وفي المنتخب المنسوب إلى ابن سيرين ان صعود الحية في علو دليل راحة وسرور ودخولها في بستان دليل ثمار وخفض . والأصل في الحية أنها عدو .

وقيل غير ذلك .

« عونك يا الله » ... هكذا قال السلطان محمد بل في مقدمة كتابه .

ما ألطف النسيم في الصباح
وانتم من الحيـــاة راحى
وللقتـــال عَتِدٌ سلاحى
ولا أبالي ألم الجـــراح
وربما أخطف كالتمساح
والقوم في سكر من المراح
والجد قـــد يخلط بالمزاح
وقـــد نرى ثغرك كالتفاح

او كغريضة التفاح كما قال الرماح بن ميادة . وكان استاذنا الشيخ عبدالله البناء ينشد كثيراً قوله :

« يا ليتنا في غير أمر فادح	طلعت علينا العيس بالرمّاح »
« بينا كذاك رأيتني متوشحاً	بالخز فوق جُلاَلةٍ سرداح »
« فيهن صفراء المعاصم طفلة	بيضاءُ مثلُ غريضة التفاح »

بعض الهزيمة تتفتق معه الأزاهر بالأمل

وهذا الجرح قديم ما اندمل

وانت حمل

ومثلك صبر واحتمل ... « حتى يتم الله أمره لا يخاف إلا الله »

لا تأس واصبر ان قلبك عامر بالحب ان المشتهـــاة تعود

قد خانني من خلتني رَبَّيتُهُ

ــ اللهم أرسل عليه صاعقة ... وأباحني من كنت عنـــه أذود

ــ اللهم أرسل عليه صاعقة ...

وصبرت ان الله باعث نصره ... ولقد يحين الخائن الرعديد

أما الجميلة فهي سُكْر بعدما ... حرمت عليّ الراح وهي صَبُود

ولقد ذكرتك والمسافة بيننا ... فتذكريني إنـــني لحميـد

ولعمر نفسك لو أراك فانني ... بعـد الذي قاسيته لسعيد

قال أبو عبادة البحتري :

« هل العيش الا ماءُ كَرْم مُصفّق ... يرقرقه في الكأس مـــاء غمام

وعُود بُنانٍ حين ساعدَ شَدْوَهُ ... على نَغَم الألحـان نايُ زُنامُ

فلم أر كالقـاطول يَحْمِل ماؤه ... تَدَفُّقَ بَحْرٍ بالسماحة طـام

ولا جبلا كالـزَّوّ يُوقف تارةً ... وينقـاد إمـــا قدتَهُ بزمـام

لقد جمع الله المحـــاسن كلها ... لأروع مـن آل النبي همـــام

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

(٣)

ــ أول مقالتك هذه يصلح للتأثير الصحفي . وهي نقد هدّام .

والتفت من لهجة المناظر المسامر ــ (هذا الكيك لذيذ ، لما رآه يأكل منه بشهية) ــ الى لهجة المؤاخذ والآمر فهو الآن حضرة الناظر :

ــ لوحظ عليك أنت على وجه الخصوص عدم الاكتراث .

وكان المستر غريفث قد أعد قـــائمة بالأخلاق التي ينبغي أن يتصف بها المدرس المنتظر أن يكون حاكماً .

ــ يا فلان أفندي انت مـــا تعرف « أو ما تعرفش » انه المدرس لازم يكون تاكْتْفُول ، أي لبقاً وليست فُول هنا بمعنى غبي فتلك لها واوان:

Tactful – (اللهم أرسل عليه صاعقة) – ... الدعاء على الغبي الذي هو فـُولْ وليس بتاكتـْفـُولْ .

كانت لغريفث في طريقته التربوية الادارية السياسية الدبلوماسية في اعداد المدرسين ، قائمة بأنواع الفضائل المرادة من المدرس المطيع الواعد المستطيع كالشعور بالمسئولية والاعتماد على النفس والابتكارية أي Initiative . وكانت كل فضيلة مقسمة في قوائم غريفث الى درجات خمس أو نحوها ألف باء جيم دال هاء واو . ويراقب الاساتذة تلاميذهم مدرسي الغد إذا نجحوا . لأن كلاً من هؤلاء مساعد تحت التمرين للحاكم البريطاني ثم بالسودنة مساعد كبير جداً للحاكم البريطاني بعد أن يتنحى عن منصبه ليشغله هو ، ويكون هو قد انتقل من ركوب غرفة النوم بالدرجة الأولى الى ركوب الطائرة . ثم من بعد المراقبة يُكـْتـَبُ عن كل تلميذ هو مثلاً أَلِفْ في الاعتماد على النفس ودالْ في الابتكارية وب في المساعدة للنفس . ولكي يكون المراقب منصفاً يلزمه أن يضرب أمثالاً يدعم بهـا حجته في قوله إن هذا في الاعتماد على النفس الف والشعور بالمسئولية جيم والابتكارية هاء ... وهذا هو البرهان العملي .

– ومن أجل أن مقالك هدّام قررنا أن نصدمك صدمة موجعة وننقص مرتبك الشهري جنيهاً عن مربوط زملائك ... وهكذا يكون الأدب يا أهل الكوفة . الا أن الحجاج كان اذا زجر الزجرة ارتجف لها من بآخر المسجد – (لكأني بالوالد رحمة الله عليـه وهو يقرأ من الكامل خبر ذي الكرسفة) – وكان المستر غريفث يَمْوءُ بصوت ضعيف في غير المسجد . ولكل مقام مقال ، ولكل زمان رجال .

« فيا بن كروّس يا نصف اعمى وان تفخر فيا نِصْفَ البصير »
« تعادينا لأننّا غـير لـُكـْنٍ وتحسدنا لأنا غـير عور »
« فلو كـُنـْت أمرأ يُهْجَى هجونا ولكن ضاق فتر عن مسير »

وشتان ما بين الفِتْر والمسير لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .
وكان لأبي الطيب قلب كبير .

وقال أبو عبادة البحتري من قصيدة كتب بها إلى المبرد وكان له صديقاً
وهذا بشعره ، كما ينبغي له معجباً :

« فمن مبلغ عني الثمالي أنــه مكان اشتكائي خالياً وتَفَرُّجي »

الثمالي هو محمد بن يزيد المبرد وكان من بني ثمالة حي من العرب ، وقال
أحد الرقعاء يطعن فيه :

« سألنــا عن ثمالة كُلَّ حي فقال القائلون ومن ثمالــهْ
فقلت محمد بن يزيد منهم فقال الآن زدتَّهم جهالةْ »

وكذب فقد نوّه بذكرهم صاحب الكامل ونوّه أيضاً بذكر هــــذا الخامل
« وذو النقص في الدنيا بذي الفضل مولع » .

قال أبو عبادة .

« سيثلج صدري اليأس واليأس منهل متى تَغْتَرِفْ مِنْه الجوانح تثلج »
« قنعت على كره وطأطأت ناظري إلى رَنْق مطروق من العيش حشرج »
« وجلــلجت في قولي وكنت متى أقل بسمعة في مَجْمَــــع لا أجلج »
« مضى جعفر والفتح بين مرمّل وبين صبيغٍ بالدمــاء مُضَرَّج »
« أأطلب أنصاراً على الدهر بعدما ثوى منهما في الترب أوْسي وخزرجي
« اولئك ساداتي الذين برأيهـــم حلبت أفــاويق الربيع المثجج »
« مضوا أمماً قَصْداً وخلفت بعدهم أخــــاطب بالتأمير وَالِيَ منبج »

وهكذا يكون الصبر على مضض الدهر .

وكانت وداعاً تلك النفحة من ذات الضفير الأصهب والخلق الشرعب ...

والعيش نفحات . وكل ما هو آت آت .

إني غُلِبت وذاك حرٌّ ساعر ... والعين فيها دَمْع حزني ثائر
ويكاد يُشْرِقُني ويفضح موقفي ... لما وقفت لدى الصفوف أحاضر
ولقد وقفت أخط اكتم لوعتي ... إني لعمر أبي المليحة شاعر
هل أستمِرُّ وما الملاذ وكيف لي ... أن أغلب الوجع الذي هو ظاهر
ولقد أقوم مع التلاوة في الدجى ... أرجو لعل الله لي أنا ناصر
ولقد ذكرت المشتهاة ودونها ... هذا الظلام ولُجٌّ غيبٍ زاخر
أسعى لدى التيه الذي أنا عنده ... قد أُغْمِدت في صفحتيَّ خناجر
ولقد رأيت إلى العيون وملؤها ... لا العطف لكن نَاظِرٌ ومناظر
ولقد أخال بأنّ حقي لازم ... لو قد تَثُوب الى الحقوق ضمائر
أو ما ترى أنّي وحيد مفرد ... غرثان أسْغَبُ للحياة وصابر
ولو استطعت لقد فررت وربما ... ودّ الحسود لو الفرارَ أُبادر
ولقد قهرت المستبدة نفسها ... جَهْلاً الى ولي بيان ساحر
أما الفتاة فلو تعود فإنني ... أرضى بها كلّ الرضا وأُفاخر
وكأنما اشراق نور جبينها ... قمر التمام اذ الحياة دياجر
هل تسمعين نداء صوتي انني ... أدعوك لا آلو وانت بشائر

اللهم بك نعوذ ونلوذ.... ما أقبح وجهها كأنه وجه سعلاة وفي النظرات بغضاء .. وفيم فيم هذا الآنْ عزفت وأنت عزوف .... وهذا دمعك أم دمع سمية مذروف. ولقد رأيت صاحبك في الحلم يقول القصعة على العاتق ، فكان كما قال ، وجاءت أعباء .

« فرياض القطا فأودية الشُّرْبُبِ فالشعبتان فالابلاء »

بعد عهد لنا ببرقة شماء ، ذلك عهد الخالصة المخلصة الخلصانة ...
هات القريض فإنه لمدامي ... ولعلّ ذلك ضارح الآمي

ولعلني عند المليحة واجد — بعض العزاء فإنها إلهامي
ولقد عضضت من الحديدة بأسها — وكبحت نفسي والنجاح أمامي
والله ينصرني وينفخ روحه — لأعيش لما قيل حم حمامي
يتكاثرون عليَّ في مكروههم — أحقاد كل سخيمة وظلام
ولقد ألوذ ولا ألوذ بغيره — بكتاب ربي حين جن ظلامي
وبفيض حبك يا حبيبة إنه — من فيض نور الله ذي الأكرام

ومن شعر الصبا الأول إذ النفس منطلقة العنان ونبوءات الخاطر نوافذ في غياهب المستقبل البعيد .

هات المدام فلات حين ملام — وأجمل غناءك من أبي تمام
لو كنت في ذاك الزمان وجدتني — مَذِلاً بِبالي خفقاً أعلامي
لكنني في أمة مغلوبة — سود الوجوه زعانف الأحلام

وكادت تجد هذه الأبيات سبيلها إلى أصداء النيل . وإذن لوجد الطغام لنارهم حطباً ولم يألوا ، وهم الصفْر النافق — (من خبّر أبا افراس أن الصفْر لا ينفق) — وأنت التبر الذي يغلو . وأعلم أن أبا فراس متوسط جداً بالقياس إلى أبي الطيب وكان يقرنه به بعض أهل الغباوة والغرض . وكان له إذا أفردته عن أبي الطيب وزنته ببعض نُظَرائِه — (أو لم تزنه) — من طبقات يتيمة الدهر ، احسان ، كالنجمة التي تظهر عند كسوف الشمس ... ولقد كسفت بجهة بخت الرضا عام ١٩٥٢ فهبّ خفق من ريح بارد وظهرت نجمتان أو أكثر ونام الدجاج وما أحسب أحداً قرأ بالبقرة وآل عمران . ولعلهم لو قرأوا لكان ذلك تعويذاً من بعض شرور ذلك الطالع

« وقاية الله أغْنَتْ عن مضاعفة — من الدروع وعن عالٍ من الأُطم »
« ومن تَكُنْ برسول الله نصرته — إن تلقه الأسد في آجامها تجم »

من لي بأسد القاصرة الذي تجوّع لعتبة بن أبي لهب ...

ولو يشاء ربك لأرسل عليهم صاعقة أربد وغدة عامر بن الطفيل وطيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل .

– اخاف عليك انت ... انت تستحق ...

وغرقنـــا في الشمعدان الذي هو بحر . وبرق اللـّيتُ إلى النحر . أنتم أصدقاء قلبي وعزائي وأنا أحبكم . ظفرت بكم على جهـد من نضال . يرتاح ضميري لقربكم جداً . هل انتمو تعطفون علي . وهل قرأتم ماركس .

بانوا أحبــاءُ الغـــريزة بانوا	فاصبر وصابر أيها الإنسان
وكأنما التفتت بجيد جـــداية	ولقـــد يسرك معصم وبنان
ولقد ذكرتك يا مليحة بعدمـا	غلب العدو وأعوز الخـــلان
ولقد يشيعُ عليك نور جبينها	يوما وانت بكـَفـَّك البرهان
والصولجان ومنبر الذهب الذي	يرقى إليه الشاعر الفنان
أم في فؤادك من جراح فراقها	ألمٌ رقـد ظفروا وأنت تهان
أم غاب عنك الله وهو صراطه	لما سلكت يضيئه الإيمـان
فاصبر على بعض البلاءِ فإنـه	يَبْلى ويَبْقى الجد والعرفان
وهواك في قلبي قـــديم غرسه	يسقي وزهر محبتي ألوان
هل تسمعين نداء أنغامي فلي	صوت إليك نشيده حنــان
أم انت رمز لا غرامَ وإنمـــا	تتشابـــه الأرواح والاحزان
ولأنت طائر روح نفسي مثلما	أنا طير روحك نخـْلـُنا صِنوان
هاتي أبوسُكِ من وراء مسافـــةِ	الآفاق طـَعْمُ لِثاتِنا نشوان
هب النسيم وللسحائب فوقنا	ظُلـَل ولما يحضر الرحمـــان
أمخلت دمعك لا يكفكف غربه	هـــذا الغناء وهذه الألحان
زارتك سكـْسُكـَة السكاسك إنها	حسناء لكن قلبنـــا أسوان
ونسوك ثم إذا نسوك نسيتهم	ولقد يضمدُ جُرْحَك النسيان

أم الذكرى ، فذلك لعمر ابيك أحرى

وكان من ملذات العيش زجاجات عصير المنقا وكُنَافةُ السوق . وكان الشباب عرمرما . وكانوا جميعهم يفطرون رمضان والاستقلال غير قريب . ذلك كان أول الوهن ويلعبون الشطرنج في النادي. وصدق الفقهاء، الكِعابُ والشطرنج كل ذلك مَيْسِر . وواحد وثلاثون ميسر خبيث . ويلعبها أربعة أو خمسة أو دون ذلك أو يزيدون . ويأخذ كل منهم ورقتين بعد أن يجرّد الورق من « الجوكرات » . وهم اللاعب أن يحرز ما يساوي واحداً وثلاثين بُنْطاً من الورق ... الفُنْط بنط واحد أو أحد عشر فهو لذلك ورقة عزيزة. والصور كلها قيمة ورقتها عشرة . وكذلك كل عشرة . ثم التسعة فالثانية إلى الاثنين .

فإن لم يتأتَّ لك بلوغ واحد وثلاثين ، بأن تكون في يدك مثلاً صورة وعشرة وُفنط ، أو تسعة واثنان وثمانية وخمسة وسبعة وهلم جراً ، اكتفيت بما يجتمع في يدك وتراعي ان تكون قريباً من واحد وثلاثين كأن يكون في يدك مثلاً ثلاثون أو تسعة وعشرون وكلما كنت من واحد وثلاثين أدنى كنت أربح ما لم يكن عند خصمك « اربعة عشر » فهي تعد أعلى غاية بعد واحد وثلاثين . والفنط مع ثلاثة اجود « اربعة عشر » لأنها إذا أضيفت إليها صورة صارت أربعة عشر أو اربعة وعشرين فإما نمت وأما حاولت بلوغ واحد وثلاثين .

ومدار اللعب ان يعطي كل لاعب ورقتين . ثم بعد ذلك يبتدىء اللعب . فيطلب اللاعب ورقة تعطاه من مجموعة الورق الكبيرة ولا يزال يستزيد حتى يبلغ واحداً وثلاثين أو ينام دونها او يربى عدده عليها فيخرج من اللعبة ومن شأن المتقامرين ان يلعبوا على خطر يبدأون به ، قل مثلاً عشرة قروش. ثم قد يجازف بعضهم فيزيد الخطر قرشاً أو قرشين قبل ان يرى الورقة التي يستزيدها . وإن يك في يده فنط وصورة أو فنط وعشرة فربما زاد مبلغاً كبيراً ثقة في نفسه أنه سيجذب من مجموعة الورق صورة أو عشرة فتجتمع عنده واحد

وثلاثون . وإذا كان في يده فنط وثلاثة زاد على أمل أن تأتيه صورة فينـام.. أو سبعة فيطمع في واحد وثلاثين .

وكانوا قلما يتجاوزون بالزيادة مـا هو لحو العشرة القروش . ثم داخلهم أصناف زملاء أشرس منهم وأضرى بالقمار . فكانوا ربما زادوا جنيهاً عنـد الفنط والصورة ... وراج بين الأفندية لعبة الكونـكان ابي اربعة عشر وهذا يلعب باربع عشرة ورقة يقصد اللاعب إلى مؤاخاتها ثلاثا ثلاثا واربعا اربعا أو في نسق منسـوق « والجوكر » يسد مسدايتما ورقة . ولأحد الصحفيين المصريين أرجوزة في الكونـكان يحاكي بها العلماء الأولين منها :

« الأصل في الكونـكان ألا تنزلا وجوّزوا النزول إذ لا أمـلا »
« والكرت لا تنزله في السيريه[1] كي ينتقي النفع بمـا يليه » .

لا اظنه قال « الكرت » والنظم كأنه مستقيم . وفضيلة الكونـكان على واحد وثلاثين أنه ينتفي معه امر الزيادات المجازف بها وان يتفق بين اللاعبين الأفندية الوديعين مقامر طموح طماع متغول فيزيد الجنيهات ويضغمهم ضغماً ولا يستطيعون له حطها . ثم فيه إرضاء لأهل الطمع بالذي يجتمع لديهم من النقد المساهم به كلّ من في مجلس اللعبة وقد يكونون ستة او خمسة ويكون الخطر جنيهاً مثلا ... الذين يلعبونه بجنيه هم الذين كانوا يلعبون الواحـد والثلاثين بعشرة قروش .

وبعض أهل التهذيب البرجوازي والتطلع إلى مراقي صالونات الدرجـة الأولى في أفلام هليود يصطنعون لعب البوكر . وهو ورق خبيث يستغني فيه عن الجوكرات ومادون السبعة ويعطي كل لاعب خمسة اوراق . ثم يستبدل ما شاء من ورقه بعد بزيادات يزيدها . ومدار هذه اللعبة لا على بلوغ غايـة بعينها كما في واحد وثلاثين ولكن على ادعاء بلوغهـا كي يهرب اللاعبون الآخرون وتكسب انت الخطر . وفي واحد وثلاثين يقع الهرب كأن تزيـد

---

(١) النسق .

انت مثلاً خطراً كبيراً وفي يدك ورقة وصورة فيهرب عنك الآخرون تاركين لك الخطر الصغير الذي سبق وضعه لثقتهم ان فرصة كسبك كبيرة . أما في البوكر فعنصر احتمال الكسب من طريق السحب أضعف وعلى الزميل أمره أغمَضُ لأنه لا يعرف علام انت زائد الخطر ... هل عندك اربعة او ثلاثة او نسق صغير او نسق كبير ومن اي اصناف الكتشينة ... إذ أعلى مرتبة في البوكر هي النسق الكبير وهو تعاقب خمسة اوراق في نسق من لون واحد. واعلى ذلك ما بَدَأ بالفنط فالشائب فالبنت فالولد فالعشرة . واعلى الألوان البستوني فالقلب فالمربع فالشرية كما في البردج إلا ان هذا يزيد فيه اللاّلون على جميع الألوان .

والبردج اسنوبية كبيرة وفيه مؤلفات ويمكن ان يلعب به قمار أنيق ، كأن تجعل للمائة شلناً او دون ذلك وعلى هذا قد تشارك فيه النواعم . ووقار برجوازيته قد يكبح نزق القمار عند من يهم بذلك والله أعلم .

وهذه فائدة التعليم الحديث .

ولا يدري هل تلعب البنات القمار فالحذر يطبعهن اشبه . وقد يلعبن الوست . وقد يدخن . و« الصندوق » عمل اقتصادي مستقيم ، غير انه لا يخلو من روح قمار طيب من نوع النفع الذي سبق التحريم .

وبلغني ان بعضهن في السر ربما استبدلن البيبسي كولا بالجعة التماساً لحرية التظرف والتصرف .

وكان الناس منذ ربع قرن يتناظرون هل يتجاوزون بتعليمهن مرحلة المدرسة الوسطى .

وكان الناس يشفقون عليهن ويغارون فربما ظلموهن وهم لا يرومون غير الحفاظ وفرط المِقَةِ .

قال ابو الطيب :

« وقد يؤذي من الـمِقَةِ الحبيب »

وفي شرح الموطأ (المنتقى للباجي) : « مالك انه بلغه عن عبدالله بن عمر انه قال قال رسول الله ﷺ لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » ش قوله : لا تمنعوا اماء الله مساجد الله دليـــل على ان للزوج منعهن من ذلك وان لا خروج لهن إلا بإذنه » ا. هـ. فتأمل . إلا ان نزاهة العلم أبت على أبي الوليد الباجي رحمه الله إلا ان يذكر الوجوه الاخريات من ذلك مثلا ان الخروج حث للأزواج ليأذنوا لهن في المساجد ومن ذلك ان ذلك حق لهن ليس لأحد ان يحرمهن منه وهلم جراً .

وكان بعض الناس عندنا يرون أن يكتفين بما دون الكتابة كالتطريز وما اليه وهذا قريب مما قال المعري :

علموهن النسيج والغزل والردن وخلوا كتابة وقراءة
فصلاة الفتاة بالحمد والإخلاص تجزى عن يونس وبراءة

وهل كانت أم أبي العلاء قارئة كاتبة ؟ ما أشبه أنها لم تكن وكان لها محباً فيما لم تكن منه حالِيةً ما كان ينبغي أن يكون حِلْيَةً لغيرها والله تعالى أعلم .

وكان كشف الرأس ولبس الشفاف بعيداً عن الظن كل البعد .

وقال لهم في النادي ان الفتيات سيقفن ههنـــا بثياب العوم ويتواثبن في النيل . فقـــال أحد المشايخ ولكننا يا للأسف لن نعيش الى ذلك الزمان . وجسم الحرة إلا الوجه والكفين يُغَطَّى . وليس كذلك جسم الرجل . ولا جسم الأمة . ونساء دار الحرب إمـــاء بالقوة إلا بالفعل . وقالوا لبعض المبعوثين الى الخارج اوروبا كلها دار حرب .

وكان اللورى يحمل الخشب والحديد ومع كل قعقعة تحس الوجع في عينيك

كأنه الرمد . وابتدأ فجور الذين وقع في أيديهم من فتات السودنة نصيب .

قالوا ، « ملكة نصر الله اليوم وضحوة » . قالوا ولما صار نصر الله هذا ملكاً قال « جيبوا لَيْ البيتْ النِبِكرْ كُلْهَا » فأصبحوا وقد خسفت به الأرض .

وكان الناس يلعبون الكرة حفاة يركلونها بطرف من الرجل . ثم جعل بعضهم يلبس الحذاء كما يفعلون في أوروبا . وتعلم الناس عمل المربى من البنضورة .

وافتتح بالخرطوم دكان سندوتش . وافتتح بعد ذلك بزمان دكان دندرمة .

وطريق الحكم الذاتي طويل شاق . وأنا اليكم مشتاق . انتم أصدقاء قلبي وعزائي وأحبّائي . أنا احبكم . ظفرت بكم على جهد من نضال الحياة . يرتاح ضميري لقربكم جداً. هل انتم أيضاً تعطفون علي. هل قرأتم ماركس؟ وتعرفون فرق ما بين الاستعمار والامبريالية أي بسط السلطان وفتوح البلدان والمبادرة التي عند الأمريكان وكيف ذبحت العربيات على أريج القرنفل .

وَيَتَطَلَّعُ الموظف الجديد بوجه ذي ارجوان من لون وشفاهٍ رقاقٍ ذات حمرة إحساس كأنه مرهف ... احساس جنسي نوعاً ما ... مثل شفاه من يا رب ؟

وهل تذكر حمرة الحصى فوق الربوات الحمر التراب في طريق حمراء مراكش ؟ ولون الأصيل وظلال المرتفعات من ركام التراب عليه الحصى . وعربة « السَّاتيَمْ » وقد تعطل انبوب الوقود فملأوا كوزاً بالبنزين ووصلوه بموضع الشرارة رأساً في حذق عظيم. شتان ما بين هذا البص — اللهم غفراً — هذه « الحافلة » كما يسميها المغاربة ، وذلك اللورى ذي الخشب وقضبان الحديد في الصيف المحرق وراء كثبان النيل الأبيض البيض الرمال .

وكان المستر غريفث قد برْمَج لتلاميذ بخت الرضا رحلات مدرسية يعسكرون بها خارج قريتهم ـ وقد كانت كمعسكر ـ في الجلال القريبة التي تشبه جلال أكثرهم التي منها قدموا .

والفكرة مأخوذة من نظام الكشافة إلا أنها أخف لانعدام عنصر الزي «والتندرفوت» والعقد والعكاز والحبل والصفارة وسائر مظاهر شبه العسكرية التي في الكشافة .

و « التندرفوت » صليب لا ريب فيه وكان المشتغلون بالكشافة عندنا يزعمون أنه زهرة لا صليب . وقد تعلم أن والد اللورد بادن باول قد كان قسيساً واستاذ كرسي اللاهوت بجامعة اكسفورد . وكان أثر الكنيسة بوجه عام عظيماً في ذلك الزمان . ولا زال . وقد بلغنا أن الكنيسة قريباً قد عارضت انشاء قسم للفلسفة الإسلامية بجامعة « درهام » فكان ما أرادت .

وانما نظم الكشافة اللورد بادن باول فيما زعموا لتهيئة نفوس النشء من مواطنيه للتضحية من أجل الشعور القومي الخ .

ونظموها في المستعمرات لقتل ذلك الروح . وذلك من طريق الالحاح على النظام يؤخذ به الناشئة أخذاً شديداً ، فيقهر فيهم جانب التصرف الفردي المستقل ، وتربط طبيعة الطاعة بارتقاب المكافأة والثناء وهذا كأنه توطئة لمستقبل العمل في سلك الوظائف الخاضعة لسيطرة الحاكم الاجنبي . وقال شوقي :

« وكم منجب في تلقى الدروس تلقى الحياة فلم ينجب »

وهذا كأن شوقياً حاول به أن يصف ما كان يصاب به كثير من اذكياء ساحة الدرس من اخفاق في عمل الوظائف وخيبة أمل ، فيدمن بعضهم الشراب ، او ينهمك في نحو ذلك من الملذات لينهار امام الصدمات .

والحق ان المنجب في تلقي الدروس ينجب في تلقي الحياة على الأكثر

الأغلب، لأن العلم في دار الإسلام لم يكن يُطلَب للوظائف، وكانت حِليَة العلماء التواضع والتواضع عند الناس مقبول ، وللعلم في القلوب منزلة .

ولكن مع التعليم الاستعماري كان الذكي موضع مراقبة من الحكام . وكانت المدارس دور مراقبة مبدئية . فمن امكن من اذكياء التلاميذ التأثير عليه ليتجه طموحه الى ضرب ينتفع به المستعمر تلقى الحياة فأنجب ، ومن كان ذكاؤه اخطر من ذلك بدئت محاربته وهو تلميذ لكيلا ينجب في تلقي الدروس فيكفون شره من دون ظُلْـــمٍ منهم له ... وعلى هذا ينجب في الدروس كثير ممن ليسوا فيها حقاً بنجباء فمتى تلقوا الحياة فربما فتكت بهم سابقة النجابة الزائفة .

وينجب من كان في الدرس نجيباً وتأثر بمذهب الاستعمار . فإذا نما عنه بنُضجِ السن وهداية الله او اي وجه آخر ... التَوى بهِ طريقُ الحياة فحُورِب ولم يُنجِبْ ... وفَرِّعْ بعد هذا ما شئت من معاني بيت شوقي.

ولطفت عنـــاية الله بشوقي وانه كان من أبناء بلاط الخديوي فأنجب في الدروس وفي الحياة.. ولعله أن يكون أعظم مفكر عربي أديب شهده القرن العشرون ولعله حظه من هذا أكبر من حظه من حاق جودة الشعر ، وان يك ليس بصِفْرٍ من ذلك كما تعلم . وأجود شعره ما كان طرِباً ناعم عيش نحو:

« طال عليها القِدَمْ فهي وجودٌ عَدَمْ »

ولكن أمثال :

« شرَفاً أدِرْنَةُ هكذا يقف الحمى — للغـــاصبين وتثبت الأقـــدام
وتُرَدُّ بالدم بُقْعَةٌ أُخِذَتْ به — ويموت دون عرينه الضرغـــام
صبرا أدرنـــة كلُّ ملك زائـل — يومـــاً ويبقى المـــالك العلام
في ذمة التـــاريخ خمسة أشهر — طـالت عليك وكلّ يوم عـــام

بعث العـــدوُّ بكل شبر مهجةً   وكذا يبـــاع الملك حين يرام
حتى حواك مقـــابراً وحويته   جُثثاً فـــلا غبن ولا استذمام »

مذهب من البيان شريف. وقد زاوج شوقي هنا بين طريقة فرنسية وانفعال عربي وروح اسلامي . وذلك من الفكر أوج رفيع جداً، وأن يك من حيث حاق جودة ايقاع الشعر دون مستوى النابغة وجرير وأبي الطيب والطغرائي والبوصيري والبارودي والله أعلم .

هذا وكان أبناء الخلوة يوقدون نار القرآن وهي أشرف من نار المعسكر . وهذه نار برجوازية لو استطاع صاحبها أن يوقدهـا بالكهرباء لفعل فكيف ببعر البقر . ولعله بعد أن يصير أفنديا أن يحتقر البقر والبشر الذين معهـــا أيضاً .

وطاح زلزال بيرو بأمريكا الجنوبية بستين الفاً وببلدتين ابتلعتها بحيرات الحمأ الحامي في أقل من دقيقة .

هكذا تقوم الساعة فاصبر .

وماذلك على الله بعزيز .

ما أكثر الوجوه الحسان وقلبك جريح .

وقوتُ القلوب اسم مليح .

أنتِ قوت الفؤاد في حندسِ الوحشة من بين حاسد وكفور
وتذكرت حسن وجهك يا حسناءُ عودي إليَّ ثمَّت زوري
أنت غـــادرتني ، وأجمل كل الناس والله أنت في الديجور
وتصبرت واصطنعت دواء النفس في الشعر خشيَةَ اللاشعور
فتعالي إليَّ كي يثبت الطَّوْد كما قد عهدته ذو الصخور
واكفهرت آفـاق دهري ولكني أرى في السماء ومضة نور

وبلونـــا صنوف عُمْي قلوب وعيون وقـــد بُلينا بعـور
وصبرنا وقد وجدتُ على مرّ خطوب الزمان حقّ صبور
ولربي لمـــا حباني من صحـــة نفسي والجسم حقّ شكور
ولعل الإله يبسط لي مـــن فسحة العيش بالجنـــاح الكبير
ويريني مصـــارع القوم بالنصر ويُمْنِ المظفّر المنصور
قد فزعنا الى الصلاة وفيها راحة النفس وانشراح الضمير

وقهر الأعداء

بحق العرش والفرش والأسماء

وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء

وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

(٤)

قالوا لا يعمل في الحكومة لأنه أساء الى الفراش جداً .

ــ بِسْ أنا حلبي « بكسر الباء من بس وهو اسم صوت لزجر الهر ».

وهؤلاء أبناء الأستعمار يهتفون بسقوط الاستعمار نَحْنُ المفهومات الحديثة.

وعمل الحكومة لأبناء الطاعة. والمستوطنون مسموح لهم بشراء المشروبات الروحية . وكذلك الأطباء لأنهم طبقة مستنيرة .

ــ وأنا افتكر يكون مفيد أحسن الواحد بِيتْمَرْمَطْ شوية قبل ما يفكروا له في موضوع بروموشَنْ .

وقضى بالكبد ولمـّا يكتهل و كان يلقى ابنه بالرصيف وهو عليل بَلـَغت به العلة مبلغاً فيعطيه خمسة قروش رأفةَ والد . وكان يعلم أنه سيموت فهذا حنانه عليه إزاء مصيبات الدهر الكبير . كان يراها بكشف قرب المنية .

أنت على أهلك عطوف ... وعيناك عطوفان .

« تبيت وأرض السوس بيني وبينها وسولاف رستاقٌ حمته الازارقة »

وورق كتاب الكامل كبير . وحرفه واضح . وهامشه جيد . وحول الكتابة خطوط اطار . وكان يديم قراءته الوقت الطويل ويلذه باب الخوارج. وخبر عمران بن حطان . وخبر عتاب بن ورقاء .

« ويوم يجيٍ تلافيتـــه ولولاك لاصْطُلِم العسكر »

وعبيدة بن هلال :

« شيخٌ على دين أبي بــلال
وذاك ديني آخر الليــالي

وبنو المهلب . وحبيب الحرون .

« ومن مبلغ الحجاج أن غلامه زياداً أطاحته رماح الأزارق »

كان لا يمل العمل . ولا يركن الى الكسل .

وحديثكم أشهى من العسل .

« ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل »

كان مختارات البارودي من مكتبة الوالد . واختيــاره من لامية العجم جيد . وأول ما علم ان اسمها لامية العجم من الشيخ عبد الله النقر رحمه الله.

وكان يسأله عن صفين والجمـــل . وكانوا يقرأون خبرَ كلاب الحوأب تنبح أم المؤمنين .

« أولئك آبائي فجئني بمثلهم   اذا جمعتنا يا جرير المجامع »

وكان لايني يستحسن اول اختيار البارودي :

حب السلامة يثنى همَّ صاحبه   عن المعالي ويغري المرء بالكسل

وظل يعيد قراءة ما أقرأه أبوه او سمعه يقرأه من باب الأدب والمدح. . إلا انه لم يكن يقرأ كثيراً مما اختير للرومي إلا نونية ابي الصقر .

« كلا لعمرى ولكن منه شيبان »

ويقرأ له باب الأدب . ويعجب من كثرة ما اختير له منه . وشيء مـا نفر به شيئاً عنه لعله قوله :

« ماذا يقول القائلون بعدي »

ونحو قوله : « وتطفو فيه جيفة » . ويعجبه قول الطغرائي :

« ودع غمار العلى للمقدمين على   ركوبها واقتنع منهن بالبلل »

وقوله :

« ما كنت احسب ان يمتدّ بي زمني   حتى أرى دولة الأوغاد والسفل »
« تقدمتني أناس كان شوطهم   وراء خطوي إذ امشي على مهل »

وكان رحمه الله يترنم بقول ابي تمام :

« ولو لم يكن في كفه غير روحه   لجـــاد بها فليتّق الله سائله »

وهوامش البارودي وافيات يذكر منها تنور ابن الزيات وأرطال الحديد التي عذب بها .

وقبر ابيك وراء العزار   وأمك والحسن المغرق

وكانت فجاءة موته من أسباب إسراع المنية اليها .

وشيخ بني نقر خده   عليه السماحة والمرفق

وكان يقول هذه دياركم وهذا الجرف حباه أبونا فلان ابانا فلاناً . وآباؤكم كانوا حماة هذا المسجد .

وجيء بالأطفال امام الحاكم ليتأكد قبل ان يلغي دين المرحوم . وكتب ووقع بخط واضح . وكذلك كتب مفتش اللجنة بخط واضح عندما قبلوه وهو الأول مجاناً بعد تردد . كتب مجاناً الميم أولاً ثم اعاد عليها القلم ثم انتقل الى الجيم . وكانت في المدرس اللابس البنطلون والبدلة شراسة وجبرية بالنسبة لما ألفوا من وداعة مشايخ المدرسة الأولية . وانتهره وهكذا بدأت سوقية الثورة على القديم. وتكلم مدرس الانجليزية عن فعل الكينونة ولم يفهم شيئاً. ثم ما استدار العام حتى كان قد قرأ الكتاب الرابع الذي يصلونه بعد اربعة اعوام . وآنئذ فقط علم ان والده كان قد درس من الانجليزية شيئاً .

وكان يحث قومه على التعليم . وكانوا عن تعليم بنيهم نافرين بله بناتهم . ثم اقبلوا على ذلك جميعه بأخرة مع سائر الناس . وإنما كان يخاف عليهم ان يسبقوا في مجال النضال بضياع الفرص فقد سبقوا. والبنات اللاتي أدخلن المدرسة في حياته أخرجن منها بعد وفاته وكانوا يحترمونه ويودونه . وصنع مرة نشيداً للتلاميذ فاقترح عليه ان يذكر المفتش مفتش المركز في النشيد . فقال في بعض ما قال :

« وكذا مفتشنا الرزين »

فخاف بعضهم ان يظنها سامع « الرزيل » والاعداء واهل الوشاية كثير. فغيرها « الوقور » وجعل يكررها ليستقيم لديه جرس إيقاعها . وكأنها لم تعجبه . ولعل « الرزين » كانت اشبه بذلك المفتش .

وهكذا اول انتباهك ، كان ، لأمر يقال له السياسة والنفاق الاجتماعي والدبلوماسية وعبء الحياة الثقيل.

وتلفت حولـــك ترى الجثث تتساقط ، جثة بعد الأخرى ، والأرواح تتطاير لها رزّ في الهواء كصوت السهم الذي قتل بـــه شيخ البحر طائره المشئوم .

كان أول عهدنا بالشعر الانجليزي أوائل درسنا الانجليزية . وكان مـــا تلقيناه حينئذ تعليمي الروح صبيانيها . كقصة الذبابة والعنكبوت . ثم تدرج أمر الدرس بالتلاميذ وجيء لهـــم بنتف ميسرة اللفظ من الكتاب المقدس كألغاز خبر شمشون وقصة يوسف واخوته ...ويا بنات اسرائيل الا تبكين لشاءول ... وهذا كله انما كان كجلب التمر الى هجر .

ثم درس الطلبة من شكسبير قطعاً. مثل خطبة هنري الخامس الحماسية : « إن يك قد كُتِبَ علينا الموت فحسب بلادنا خسارةً نحن . وان يك قد كتب لنا النصر فكلما قل العدد كان النصيب من الشرف أكثر »... وخطبة بورشيا : « طبيعة الرحمة لا تقسر » ... « والدنيا مسرح »، هذا فيحديث جاك ، « وكلُّ النساء والرجال ممثلون ليس الا »... هذا وما أشبه كان بليغاً نحس بلاغته ونعلم أنه عند القوم شعر . الا أنـــا لم نكن نجده عندنا شعراً بالمعنى الذي نفهم ، شعراً مثل :

« لكل امرىء من دهره ما تعـــودا
وعـــادة سيف الدولة الطعن في العدا »

وكنا قد نحس النغم في أمثال قطع رديارد كبلنج

Who hath delivered us who?

Tell me his nest, his name.

Rickie, the valient, the true,

Tickie, of eyeballs of flame.

ولكنا كنا نعلم أن هذا نغم اطفال ، مثل « حكاية الكلب مع الحمامة »، ثم جد القوم في محاولة تفهيمنا شعرهم لنتذوقه من حيث هو شعر .

وعسى ان يكون من بعض ما حداهم إلى ذلك ما كانوا يرونه للشعر من مجال كبير في حياة تعبيرنا . فما كان احتفال توديع او استقبال ليخلو من شاعر . بله عيد الهجرة وليلة المولد ويوم الخريجين . وكان شعر الوطنية والمجد كله يهز القلوب :

« رجال الغد المأمول إنا بحاجة الى حكمة تملي وكف تحرر »

« أحرامٌ على بلابله الـدوْ ح حلالٌ للطير من كل جنس »

« وللحريـة الحمراء بـاب بكل يـد مضرجة يـدق »

« يا من رأى عمراً تكسوه بردته والزيت أدم له والكوخ مأواه »

« يهتز كسرى على كرْسيّه فرقاً من بأسه وملوك الروم تخشاه »

وجعلت للتلاميذ حصة او حصتان اضافيتان لتشرح لهم فيها بدائع الشعر الانجليزي. وأحس مدرسوه ان تدريس شكسبير ههنا قد لا يبلغ بهم الغرض المراد لأنه مسرحي . وخُطّبه عرفت بعضها من طريق التمثيل واختلط الاعجاب ببلاغتها المسرحية والبيانية اختلاطا يعسر معه تبيين قيمتها الشعرية

شيئاً منفصلاً ينشأ منـه احساس تذوق من الطلبة للشعر الانجليزي نفسه من حيث هو شعر انجليزي .

وبلدىء بنحو :

What is this world, if full of care,
We shall have no time to stand & stare?

وبقطعة السامعين :

Is there anybody there, said the traveller....

وجيء باسطوانات فيها أغانٍ ، شُرحَتْ ثم استمع اليها الطلبة ، وقـد وُجِدَ شكسبير ههنا أجدى من سواه :

Come away, come away, death. . . .
It was a lover and his lass. . . .

واجتهد التلاميذ ليفهموا هذا السحر . وليعبروا مسافة ما بين :

The old order changeth yielding place to new.

وبين :

« ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى   عدواً له ما من صداقته بد »
« ولست بمستبقٍ أخاً لا تلمه   على شعث أي الرجال المهذب »
« يقولون جـاهد يا جميل بغزوة   وأي جهـــاد غيرهن أريد »

وكان كلردج ووردثورث مقدمة باب الاجتهاد الجديد . ثم شعراء الحرب العظمى ، وابتدأت محاولات ادعاء الفهم والتجاوب ببعض صدق وبعض كذب وبعض

امل انتصار . وهـــذه قطعة قنطرة وستمنستر . عجيب وصف هؤلاء القوم للطبيعة . هل هذا وقول الآخر :

« والريح تعبث بالغصون وقد جرى   ذهب الأصيل على لجين المـــاء »

كل أولئك شعر ؟

« ورد ثورث » كأنه جغرافي . هكذا لاح له اول الأمر . . السفن ، الابراج القباب ، الحقول ، السماء،الهواء الذى لا دخان فيه . . . ثم بدا الشبه بين هذا الأسلوب وطريقة رسم اللوحات . . . .

« والريح تعبث بالغصون وقد جرى   ذهب الاصيل على لجين المـــاء »

هذا ليس بلوحة . هذا شعر . ولكن مع الاجتهاد يمكن العبور . . .

وقُرِئَتْ قطع المدارس . ومزيد عليها . ملتون . مارلو . كيتس . شـــلي .

Hail to thee, blithe spirit,

Bird thou never wert -

That from heaven or near it,

Pourest thy full heart,

In profuse strains of unpremeditated art.

وشرب بعض الاذكياء على هذه القطعة من عرق المَوْرَدَاء [1] .

وكان بعض من يتعرض للشعر العربي من مدرسي الانجليزية ربما قال ان

---

(١) الورداء أي « الوردة » من احياء ام درمـــان ، ووردت باللد في شعر توفيق صالح جبريل : « وليلة الموورداء الخ » .

الوزن « مونوتونس » وبلغهم ان له ستة عشر وزناً فهذه قليل . وحتى لو قيل لهم فيه كذا وثلاثون عروضاً وكذا وستون ضرباً لقالوا محدود . رتيب .

واتفق أن العقاد كان قد كتب أو يكتب .

ويبدو ان اقطاراً أخريات في بلاد العربية قد مرت بالتجربة وجاءت الفتنة . وجعل الرفقة يستهجن بعضهم شوقياً . . . شوقياً الذي عرف اهمية الاصالة وطلبها باجتهاد عطر الله ثراه وجعل الجنة مأواه . ولفتك بعضهم إلى ديوان العقاد . وكنت تحس في بعض متنه وهياً . وكان بَعْدُ يتتلمذ في حاق مبدأ طلب الاصالة لشوقي رحمها الله ونوّر قبريهما .

واندفعت انت تنوع في الأوزان وتنظم « بلانك فيرس » لأن « بلانك فيرس » Blank Verse هـذا هو الذي نظم به شكسبير . وبرميثيوس أنباوند لشبلي Prometheus Unbound وترجمات انجليزية لفاوست (جوته) وماري ستوارت (شيلر) . وقرأ بعض اصحابك رسالة الجمال The Testament of Beauty وكان هـذا العنوان عندك كأنه عنوان احد المتون . واخترع احد رفاقك اوزاناً يقلد بها صفير الطيور .

لبيك ربات القرِ ض على نجائبك الجياد
أحيا على الأفكار يُنْ طِقُ طبعها شتى الشوادي

شد ما تعبت في صياغة هذا البيت وأنت تريد به ترجمة قول ملتون .

Then feed on thoughts that voluntarie move
Harmonious numbers , ...

واعلم اصلحك الله ان للشعر نغماً مجرداً . ورام الخليل بيان هذا إلا ان نظام تفعيلاته ودوائره خالطه مذهب النحاة في تحديد عدد الحركات

والسكنات والحروف ، فاختلط امر نقرات النغم المجرد شيئاً بطبيعة تكوين مقاطع الكلمات وما يعتريها من أصناف العلل . وهو بعد لعله اسلم مسلكاً من عروضيي الانجليز الذين يخلطون طلب توضيح النغم المجرد بأصناف من أوصاف طرق اداء الشعر من حيث القاؤه والنطق به فيدخلون في اعتبارهم الارتكاز « accent » وبعضهم قد يعول عليه دون سواه ويزعم انه الأصل الأول في اوزان الانجليزية وبعضهم قد يعول عليه وعلى المقاطع معاً وبعضهم قد يطلب مع ذلك اعتبار وحدة موسيقية. . . ولا يخفى ان الارتكاز عند النحويين قد يقع على الاسم والفعل والظرف وما اشبه ولكن عند بعض المتكلمين قد ينصب على ما يراد تأكيده . . . فلا يمكن الاعتماد عليه حقاً في قياس وزن الشعر كما ترى . ومواضع الارتكاز في قولي امرىء القيس :

ألا انني بال على جمل بال يسير بنا بال ويتبعنا بال

والمعري :

تلاق تفرّى عن فراق تَذُمُّه مآقٍ وتكسير الصحائح في الجمع

مختلفتان جداً والوزن واحد . . . هذا اذا اعتبرت السجع وحده ويزيد الاختلاف اذا اعتبرت أوجه الأداء الممكنة المختلفة .

هذا ومرادنا من قولنا الوزن المجرد أمر وراء مواضع الارتكاز وكم المقاطع.. السبيل المحسوس الاول إلى معرفته نقرات النغم . . . ثم قد يتجاوز مجرد نقرات النغم إلى احساس الفكر والوجدان بالموسيقا المرادة وتقديرها ذهناً وعقلاً لا حساً محسوساً . ومن اقرب ما يستشهد به في هذا الباب أغاني الأطفال وهم يلعبون ويتحركون فربما خلطوا وزناً مقطعياً بآخر غير مقطعي ثم وزنه عندهم واحد ... وهو لمن تأمله بروح حركتهم ، وزمنية نفسيتهم وزنه واحد ... مثلاً :

« يم » ام احمد . دقي المحلب . فوق توب احمد . أحمد غـــايب . في الركايب . جانا كلِبْ . سنونه حمر . حلب الناقة . في الشنقاقه :

تريد امك والا ابوك .»

ومثلاً : سمبرية يام قدوم . عيش ابوي متين يقوم .

باكر . مع العساكر .

ويروى عن امير المؤمنين علي صلوات الله عليه انه تمثل بقوله :

اشدد حيازيمك للموت فإن الموت لاقيك

ولو حذف « اشدد » كان البيت هزجاً . وزيادة « اشدد » لم تخرجه عن الهزج فيما نرى . قال المبرد ، « والشعر إنما يصح بأن تحذف اشدد فتقول : «حيازيمك للموت فإن الموت لاقيكا » ولكن الفصحاء من العرب يزيدون ما عليه المعنى ولا يعتدون به في الوزن الخ (الكامل ٢ — ١٢٨) . . . ولعل هذا يقوي ما نذهب اليه من ان الوزن عندهم مستقيم مع هذه الزيادة لأنها في تقدير زمنية نفس السامع غير موجودة . واحسب انك لو قلت :

قد رمى المهدي ظبياً شكَّ بالسهم فؤاده

(والبيت لأبي دلامة) ثم قلت « قد رمى المهدي امير المؤمنين ظبياً » بقصد توضيح المعنى ، ثم قلت « قد رمى المهدي امير المؤمنين ابن ابي جعفر الذي أزيل له عن منصب ولاية العهد ابن عمه عيسى بن موسى فقال الناس هذا الذي كان غداً فصار بعد غدٍ . ظبياً » ، بقصد المزيد من التوضيح كان وزن ذلك جميعه في حكم زمنية النفس واحداً . لأن زمنية النفس أو قل زمن النفس يعبأ بالوزن المجرد. ومرادنا بزمن النفس أو زمنيةالنفس ما يجرده الفكر أو يستطيع تجريده من موازنات الحركة والزمان الايقاع حتى يخرج

بذلك الى مفهوم معقول محض . والراقص الذي ينتقـــل من الحركة ذات التؤدَة الى شيء ذي هستريا وجنون إنما يروم باختلاجات جسده ومقدرته هو في ذلك ان يصل الى هذا المعقول الايقـاعي المحض . ونحو من ذلك يرومه الشعراء عندما يرومون بيان الشعر . . . وهل أراد ملتون شيئاً من هـــذا المجرى بقوله :

Then feed on thoughts that voluntarie move.

Harmonious numbers, ...

ام الصواب ان الانغـام والايقاع الذي في النفس هو الذي عن طواعية تستجيب له الأفكار والبيان ؟

هذا وقد قال شكسبير :

It was a lover and his lass
With a hey and a ho and a hey nonino
That o'er the green carnfields did pass

فدل بقوله :

With a hey and a ho and a hey nonino

على طبيعة الوزن المجرد والايقاع المحض الذي هو يطلبه . فأيّما تقطيع عروضى لا يعتمد على هذا التنغيم الذي نغم الشاعر نفسه ليس بمذهب سليم .

ولقد يذكر عن Yeats (ياتس) انه تمثل بأول بيت من الفردوس المفقود لملتون لبيان ما يقع من النغم الشعبي المستكن في « بلانك فيرس » وقطعه هكذا :

Of ḿans first d́isobédience ánd the frúit. . .

وهذا لا يكون به اداء الكلام وإنما هو إشارة لنوع النغم المجرد ، مثل « hey nonino » في بيت شكسبير .

هذا واعلم ان « بلانك فيرس » الانجليزي يكون من خمسة أجزاء كل جزء منها مقطعان . . تَنْ تان . أو قل تَنْ تَنْ ، أو قل تنْتْ تَنْ . . أو قل تَنْتْ تنْتْ ... ومرادنا بمقطعين هنا وحدتين فلا يختلطن ذلك عندك بمدلول المقطع اللغوي وحده .

وأول هذين المقطعين قصير وثانيهما طويل . وليس المراد هنا طول الحروف من عددها من حركات وسكنات ولكن المراد ان المقطع الأول كأنه مخطوف وكأنك لا تعني «بتَنْ وتنْتْ » الاولى إلا اثبات حركة يسيرة أو نبرة صوت أو دقة صوت أو قل علامة صوت . . فعلى هذا مقدار ت ـ تن تانت ـ تنْتْ كله واحد . والحركة المزدوجة كأنها سكون فحركة : mine الانجليزية كأنها مَيْنْ كأنها مَتْنْ كأنها مَتْ وهذا مجرد تقريب وتمثيل . والمقطع الثاني يأتي به الناطق ويرفع نغمه شيئاً نحو آخره ـ تانْ ـ تاتْ ... تانتْ ... حتى كأن فيه مدة . . . واذا قلت تانْ وانت تريدها طويلة فكأن نونها مشددة ثم ذهبت الشدة وبقي بعدها سكون يدل عليها . .

فالجزء على هذا تكوينه هكذا : تَنْ تانْ ... تَ تانْ . . . تَنْتْ تانْ ولعل اقرب شيء يتمثل به في هذا الموضع « فاعلن » المقطوع . . . والقطع في العروض حذف ساكن الوتد المجموع وسكون المتحرك قبله فتصير فاعِلْ فا عِلْ ... فَعْ لُنْ .

فَعْ قد تكون فَعْ ع ... ولُنْ قد تكون عُلْنْ . . . لأن اللغات الأعجمية يُبتدأ فيها بالساكن .

واذا جعلت عصا نغمك المجرد « فع لن » على طريقه تجريد شكسبير

« hey nonino » وتجريد « ياتس » ما جرد في مواضع التقطيع التي قطعها من بيت ملتون .

Of máns first dísodbédience ánd the fruít

وتذكرت ان النون من َفعْ ُلنْ معتمد عليهـــا وأن العين مخطوقة غير معتمد عليهـــا امكنك ان تتصور تفعيلات مختلفات هكذا َفعْلُ ُلونْ ، َفعْ لانْ ، َفعْ ُلنْ ، فَ ُلنْتْ ... َفعْتْ لنْنْنْت . . . الاول مخطوف والثاني موقوف عنده أو كالموقوف عنده . وقِس على هـــذا قول ملتون : « ألا غن عن عصيان آدم والجني من الثمر الممنوع في طعمه الردى » .

Of máns first dísobédience ánd the frúit

of máns	فع لن	١ — اوف مانز
first dís	» »	٣ — فيرست دس
o béd	» »	٣ — او بيد
ience ánd	» »	٤ — ينس اند
the frúit	» »	٥ — ذ فروت

وقوله :

Then feed on thoughts that voluntarie move

Then feed	١ — ذن فيد ، فع لن .
on thoughts	٢ — ان ثوتس ، فع لن .
that vo	٣ — ذات فو ، فع لن .
lunta	٤ — لان تا ، فع لن .
rie morve	٥ — ري موف ، فع لن .

واعلم بأن ناطقهم في الجزء الرابع لا يقول لان تا : ولكن يصل الجزئين الرابع والخامس معاً فيقول لنتري lantrie يأكل الألف التي بعد (تا) كما ترى . ولكن صاحب النغم المجرد لم يأكله وإنما بني بيته في زمن النفس عليه ، وقال شكسبير :

Let's talk of graves, and worms and epitaphs

Make dust our paper and with rainy eyes

Write sorrow on the bosom of the earth

هلموا عن الاجداث والدود والرثا حديثكمو ثم اجعلوا الترب قرطاسا

ومن أعين تهمى بكا لغَيثٍ سطروا على ثدْي هذي الارض للحزن أنفاسا

١ — لتس توك	Let's talk	فع لن
٢ — اوف قريفز	of graves	» »
٣ — اند ورمز	and worms	» »
٤ — اند أي	and e	» »
٥ — بـ تافس	pi taphs	» »

١ — ميك دست	make dust	فع لن
٢ — أورْ بي	our pa	(تذكران our حركتها مزدوجة فاعتبر ذلك فتحة يليها سكون) our pa فعلن
٣ — بر اند	per and	فعلن
٤ — وذ ري	with rai	فعلن

٥ — ني ايز	ny eyes	واعتبر eyes من الجزء ny eyes بمنزلة ايزْ بحسب ما قدمنا لك انه فتحة فسكون فع لن

١ — ريت سو	write so	فعلن
٢ — رو ان	rrow on	»
٣ — ذا بو	the bo	»
٤ — زم اوف	som of	»
٥ — ذا ارث	the earth	»

واعلم ان هذا اسمه Iambic petameter أي الوزن الخماسي ذو النغم الصاعد . ويقع مقفى مزدوج القوافي ومتقابلها . وصار منه Blank verse عندما عري من القوافي ، وأحكم وزنه مارلو ثم شكسبير وملتون .

وأصناف السونيت نغمها منه مثل قول شكسبير .

Shall I compare thee to a summer's day

١ — شال آي	Shall I	فع لن
٢ — كمْ بيرْ	com pare	»
٣ — ذِي تُ	thee to	»
٤ — أ سي	a su	»
٥ — مَرْزْ دَيْ	mmer's day	»

والاسكندر بوب من أصحاب المزدوج أوشك ان يجعل كل بيت قائماً

وحده كما في العربية ، إلا ان الازدواج وهو قواف عندهم قوية ، عندنا من اضعف القوافي .

Transparent forms, too fine for mortal sight
Their fluid bodies half dissolved in light.

شكول من الشفاف الطف ان ترى سوائل في الأضواء شبه ذوائب

١ — َترانسْ َبا	trans pa	َفعْ ُلنْ
٢ — رَنْتْ ُفورْمْزْ	rent forms	»
٣ — ُتو َفينْ	too fine	»
٤ — ُفورْ ُمورْ	for mor	»
٥ — تل َسيْتْ	tal sight	»
١ — ذر فلو	their flu	فع لن
٢ — ِيدْ بو	id bo	»
٣ — دِزْ هاف	dies half	»
٤ — دي ز ُلفدْ	di ssolved	»
٥ — ان َليْتْ	in light	»

واكثر ما تكون ابيات الشعر الانجليزي متصلاً بعضها ببعض ويسمون هذا enjambement وهو مما يزيد الوزن المجرد بعداً عن السامع ، وتنشأ منه أنواع مقابلة بين ضربات الوزن المستكنة وطريقة الإلقاء .

ونحن نسمي هذا التضمين ، وقد عيب على النابغة في قوله :

وهم وردوا الجفـــار على تميم وهم أصحـــاب يوم عكاظ إني

شهدت لهم موارد صادقات   شهدن لهم بصدق الود مني

وقول ابن ابي ربيعة :

فبت رقيباً للرفـاق على شفـا   أحاذر منهم من يهب وانظر
اليهم متى يستمكن النوم فيهم   ولي مجلس لولا اللبانة أوعرُ

وأغرب احدهم فقال :

يا ذا الذي في الحب يلحى اما   والله لو حُمّلت منه كما
حُمّلت من حب رخيم لما   لمْتَ على الحب فذرْني وما
أطلبُ إني لست ادري بما   قُتِلت إلا انني بينما
انا بباب القصر في بعض ما   أطلب في قصرهم إذ رمى
شبه غزال بسهام الخ . . .

واورد هذه الابيات ابو زكرياء التبريزي في كتابه الكافي في العروض والقوافي (القاهرة ١٩٦٩ ـ تحقيق الحساني حسن عبد الله / ١٦٦) واحسب إني رأيتها منسوبة في بعض المواضع لأبي العتاهية وليس ذلك بجد بعيد .

وإنما عيب التضمين في العربية لأن تنويع النغم لا يحتاج اليه كما يحتاج اليه في الانجليزية ، إذ لك في أنواع الترصيع والتجنيس وطريقة الالقاء وتغيير المواقف مجال واسع . وشبيه ببعض ما يقع في العربية مذهب كلردج في قطعة من كلمته الطويلة عن الملاح الهرم :

The breeze blew, the white foam flew,

The furrow followed free,

We were the first, that ever burst,

Into that silent sea.

فكأن الفاءات والباءات والسينات ههنا دقات وزن. وهي صناعة حسنة جداً كما ترى .

هذا ثم نعود لما كنا فيه من قبل .

وانجلت عنك الفتنة مرة واحدة . وراقك النظم الرصين .

وقلت في الأبيات التي اولها :

هات المدام فلات حين ملام   واجعل غناءك من ابي تمام

و « غناءك » هذه تنظر الى كيتس وشلي كما لا يخفى ، نظر انصراف :

لوددت اني عشت عصر مهلهل   ورفعت ناري في رؤوس شمَامِ
وذبحت للأنصاب أعلى شأنهـا   نشوان واستقسمت بالازلام
لنجوت من ذلّ الحياة وسرني   بين الكرام عبـادة الاصنـام
بئس الحياة مُذِلة ولو انهـا   خفقت عليهـا رايـة الاسلام

والاسلام لا يكون معه ذل ـ قال تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين :

والجاهلية ان جهلت يزينها   دَفع المذلة بالحديد الدامي

هذا نزق الشباب :

أودى سراة بني فزارة واشتفت   بيض الاراقم من ذوي هَمّام

ولا يخفى نظر هذا الى بيت ابي تمام :

والجعفريون استقلت ظُعْنُهُمْ   عن قومهم وهم نجوم كلاب

ونحوه .

واطلعت على عدد من مجلة يقـال لها « الانصـار » كانت تصدر بمصر فسرّك ان يكون آخرون لم تلقهم على مثـل رأيك . وكان الشيـخ الطيب

السراج رحمه الله يُذَكِّر بحب العربية ، وكنت بذلك معجباً ، وبلغكَ خبره وطريقة إنشاده منذ زمان بعيد . وكتبت إليه واستشهدت بشعر العجاج . ثم زرته مع صاحبك الأديب وأنشدته .

مضى الشهداء الأولون وقُتِّلَت بناة المعالي من لؤي بن غالب

فاعجبته وما عاب منها إلا « عالي الذرا والمناكب » ثم اعتذر لذلك انه على حذف مضاف .... ضخم المناكب .

كانت الحرب قد انتهت .

وفي أوروبا جعلت تظهر اصنافٌ جديدةٌ مما وراء الشعر . وجاء شاعر زائف فألقى ما سماه شعراً صوتياً بأحد المنتديات وقلت لجـــارك مافهمت مما سمعت شيئاً . فقال لك : ولا أنا .. وانجلت عنك نكسة الفتنة .

ونظمت قصيدة لبعض اصحابك تلاطفهم بها ببعض ما كنت تعبث بـه عهد الفتنة الأولى .

وكان رنين الوزن واضحاً ، وافتننت في ترتيب دقاته وقلدت بها الحركة والانفعال على بعض النحو الذي يقع في الشعر الانجليزي .

Only the stuttering rifles'rapid rattle

وكان اصحابك هؤلاء ربما ارتضخوا نوعاً من عصرية واستشعار نفور من رتابة أوزان :

الجد في الجد والحرمان في الكسل

ولما سمعوك إذ تتألفهم بها قال أحدهم أما هذا فشعر .

لحظة غيبها ماضي الزمان
انا لا أذكرها إلا اعتراني

ضحك يفعم حسي وكياني
أفلا تذكرها

ثم لما ظهر أصداء النيل وتصدى له المتصدون استثنوا منه قصيدة «الكأس المحطمة» من حملتهم عليه . أعجبتهم انتمائية روح العصر في :

وإذا الصمت يرين

وإذا الأبواب والأنوار والسقف عيون

وحسيس هامس تسمعه الجدران الخ

وغفلوا عن :

ثم لا أنسى إذ الكأس رذوم

« رذوم » هذه ليست من روح العصر ... ولعله بيت القصيد

« فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد »

والفتنة التي طرحناها عنا صارت بعد الحرب مذهبا

وأوزان العربية الرحاب نفر عنهـــا المغلوبون ليقلدوا الغالب كما نص ابن خلدون بالتماس شيء من تفعيلات الخبب وبعض المتقارب والرجز لدى طريقة أوزانه الأعجميات ... وذلك أمر عقيم ولا يستقيم .

قال بدر شاكر السياب

سيمر سر بروس في الدروب

لينهش الآلهة الحزينة ، الآلهة المروعة

فإن دماءها ستخصب الحبوب

سينبت الإله فالشرائح الموزعة

تجمعت تململت سيولد الضياء

من رحم ينز بالدماء

وأعجب ما في هذا المذهب زعمه التأثر « بإليوت » T. S. Eliot وعلى تقدير التسليم أنهم قرأوا إيليوت وتأثروا به — وهو امرؤ كثير الاستشهاد باللاتينية والألمانية وشعره أبعد شيء عـــن الشعبية يا فتى — فما أحسب أن صناعة « إيليوت » هي التي أثرت في هؤلاء الذين يقال إنهم تأثروا به، ولكن بعض أفكاره .

أذكرت أول العهد به حين جيء بمقالاته في النقد على الورق الأصفر من طبع فابر .

لا تكاد تذكر من ذلك كبير شيء . وتمذهب المتطلعون إلى آفاق الفكر الحديث بقراءة صحرائه ورباعياته واغتيال « بيكيت » Murder in the Cathedral وأعلم ان صناعة ايليوت تحتاج إلى نظر شديد في أصناف عقـد أعاريض الشعر الإنجليزي...وأشك جداً إن يك طريقته يفهمها غير انجليزي فهماً دقيقاً ... لأن وزنها المجرد تحجبك عنه ضروب من محـاولة الرجعة إلى طريقة التنغيم الانجلوسكسونية القديمة مع تصرف شديـــد في أمر المقاطع والجناس وهلم جراً

The time is now propitious, as he guesses,
The meal is ended, she is bored and tired,
Endeavours to engage her in caresses
Which still are unreproved, if undesired

وأعلم أصلحك الله أنهم قالوا أن « فيرجينا ولف » كتبت نـــثراً أقرب

شيء إلى الشعر . فالذي صنع « إيليوت » أقـــرب الشعر روحاً إلى النثر والله أعلم .

أفكار « ايليوت » دينية السنخ فأنْ يُؤَثَّرَ هذا في يسارية اليساريـين عندنا عجيب . وأعجب من دينية « إيليوت » عنصريته وهو القائل :

My house is a decayed house,
And the jew squats on the window sill.
the owner
Spawned in some estaminet of Antwerp,
Blistered in Brussels, patched and peeled in London.

والقائل :

The red-eyed scavengers are creeping
From kentish Town and Golder's Green

والقائل :

But this or such was Bleistein's way
A saggy Bending of the knees
And elbows, with palms turned out,
Chicago Semite Viennese.

هذه العنصرية التي تحتقر الساميين وتقول لأهـــل الشرق الأدنى wogs وللسود ... niggers

هذا التعالي والتزبع من « إيليوت » ، (هذه الكلمة من عينية متمم بن نويرة:

وان تَـلْقِه في الشّـربِ لا تَـلْـقَ فاحشاً
على الكأس ذا قـــاذورة متَزَبِّعا) .

هذا التزبع والتقزز والتعزز في « إيليوت » ، على كونه عنصريا، احسبه هو الذي أثّر في شبابنا « العقلاني » الحائر ، نصف المتعلم بعد الحرب ... مع شيء من نفس إنحلالٍ تَزَبّعيّةُ إيليوت وتقززيته تُشعِر بتعالي المتمدن، وعنصريته أيضاً .

فالرغبة إلى الانتماء إلى هذا الروح والشعور بمثل شعور صاحبه دعت إلى طلب أو إدعاء تقليده .

ودعا ذلك بالضرورة إلى روح شعوبية إزاء العربية الناصعة .

فالتقى أقصى اليمين بأقصى اليسار كما ترى ... لأن عنصرية الشعوبية في تأريخ الفكر العربي أبداً كانت كأنها نوع « يساري » .

ويسار أوروبا آثر وثنية الهند وطبقيتها على سماحة الإسلام واختار نهرو وأصحابه على مؤمني بكستان ... وهي الصليبية يا مولانا ما في ذلك شك .

و« سربروس » الذي ذكرنا آنفا هو من آلهة الأغريق يجيء في بعض شعر ملتون

Hence loathèd Melancholy
Of cerberus and blackest midnight born

وقد يعاب على ملتون إلحاحه على تضمين الاسماء الكلاسيكية فكيف ترى حين يستعمل هذا اللفظ عربي معاصر مسلم لعله لم يقرأه في أصله ...

هذا ولما نضج السياب رحمه الله حار فيما بين هَمْليت وايليوت ..... وأنشودة المطر لكأن اسمها صدى عكسي من عنوان «إليوت» Wasteland .... مَطَرْ ....! وفئة من أهل الشرق الأدنى لا ريب انهم يحسون حاجة الانتماء إلى دار الحضارة المسيحية الكبيرة في أوروبا بما فيها من ثورات فكر وإبداع ...

قال ستاندال ان عهد الارهاب في غرينوبل كان حنونا إذ لم يَطِحْ إلا رأسا

قسيسين عام ١٧٩٤ م .... وذلــك عام هلك دانتون عن خمس وثلاثين وروبسبير عن ست وثلاثين وقال ابو الطيب :

ومن عرف الايام معرفتي بهــا   وبالناس روى رمحه غير راحم

وقال صاحب أنشودة المطر :

أكاد أسمــع النخيل يشرب المطر
وأسمع القرى تئن والمهــاجرين
يصارعون بالمجــاذيف والقلوع
عواصف الخليج والرعود منشدين
مَطَرْ مَطَرْ مَطَرْ

اجتهاد وفتنة ..... وقوله « منشدين » ضعيف وصفة المطر منظور فيها إلى خطبة الملك « لير » وهي مشهورة :

Blow winds and crack your cheeks
Ye cataracts and hurricanoes spout

وكلا شكسبير وملتون ليسا من رجال القرن العشرين .
وليسا باولى بنا من امرىء القيس وأبي الطيب .

وما أحياهما عندنا وقتل هذين إلا أننا مغلوبون كما قال عبد الرحمن بن خلدون، والسّياب بعد – واذكروا محاسن موتاكم – أندى كثيراً من أصحاب الطريقة « اللاطريقة » ، الجديدة اللاجديدة. وقال أحد النقدة في مجلة الشعر – وعنها أخذت هذه الأمثلة – « تجد السياب شاعراً كألف شاعر آخر»... ثم قال « إذا لم يكن شاعراً مزخرفاً كعشرات الشعراء » ... فتأمل كيف تغلغلت إلينا عِبارات العجمة ... لله در القائل .

الشعر صعب وعسير سلمه

إذا ترقى فيه من لا يحكمه
زلت به إلى الحضيض قدمه
يريد أن يعربـــه فيعجمه

وتعجبني كلمة محمد الحديدي في مجلة الشعر التي عنوانها تيريزا .... بـين أصناف الهراء التي حولها لاستقامة أسلوبها على العربية الواضحة .

وضعت على كتفي معطفي وأغمضت أجفاني الساهرة
وأطرقت رأسي لعلي أنال قليلا من الراحـــة العابرة
وكنا نحلق فوق السحـاب وكانت جواري في الطائرة
وما كنت أحـلم أن الجميلة يوماً ستهبط في القـــاهرة

وكان عليه أن ينتقل من هذا السمط إلى السمط التالى مباشرة .

ولكنه جـاء ببيت عسى والله أعلم أن يكون أراد ليتأعْصَرَ بـه (أي يكون معاصراً) .

ولا أتصور ان ستكـون هنـاك مغامرة رائعـــة

التغيير لا حاجة به إليه لاختلاف القافيـة الذي سيلي والمعنى متضمن في البيت الذي تقدم .

وما كنت أحلم ان المليحة يوماً ستهبط في القــاهرة .

ولكنها الفتنة ... واقرأ بعد انسياب كلامه سلساً حيث يقول :

بدأت احـدث نفسي بها وأرنو بعينين لا تهـدآن
أفكر كيف يكون الحديث وأنفثها سُحُباً من دخان
وأسأل نفسي من أين جاءت تُرَى تتكلم أيَّ لسان
يدل على جنسها شعرهـا وعينان في زرقة تسبحان

ثم قال :

ولوني يُؤكِـــد شرقيتي .....

وهذا لا حاجة إليه إذ ما سبق يدل عليه .

..... وتفضحني نظرتي الجائعـــة

أيضاً لا حاجة إليها إلا لتلائم « رائعة » من قبل . وقد دلّ على الجوع بنفث الدخان . وهذا بعد يحتمل . والكلمة ترتاح لها النفس وسط أصنـاف ما حولها من محاولات الزخرفة النيوشعوبية ..... مثلاً .

مهنا بعض بقـــايا مقبرة
لاكها الريح ومجتها الرمـــال
لم تزل فيها بقـــايا مقصلة
تحتها بعض عظام عافها كف الزوال

لو قال « كلب الزوال » كان أشبه بالسياق من قوله « كف الزوال » . وطرابيش وصرة .

غرست في الوحــل خمسين مجيدي
فبصقنا فوقها ثم انطلقنا من جديد
بيـــد انا قـــد نفضنا نصف رف

وقد خالط المحـاولة كما ترى نظر إلى القديم .... وانظر إلى التكلف في « مجيدي » «من جديدي» .

وسبحان الله العظيم وبحمده .

ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمـــة إنك أنت الوهاب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبـــه وسلم تسليما .

(٥)

قال أبو تمام :

« وإذا أراد الله نشر فضيلة   طويت أتاح لها لسان حسود »
« لولا اشتعال النار في ما جاورت   ما كان يُعْرَف طيب عرف العود »

أبو تمام ههنا يدعي ضرورة وجود لسان الحاسد حتى يتنبه الناس إلى الفضائل التي يذم أصحابها من محسوديه . وقد أحس خطورة هذه الدعوى فاحترس بقوله :

« لولا التخوف للعواقب لم تزل   للحاسد النعمى على المحسود »

أي عاقبة الحاسد مذمومة عند الله فلولا ذلك لكان فعله نعمة على المحسود. وهذا الاحتراس يوشك أن يوهم بنوع من عطف على الحاسد ، لأن إرادة الله هي التي اقتضت وجوده لكي تظهر حقيقه الفضائل وتذيع . وقد شبه أبو تمام الفضيلة بطيب عرف العود أو بعرف العود أو بالعود نفسه وشبه تناول لسان الحاسد لها باشتعال النار فيما جاورت . ولا يخفى أن العود هو جزء مما تجاوره النار فتحرقه لا كله . ومن ههنا تظهر لك شُغَيْبة أبي تمام حيث استنتج قضية كُلّية هي أن احتراق الفضائل على لسان الحاسد يظهر زكاءها وينبه عليها ، من قضية جزئية هي ان احتراق بعض الأشياء بالنار يظهر زكاءها ... والحق ان الذي يظهر فضيلة عرف العود ليس هو احتراقه وحده ولكن الموازنة بين عرفه ودخان المحترقات الأخرى .... فالضدية بين زكاء عرفه وعدم زكاء روائحها هو سبب بيان فضيلتها كما قال أبو الطيب :

« ونذيمهم وبهم عرفنا فضله   وبضدها تتبين الأشياء »

وأحسب أن أبا الطيب ولد هذه القضية المستقيمة من بيتي أبي تمام « لولا اشتعال النار الخ » « لولا التخوف للعواقب الخ » والله أعلم .

ومما يدلك على شُعْبية أبي تمام انك تستطيع عكس قوله فتقول « وإذا أراد الله طي فضيلة الخ » وهذا كما ترى نقيض ما زعمه من دعوى ضرورة وجود الحاسد لإذاعة الفضيلة والتنبيه عليها .

ولا يخفى بعد أن أبا تمام إنما أراد الدفاع عن نفسه ... أي هؤلاء الحساد يقعون فيَّ بنار بغضائهم وأنا كالعود تناولهم إياي يظهر فضيلتي

لما أظلتني غمامُك أصبحت	تلك الشهود علي وهي شهودي
من بعد ما ظنوا بأن سيكون لي	يوم ببغيهم كيوم عبيد
أمنية ما صادفوا شيطانها	فيها بعفريت ولا بمريد
نزعوا بِسَهْم قطيعةٍ يَهفُو به	ريش العقوق فكان غير سديد
وإذا أراد الله نشر فضيلة	طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار في ما جاورت	ما كان يعرف طيب عرف العود

هذا دون سابقاته

لولا التخوف للعواقب لم تزل	للحاسد النعمى على المحسود

وهذا كأنما احترس به من أحمد بن أبي دؤاد

وقول أبي تمام : « وإذا أراد الله نشر فضيلة » على جودته دون قول أبي الطيب :

سوى وجع الحساد داوِ فإنه	إذا حلَّ في قلب فليس يحول
ولا تطمعن من حاسد في مودة	وإن كنت تبديها له وتُنيلُ

لخلو هذا من كل شغب فكري وتعويله على صدق البيان وحده المستفاد من صدق التأمل . وكأن الذي جزم به أبو الطيب قد أنكره الامام الغزالي رضي الله عنه حيث ذكر في الإحياء أن للحسد أصناف علاج تداويه والله تعالى أعلم.

هذا وكما كان أبو تمام غواصا على المعاني كانت فيه سرعة بادرة وتَوَقّدَة بديهة وعَمْدٌ إلى الابتكار . فكان هذا من مذهبه ربما نشأت منه شُغَيْبَات فكر روائع .

خذ مثلاً قوله :

كُفّي وغاك فإنني لك قالي ليست سوابق عزمتي بتوالي

أنا ذُو عَرَفْتِ فان عرتك جهالة فأنا المقيم قيامة العذال

أي أنا من عرفت

عطفت ملامتها على ابن ملمة كالسيف جَأبِ الصبر شَخْتِ الآل

أي ضخم الصبر على ضآلة آله أي جسمه

عادت له أيامه مسودة حتى توهم أنهنّ ليالي

لاتنكري عطل الكريم من الغني فالسيل حرب للمكان العالي

وتنظري خَبَب الركاب يَنُصّها محي القريض إلى مميت المال

قوله « فالسيل حرب للمكان العالي » لا تقوم به قضية ضرورة أن يكون الكريم أبداً عاطلاً من الغنى . لأن الغنى إن أشبه السيل ،فليس يلزم الكريم أن يكون بالنسبة إلى ذلك السيل مكاناً عالياً . لأن الغنى قد يغشى الكرماء وأكثر ما يقال « كريم » لمن هو غني معطاء ، إذ كرم الكريم إنما يظهره حقاً غناه . ولو لم يكن الأمر كذلك لكان خبب ركاب أبي تمام « محيي القريض » إلى ممدوحه « مميت المال » شيئاً لا معنى له . على أن الحسن بن رجاء الموصوف بمميت المال ههنا قالوا كان بخيلا ... وهذا بعد لا ينقض ما قدمناه والله أعلم أي أمره كان.

هذا ومما شغب به أبو تمام بيتاه المشهوران :

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلا شرودا في الندى والبأس

فالله قد ضرب الأقلّ لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

وقد تعلم ما يروونه من أن الكندي الفيلسوف لما سمعه يقول في مدح أحمد بن المعتصم :

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

قال الأمير فوق من ذكرت فقال أبو تمام هذين البيتين على البديهة وأفحمه. ويذكرون أن الكندي قال بَعدُ إن هذا الفتى لن يعيش طويلاً، فإن صحت هذه الرواية فإن عين الكندي تكون هي التي قتلت أبا تمـــام وهو في أول الأربعين ، والعين حق تدخل الجمل القدر والرجل القبر . ونـَعُوذ بالله وقل هو الله أحد .

وما كان أبو تمام ليملك إلا أن يقول « لا تنكروا ضربي له من دونـه » مع علمه بأن الذي زعمه الكندي من أن « الأمـــير فوق من ذكرت » ليس بصحيح . لأن عَمْراً وحاتماً وإياساً هؤلاء مضرب أمثال . وهم بذلك أبطال اسطوريون خياليون ، أشجع وأسمح وأذكى من الأمير ومن كل أمير بشجاعة فوق الواقع ، وسماحة فوق الواقع وذكاء فوق الواقع .

وإذ شغب عليه الكندي شغب هو عليه بأكبر من شغبه فقــال : « فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً » ولا ريب ان المشكاة والنبراس من أقل ما يمثل به لنور الله . ثم ان الله كما قال جل شأنـه : « إن الله لايستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها .» فلا غضاضة ولا غرابة أن يضرب الله ذلك الأقل مثلاً لنوره ... وههنا الشغبية . إذ مراد الآية والله أعلم بمراده تشبيه نور الله في حالتي اهتداء من يهتدي إليه وضلال من يضل عنه بالمصباح في الزجاجـة والمشكاة ، وبظلمات البحر اللجي .... ويدلـّك على أنَّ هذا المرادُ كـَوْنُ وجهِ الشبه مذكوراً في الآية الأولى واضحاً « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، **يهدي الله لنوره من يشاء** ويضرب الله

الأمثال للناس والله بكل شيء عليم » . وقد حوّل أبو تمــام في رده على الكندي هذا الواضح من مراد الآيـة إلى مجرد تشبيه نور الله بنور المشكاة والنبراس . ولا يخفى أن التأويل قد يحتمل هـذا الوجه على ضعف . ولكن روعة الاداء وسرعة مواتاته ذلك أفحم الكندي فبهت والله أعلم .

ومما يجري مجرى الشغيبات من ابتكارات أبي تمام وحججه وتعليلاته قوله:

« ينال الفتى من دهره وهو جاهل ويُكْـدي الفتى من دهره وهو عالم »
« ولو كانت الارزاق تجري على الحجا هلكن إذن من جهلهن البهــائم »

فالبيت الثاني المورد على أنه برهان على قضايا البيت الأول لايصلح لهـــا برهاناً . إذ وجه القياس أن البهائم عائشات فهن لذلك مرزوقات والبهائم لا حجى لهن . ولذلك فالرزق لا ينشأ من الحجا . وعلى هذا فلا غرابة أن ينال الفتى الجاهل من العيش ويكدى الفتى العالم . ههنا الشغيبه . إذ وجه المنطق أن كلا الجاهل والعالم عائشان ومرزوقان وكلا رزقهما وعيشهما غـــير مترتبين على الحجا . وبقي أمر نيل الجــاهل وهو عائش مرزوق من دهره ، وأمر إكداء العالم وهو عائش مرزوق من دهره . هذا لم يعلله أبو تمام. وليس في الحجة التي أوردها تفسير له أو برهان عليه .

وقد فطن أبو الطيب لاضطراب قياس أبي تمام ههنا فكشف المراد المقبول المستقيم تحت ظاهر شغيبته ، في قولته المشهورة :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ذو العقل مرزوق ولا يسعد وان وجد الغنى من أجل حجاه. وذو الجهل مرزوق ويسعد وجد الغنى أو لم يجده ، شأنه في ذلك شأن البهائم التي همها البقاء والطعام وليس بها إلى الحجا من حاجة .

ومن كبريات شغبات أبي تمام قوله :

وأين يجور عن قصد لساني — وقلبي رائح برضاك غادي
ومما كانت الحكماء قالت — لسان المرء من خدم الفؤاد

وأخطاء الخدم لا تحصى ولا تعد ... ولذلك غضب ابن أبي دؤاد وإنما لامه لما جنى لسانه لا قلبه .

وهذا بعد باب واسع ولـيُقَس ما لم يقل ... وقد كان أبو تمام كما قـال ابن الأثير ربّ معان وصقيل ألبابٍ واذهان .

وقد كان رحمه الله في أعماقه متحضراً .

وكان الذوق المتحضر في عصره يؤثر الأنس بزخرفة النغم واللفظ وفسيفساء المقدرة البيانية اللبقة — «الأمير فوق من ذكرت» — على انفعالات العواطف .. نوع من الارتقاع واللطف السماوي القدسي المظهر ، باطنه نوع من نفـــاق اجتماعي ... نوع من التضحية والالتزام .

وكان رحمه الله مع تحضره ذكياً حساساً عاطفياً ذواقة خـلاقاً فناناً ... فأعطى معاصريه مع فسيفساء اللفظ وزخـارف النغم ألواناً من لعب البادرة والنادرة وصناعة المعاني وتطريز الأفكار :

ليس الغبي بسيد في قومه — لكن سيد قومه المتغابي
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها — تنال إلا على جسر من التعب
فلم أجد الأخلاق إلا تخلقـا — ولم أجد الافضال إلا تفضلا
وكذاك لم تفرط كآبة عاطل — حتى يجاورها الزمان بحالي
فقسا لتزدجروا ومن يك حازما — فليقس أحيانا على من يرحم
وأخافكم كَيْ تغمدوا أسيافكم — ان الدم المُغترّ يحرسه الدم
وندمتمو ولو استطاع على جوى — أحشائكم لوقاكمو ان تندموا

هنا أبو تمام المتحضر

مشكلة تحويل قيود الإلتزام والتنطس والنعومة الحضارية المثقفة إلى شعر وفن وإبداع .

وقد علم الأفشين وهو الذي به ... يُصان رداء الملك عن كل جاذب
بأنك لما استخذل النصر واكتسى ... أهابيَّ تسفي في وجوه التجارب
تجللته بالرأي حتى أريته ... به مِلءَ عينيه مكانَ العواقب
اليك أرحنا عازبَ الشعر بعدما ... تمهّل في روض المعاني العجائب
غرائب لاقت في فنائك أنسها ... من المجدِ فهي الآن غيرُ غرائب
ولو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت ... حياضك منه في العصور الذواهب
ولكنه صوب العُقول إذا انجلت ... سحائب منه أعقبت بسحائب
أقول لأصحابي هو القاسم الذي ... به شرح الجود التباس المذاهب
وإني لأرجو عاجلا أن تردّني ... مواهبه بَحراً تُرَجّى مواهبي

كان عصر أبي تمام عصر خَلْق وإبداع وعزة

وكانت قصيدة المدح لسان حال أحرار ... من ذلك كان يستمد

إني ذكرتك يا عبور فأقبلي ... وردي بشاطىء منزلي في جدولي
ذوقي حديثي ذوّقيني زودي ... وهلم وجهك ثمَّ لي فتجملي
أو ما ترين تصبري وتكلفي ... درس الصباح وعزتي وتفضلي
ولقد أكون وللمهيمن صَولةٌ ... بالظالمين من الرعيل الأول
ولقد ذكرتك والظلام مخيم ... فبنور وجهك يا مليحة أقبلي
فضي الغثاء فنحن سيل جارف ... يذري الكنهبل والمشيد بجندل
ولقد يزيد على ثبير وَبله ... وأخو اللئام مع الطغام بمعزل
فرح الفؤاد وقد رأيت بويرقا ... وَسط الدجنة عند ذاك الجهل
يبدو كشعلة ضوء نار ساطع ... فعرفت وجهك مثل صوت البلبل
ولقد صبرت ورب صبر بعده ... فرج قريب فابتهج وتهلل
وعلى المهيمن بالرضا فتوكل ... وعلى الصلاة مع السلام وعول

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا

قال الإمام البوصيري رضي الله عنه :

الأمــــان الأمان إن فؤادي — من ذنوب أتيتهـن هـــواء
قد تمسكت من ودادك بالحبـ — ـل الذي استمسكت به الشفعاء
وأبـــى الله أن يمسّني السو — ء بحـــالٍ ولي إليك التجاء
قـــد رجوناك للأمور التي أبـــــردها في قلوبنا رمضـــاء
وأتينا إليك أنضاء فـقر — حملتنا إلى الغنى أنضاء
وانطوت في الصدور حـاجات نفس
مـــا لها عن ندى يـــديك انطواء
فأغثنا يا من هو الغوث والغيـ — ـث إذ أجهـد الورى الّلأواء
والجواد الذي بــه تفـرج الغمـة عنا — وتكشف الحوباء

آمين آمين ... ومنّ الله النصر المبين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين .

(٦)

« ها إن هذا موقف الجـازع — أقوى وسُؤر الزمن الفاجع »
« دار سقاهـا بعد سكانهـا — صَرفُ النوى من سمه الناقع»
« فـلا تلومـا ذا هوى إنها — ليست ببـدعٍ حنّة النازع »
« لو قبل مـا كان تزورانها — إذنَ لبشّ الربع بالرّابـع »
« فاعتـبرا واستعـبرا ساعـة — فالدمع قِرن للجوى الرادع »
« أخلت رباهـا كل سَيفانـة — تخلع قلب الملك الخـالع »
« يصبح في الحب لهـا ضارعا — من ليس عند السيف بالضارع »
« بكر اذا جرّدت في حسنها — فكرك دلتك على الصانع »

قول أبي تمام :

هـا إن هذا موقف الجـازع أقوى وسؤر الزمـن الفاجـع

يريد الربـع – والفكرة بعيدة المتصيَّد إذ جعل موقف الجـازع هو الذي أقوى ، أي الذي أقوى ليس الربـع ، ولكن هذا الذي يدعو الصب الجازع على بين الأحباب ليقف عنده هو الذي أقوى . هذه الفضلة التي بقيت مما شربه الزمان ففجعنا بشرابه :

دار سقاهـا بعـد سكانهـا صرف النوى من سمه الناقع

هذا البيت جيد . ولكن لملاكه ظلف ، موضعه في قوله « من سمـه الناقع » .

هي موضع الجودة (الملاك) والظلف (التصيد البعيد جداً) ، ذلك بان الربع من حيث هو دار حقه أن يسقى وقد سقاه صرف النوى سما ناقعاً بِبَيْنِ من بانوا عنه وتغير معالمه ... هذا جيد . وقوله « بعد سكانها » يذكرك ان الربع فضلة أسْأَرها الزمان – فهو من حيث كونه موقف واقف ، بقية شرب مشروب ، وهو من حيث كونه دارا ، قد شرب سماً ناقعاً ... فتأمل .

فـلا تلومن ذا هوى إنهـا ليست ببدع حنـة النازع

وههنا أيضاً ملاك له ظلف . البيت جزل جداً . عربي صرف . ثم قوله « انها ليست ببدع الخ » لا يخلو من نوع تشقيق فهذا ظلف ملاكه .

لو قبـل ما كان تزور انها إذن لبشّ الربـع بالرابع

وهذا البيت أيضاً فصيح يملأ الفم .

وتأمل الجناس في الربـع والرابع

وصياغة البيت كله كأنها تنظر الى قول المهلهل :

لو بأبانَيْن جاء يخطبها زُمِّلَ ما أنفُ خاطبٍ بدم

وحتى التثنية التي في أبانين جاء أبو تمام بنغمها في تثنية الفعل «تزورانها»....

وفي قوله « قبل ما » مع أنّ «ما» فيه غير زائدة نَظَرٌ إلى نغم «زمّل ما» ... والله أعلم .

فاعتبرا واستعبرا ساعة فالدمع قِرن للجوى الرادع

أي الرادع عن الاعتبار . ومن هنا أحسب أن أبا العلاء أخذ قوله :

طالما أخرج الحزين جوى الحز ن إلى غير لائق بالسداد

ثم قال أبو العلاء :

مثلما فاتت الصلاة سليمان فأنحى على رقاب الجياد

وظاهر هذا انه زيادة زادها أبو العلاء على ما أخذ من أبي تمام . وما أحسبه خلا فيه من نظر إلى قول حبيب :

أذكرتنا أمر داود الخ

وعلى اختلاف المعنيين هنا ، لا يخفى سبق أبي تمام .

أخلت رباها كل سَيفانةٍ

أي وحشية سيفانة ضامرة . والسيفانات النساء الضوامر يا فتى. وما خلا حبيب ههنا من نظر إلى خيفانة امرىء القيس وأخذ من جرسها ، يدلك على ذلك قوله في عجز البيت :

تخلع قلب الملك الخالع

وما عنى به غير امرىء القيس على الأرجح . ونبه التبريزي على جواز ذلك . وربما يكون هذا الوجه قد أخذه من أستاذه أبي العلاء المعري، والله تعالى أعلم .

يصبح في الحب لها ضارعــاً   من ليس عند السيف بالضارع

وجاء بالسيف ليجعله بازاء السيفانة . أي يضرع لسيف حسنها من لا يضرع لسيف الأمير . ولعل أبا تمام قد علم من أمر تميم بن جميل السدوسي إذ جيء به إلى المعتصم ليقتل فاعتــذر والسيف مصلت والنطع قريب بأبيات تائية فرقّ عليه المعتصم وعفا عنه ، أولها :

أرى الموت بين السيف والنطع كامِناً   يُـلاحِظُني من حيــثما أتلفت

وتميم بن جميل هذا ممن لم يضرع عند قرب الموت باتفاق . فكان ذلك مع لطف الله سبحانه وتعالى من أسباب نجاته منه إذ نجا .

«وقد يذر النفس التي لا تهابه   ويخترم النفس الـتي تتهيب »

وقال أبو تمام :

بِكرٌ إذا جردت في حسنها   فِكرَكَ دلتك على الصّانــع

والبكر كثيرة في شعر حبيب . مثلاً :

بِكرٌ فما افترعتها كفُ حادثة   ولاتَرَقّت إليها همة النُّوبِ

وقوله « فــما افترعتها كف حادثـــة » بعيد المُتَصَّيد فيه استعارتان متداخلتان فما افترعتها حادثة .... فما تناولتها كف حادثة ، الأولى تبعية في افترعتها والثانية مكنية تخييلية في « كف حادثة » .

ومثلاً :

بكر تورّثُ في الحياة وتَفتَدِى   في السلم وهي كثيرة الأسلاب

وقد جعلها قليلة الخطاب لغلائها وقلة أكفائها ولأنها ابنة الفكر، لا ابْنَةُ أمٍّ وظِئر .

وقـال :

إليـك بعثت أبكار المعـاني   يليها سائق عَجِلٌ وحـادي
جوائز عن ذُنَابى القوم حـيرى   هـوادي للجـماجم والهـوادي

على ان قوله أبكار المعاني هنا ليس كقوله « بكرا » لخلوه من صورة قصد التشبيه بالبكر ، والله أعلم .

وقريب من هذا قوله :

إذا حضـرت سُوح الملوك تـقُبِّلت   عقَائـلُ حُسنٍ غـير ملموسة ملد

يعني قصائده ، والتشبيه بحقيقة الأبكار غـير الملموسات ههنا أوضح . وقال :

« بكر إذا ابتسمت أراك وميضها   نوْر الأقاحِ برملة ميعاس »

أي لينة

وإذا مشت تركت بقلبك ضِعفَ ما   بحُليِّها مـن كثرة الوسواس

وقالت بكر تفعل هذا فكأن كلمة بكر في بعض مقال أبي تمام مرادفة لكلمة امرأة وغانية ، وقال :

من كل خود دعاها الحسن فابتكرت   بكرا ولكن غدا هجرانُها نَصَفا

فهذا يقوي ما ذهبنا إليه ... فهذه خَوْد غانية ، بكْرٌ بحسنها إذ هي

مثل روض أُنف ، عوان بهجرانها ، حرب عوان كما ترى

غَـيداءُ جاد وَلِيُّ الحسن سُنّتها فصاغها بيدَيه روضـة أُنُفا

وولي الحسن أي مطره الثاني إذ المطر الأول هو الوسمي . وإنما أراد المطر مطر الحسن من حيث هو ، أي أن الحسن أبدأ فيها غَيثَه وأعاد فصاغها روضة أنُفاً ... ولا تخفى عليك المقابلة بعد بين قوله « الولي » وهو لا يدل على معنى البدء والبكارة و« الأنف » وهو يدل على ذلك . ولك أن تقول إن ولي الحسن هو الله :

لآلىءٌ كالنجـوم الزهر قـد لبست	أبشارها صَدَف الإحصان لا الصَّدفا
من كل خود دعاها الحُسن فابتكرت	بكراً ولكن غـدا هجرانهـا نصفا
لا أظلم النأي قـد كانت خـلائقها	من قبل وَشْكِ النوى عندي نوىً قذفا
غيداءُ جـاد وَلِّى الحسن سُنّتهـا	فصاغها بيديه رَوضَةً أُنُفا
مصقولة سترت عنا ترائبها	قَلباً بريّاً يناغي ناظِراً نَطِفا
يضحي العـذول على تأنيبه كَلِفا	بعُذرِ من كان مَشغوفاً بهـا كَلِفا
ودّع فؤادك توديع الفراق فما	أراه من سفر التوديع منصرفا
يجاهـد الشوق حيناً ثم ترجعه	مجاهدات القوافي في أبى دُلَفا

انظر كيف تجاوز نظر أبي تمام ترائب الجارية إلى قلبها البريء . وانظر الى هذا العذول كيف غلبت عليه رغبة التطلع إلى خبر العاشق . ثم هـذا الفؤاد الذي سافر مع التوديع حتى هم صاحبه أن يودعه توديع فراق ، في حين هو محتاج ليستعين به على الجد ومجاهدات القوافي في أبي دلف . أما قول أبي تمام : « صدف الاحصان » فمن بدائع غوصه ولم يخل أبو الطيب من استفادة به إذ قال :

لها بشر الدار الذي قلدت بـه ولم أر بـدراً قبلها قُلِّد الشهبا

ولو قال « صدف الاحصان والصدفا » لجـاز وكان حسناً . لكن قوله

« صدف الاحصان لا الصدفا » أدَقُّ لأنه لم يرِ إلا البعد والبريق . وقوله : « ناظراً نطفاً » أي ناظراً غير بَرِيءٍ . وذات الاحصان لا يكون طرفها إلا بريئاً . ومراد أبي تمام أن طرفها ساحر بطبيعته، ومريبٌ من أجل ذلك على براءة قلبها . وقد أراد كما رأيت الخلوص إلى قلبها من وراء ترائبها ليقوي هذه المقابلة .

هذا ، واكثار أبي تمام من لفظ البكر مما ينبغي أن يوقف عنده كأنه يريد بذلك مدلولاً أعمق وأدق من مدلول هذه اللفظة .

وقال ابن الاثير — وقد مارس من الشعر كل أول وأخير — « فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه ، وراض فكره برائضه ، أطاعته أعنة الكلام ، وكان قوله من البلاغة ما قالت حذام » .

بكر إذا جردت في حسنها　　فكرك دلتك على الصانع

يجوز أن يكون المراد نعت قصيدته من أجل ما مرّ بك من قوله آنفاً: « بكر تورث في الحياة » البيت ، وقوله: «إذا حضرت سوح الملوك» ..... غير أن قوله سيفانة نعت امرأة ، والسياق كله غزلي .

وإذا جردت فكرك في حسنها فدلتك هذا على الصانع يجوز تأويله على مذهبين : إما على قوله تعالى : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون . » وإذا نظر امرؤ إلى حسناء بارعة فاستباه جمالها وبهره فإنه يقول بسذاجة ويسر « جل الصانع ! » وتجريد الفكر وهذا لا يستقيمان معاً ، لأن تجريد الفكر معناه سلب ذلك العنصر ، الساذج ، المنفعل ، المختلط فيه تقدير الجمال والجنس الآخر معاً . ومتى سُلب هذا العنصر جاء الفكر ببرودِ علمِ الكلام ودليل النظّام ، وداخل معنى أبي تمام على روعته شيءٌ من التكلف واللاصدق .

وإما أن تقول — وهذا هو المذهب الثاني — « دلتك على الصانع » إذا جردت فكرك فيها لأنها هي الصانع ...

الله حيٌّ ...

دائمٌ ...

قيومٌ ...

وتتصوف بوحدة الوجود ... يا ودود ... يا حي ... يا موجود

وبيت أبي تمام كما ترى يتصرف بين معنى أن البكر هي القصيدة ، وبين معنى التأويل التوحيدي الجاف ، وهو إمكان الاستشهاد بجمالها على أن مثل هذا الاتفاق لا يكون بلا متقن (دليل النظام) ، وبين معنى التصوف المشتعل سُخُونة وَجْدٍ وشَطْحٍ ولا واقعٍ وانصرافٍ .

أليس في نفسك من أبي تمام شيء ؟

هذا الذكاء الرياضي المفرط فيه بعض البعد عنا .

عندما يتجرد أبو تمام عن مقاربتنا بغوامضه ، ويقف على منبر ويلتزم بنصر الخليفة والتغني والنعت لبهاء الدولة... بهاء الدولة حتى في «السماجات»

سماجةٌ غَنِيت منا العيونُ بها عَن كلّ حسنٍ بدا أو منظر عجب

هذا خراب عمورية ... هل كان الرجل نصرانياً في السر ؟ ...

معاذ الله ...

لله من نار رأيت ضياءَها ضاق الفضاء به عن النظار

مشبوبة رفعت لأعظم مشرك ما كان يرفع ضوؤها للساري

صلّى لها حياً وكان وقودَها ميتاً ويدخلها مع الفجّار

وكذاك أهل النار في الدنيا هُمُ يوم القيامة جلُّ أهْلِ النار

يا مشهداً صدرت بفرحته إلى أمصارها القصوى بنو الأمصار

رمقوا أعاليَ جذعه فكأنما رمقوا الهلالَ عشية الافطار

واستنشقوا منه قُتَاراً نَشره من عَنْبَر ذفر ومسك داري

هذا الشواء الذي استنشقوه هو الأفشين قائد الدولة الذي اتُهمَ بالزندقة والكيد للدولة وأحرق . وتحريق الناس في بابل قديم ، منذ قول ربك يا نار كوني برداً وسلاما على إبراهيم .

وأبو تمام مشرف من فوق هذا جميعه بتجرده الرائع من منبره الرهيب . وما كان ملتزماً بنصر الخليفة والتغني بجلال الخليفة فحسب ، ولكن بإقامة دعائم القريض :

إنّ الخليفة قد عزّت بدولتــــه دعائم الملك فليعزِز بك الأدب

هذا يقوله لابن الزيات صاحب التنور « والرحمة خَوَرٌ في الطبيعة »

خُذْها مغرّبةً في الأرضِ آنِسةً بكل فَهمٍ غريب حين تَغترب
من كل قافية فيها إذا اجتُنِيَتْ من كل ما يشتهيه المُدنفُ الوصِبُ

مهنا تشبيه مستكن للقافية بالبكر يدلك على ذلك قوله : «إذا اجتنيت» فدل على أنها لم تُجتَنَه ، وقوله إن فيها ضروبا : « من كل مـــا يشتهيه المدنف الوصب » ، والمدنف هو العاشق ، فدل على أنها معشوقة .

الجـــد والهزل في توشيع لحمتهـــا والنُّبْلُ والسخف والأشجان والطرب
لا يستقي بحَفيرِ الكُتْبِ رونقهـا ولم تزل تستقي من بَحْرها الكتب
حسيبة في صميم المـــدح منصبها إذ أكثر الشعرُ ملْقى ما له حسب

مسكين أبو العتاهية ومن إليه ... إذ قصيدة المدح هي الشعر ... Encomium – وجمعها Encomia هكذا سماهـا المستشرقون وهم لا يعلمون ...

وهمُ الناس أبداً القرب من السلطان والثناء عليه بأحسن ما يقدرون عليه التماساً لهذا القرب واستدامة له ... وليس شيء بأبلغ من الشعر في هـذا

الباب ... إلا حين تغلب العجمة والفدامة وترتكس الأذواق .

وأبو تمام يقهرك – وفي نفسك شيء – على أن تحترمه وتكبره ، لِما قدّمنا من تجرده والتزامه وعبقريته وذكائه الكبير ... وأبو الطيب رحمه الله تلقى تحدي أبي تمام إذ يقول :

« ولم تزل تستقي من بحرهـــا الكتب »

فقال بصوته الجهير المنير :

أنا السابق الهادي إلى ما أقوله إذ القول قبل القائلين مقول

تأمل قول أبي تمام « حفير الكتب » كتب الأصمعي وشعراء القبائل وهلم جرا وقوله : « بحرها »

هذا وكان الدكتور أحمد الطيب رحمه الله يتغنى بقول أبي الطيب :

« أنا السابق الهادي » .. وينفعل عند إنشاده أوله بإعجاب شديد :

وما لكلام الناس في ما يريبني أصول ولا لِلقائليـــه أصول
أعادي على ما يوجب الحب للفتى وأهـدأُ والأفكار فيَّ تجول
سوى وجع الحساد داو فإنه إذا حلّ في قلب فليس يحول

اللهم أرْسل عليهم صاعقة .

ويعجبني من أبي تمام قوله «حسيبة في صميم المدح » وقوة إحساسه بعظمة القصيدة ومكان المدح في الشعر ضربة لازب .

ومنبريات أبي تمام كلهن جياد ... قصيات بارتفاعه وجـلاله عن نبض قلوبنا الإنساني الآنس المتجاوب ، باهرات لهن حتى الأنفاس .

لبيت صوتا زِبَطريّا هرقت لـــه كأس الكرى ورُضاب الخرّدِ العُرُبِ

حتى تركت عمود الشرك مُنْعَفِراً ولم تعــــرج على الأوتاد والطُّنُب
تسعون ألفاً كآسادِ الشَّرَى نَضِجت جلودها قبل نُضْج التـــين والعنب
يا رُبَّ حوباءَ لمـــا اجتُثَّ دابرهم طابت ولو ضُمِّخَت بالمسك لم تطب
سماجة غَنِيَت منا العيون بهـــا عن كل حسن بـدا أو منظر عجب
خليفَة الله جـــازى الله سعيك عن جرثومـــة الدين والإسلام والحسب
بَصُرت بالراحة الكبرى فلم ترهـا تُنَــال إلا على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رَحِمٍ موصولة أو ذمـام غير منقضب
فبـين أيامك اللاتي نُصِرت بها وبـين أيام بَدْرٍ أقرب النسب
أبقت بني الأصفر المراض كإسمهم صُفْر الوجوه وجلَّت أوجه العرب

وأقرأ بائيته في مالك بن طوق :

أذكت عليك شهاب نار في الحشى بالعـذل وهناً أخت آل شهـاب
لك في رسول الله أعظَم إسوة وأَتمها . في سُنَّة وكتاب
أعطى المؤلفـة القلوب حقوقهم كملاً وردَّ أخائذ الأحزاب
ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

ودونها الميمية : « أرض مصردة وأخرى تثجم » لعلها دونها . وأحسب ـــ والله تعالى أعلم ـــ أن هذا مما جسر أبا الطيب على مجاراتها في ميميته التي هجا بها ابن كيغلغ :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم عرضاً نظرت وخلت إني أسلم

وأبو الطيب كان رحمه الله يتحاشى مجاراة أبي تمام في القوافي إلا أن يقع ذلك اتفاقاً أو يكون كأنه قد اقترح عليه مثل :

هذي برزت لنا فهجت رسيسا

وما أحسبه عمد إلى مجاراة :

على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب

في كلمته :

أعيدوا صباحي فهو عند الكواعب

ولا إلى مجاراة :

سقى عهد الحمى سبل العهاد

في كلمته :

أُحاد أم سداس في أحاد

وهي جيدة • وجلّى انه ما جارى «السيف اصدق أنباء من الكتب» بقوله :

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب

وليقس ما لم يقل ، كما علمنا ابن مالك ، في هذا الليل الحالك .

وقال أبو تمام :

إن القباب المستقلة بينها مَلِكٌ يطيب به الزمان ويكرم
لا تألف الفحشاء بُرْدَيْهِ ولا يَسري إليه مع الظلام المأثم

جيد ...

متبذل في القوم وهو مبجّل متواضع في الحي وهو مُعَظَّم
يعلو فيعلم أن ذلك حقه ويذيل فيهم نفسه فيكرم
مهلاً بني غنم بن تغلب إنكم هَدَفُ الأسنة والقنا تتحطم

لا جرم أصغى أبو تمام إلى رنين عنترة في المعلقة هنا واصغى البحتري اليهما معاً ..

مهلاً بني غنم بن تغلب انـــكم هدف الأسنة والقنـــا يتحطم
المجد أعنق والديار فسيحـــة والعز اقعس والعديـــد عرمرم

وقال عنترة :

ذلل ركابي حيث شئت مشايعي لُبيٌّ وأحفزه بـــأمر مبرم
ولقد حفظت وصاة عمي بالضحى إذ تقلص الشفتان عن وضح الفم
في حومــة الحرب التي لا تشتكي غمراتها الأبطال غـــير تغمغم

وقال حبيب :

مهلاً بني غنم بن تغلب انكم هدف الأسنة والقنـــا يتحطم
المجد اعنق والديار فسيحـــة والعز أقعس والعديد عرمرم
مـــا منكم إلا مردّى بالحجا أو مُبْشَرٌ بالأحْوِذَيّة ِمؤْدَم

أي الحجا له رداء والأحوذية له بشرٌ وأديم .

عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد سهمكم لا يسهم
خلقت ربيعةُ مذ لَدُنْ خلقت يـــداً
جُشَــمُ بن بكرٍ كفّها والمعصم
تغزو فتغلب تغلب مثل اسمها وتسيح غنم في البـلاد فتغنم
فستذكرون غداً صنائع مالك إن جل خطب أو تدوفع مَفْرَم
فمن النقيُّ من العيوب وقدغدا عن داركم ومن العفيف المسلم
إن القبـــاب المستقلة بينها ملك يطيب به الزمان ويكرم
لا تألف الفحشاء برديـــه ولا يسري إليه مع الظلام المأثم

تأمل قوله مع الظلام .

ولعل الميمية بعد ألا تكون دون البائية .... الله تعالى أعلم .

« ولا منبريات » أبي تمام هن المُنْصِبَاتُ ، وهن اللائي يحوجنك إلى

كشف الغامض ورياضة الرائض . ولأن أبا تمام فيهن يرفع حجاب كلفة البعد عنك بالتجرد والالتزام – اللهم غفرا – البعد عن ممدوحه بالمنبرية ويدنو منه بنوع من علاقة الاخاء والصفاء .... وصفاء أبي تمام تجرد فكر .

.... وإخاؤه نعومات مثالية وراء الحس في أوج العـــدم والفناء .... وكذلك بعض غزله ....

دمن ألمَّ بها فقـــال سلام كم حلّ عقدة صبره الالمام
نحرت ركاب القوم حتى يَغْبُروا رَجْلَى لقد عَنُفوا علي ولاموا

دعا على ركائبهم أن تنحر حتى يبقوا رجلى لا ركاب لهم ولكَ أن تقول رَجلًا بالتنوين .

عشقوا فلا رزقوا أيعـذل عاشق رزقت هَوَاهُ معـالم وخيـام
وقفوا عـليّ اللوم حتى خيّلوا أن الوقوف على الديار حرام

وقفوا عليّ اللوم من نحو قول امرىء القيس :

وقوفا بها صحبي على مطيهم

وهل كان في ابي تمام انحراف جنسي ؟ استغفر الله . ولا تقم كبير حجة على نحو :

ان أنت لم تترك السير الحثيث إلى
جآذر الروم أعنَقنا إلى الخـَزَرِ

فـتَحَرُّجُ ذلك الزمانِ من التصريـح بغزل النساء يجعلك تتوقف في ما يُذْكَرُ من أخبار الغلمان ، فربما كانوا كناية عن أمثال بادية بنت غيلان تُقْبِل بأربعٍ وتدبر بثمان .

مُريبٌ لـَيِّنٌ أمثالُ :

لا تصيب الصديق قارعـــة التأ   نيب إلا من الصديق الرغيب
كل شعب كنتم به آل وَهْبٍ   فهو شعبي وشعب كل أديب
كل يوم تزخرفون بنائي   بجبـــاءٍ فَرْدٍ وبر غريب
إن قلبي لكم لكالكبد الحرّ   ى وقلبي لغيركم كالقـــلوب

وأدخل من هذا في اللين ونعومة أطراف النفس على نحو حضاري مسرف كلمته التي أولها :

ديمة سمحة القيـــاد سكوب   مستغيث بهـــا الثرى المكروب

وهي في الحسن بن وهب أيضاً وقال بعد :

لو سعت بقعة لإعظـــام نعمى   لسعى نحوها المكان الجـــديب
لذّ شؤبوبها وطـــاب فلو تسـ   ـتطيع قامت فعانقتها القـــلوب

الله .... الله ....

فهي ماءٌ يجري وماءٌ يليـــه   وعَزَالي تَنْشا وأُخرى تذوب
كشف الروض رأسَهُ واستسرّ المَحْلُ منها كما استسرّ المريب

تأمل هذا .

وعسى الجوارى كن يكشفن رؤوسهن أمام السادة تحية أدب وتكريم .

هذا ، وذكروا ان أحمد بن أبي دؤاد لم يرض داليته :

سقى عهد الحمى سبل العهاد

واحسن الله إلى الدكتور محمد عبده عزام فكم صحح من تصحيف وخطأ كان في طبعاته الأخريات . على أنني أبداً أوثر أن يكون عندى من الشعر

مَتْنٌ مجرد من الشرح الا اليسير بالهامش ، وآخر مشروح . ومن ههنا تتجلى فائدة مختارات البارودي رضي الله عنه وجعل جنة الخلد له مقراً .

هذا وفي الدالية « سقى عهد الحمى » يقول ابو تمام :

وما ربع القطيعة لي بربع ... ولا نادى الأذى مني بناد
وأين يجور عن قصد لساني ... وقلبي رائح برضاك غاد
ومما كانت الحكماء قالت ... لسان المرء من خدم الفؤاد
لقد جازيت بالاحسان سوءا ... إذن وصبغت عُرْفَكَ بالسواد
وسرت أسوق عِيَرَ اللؤم حتى ... أنخت الكفر في دار الجهاد

احسنت ...

وليست رُغْوَتي من فوق مذق ... ولا جمري كمين في الرماد
تثبت ان قولا كان زورا ... أتى النعمان قبلك عن زياد

وحسد ابن ابي دؤاد — (الله تعالى أعلم ، إن بعض الظن إثم ، ولا بأس بذمه فقد كان من أعداء صاحب المسند ، في اعتزاله —وربك أعلم بالسرائر— عقابيل نصرانية أو ردة ، وتقربنا به اليكم يا اشياخنا) — ابا تمام على المنبر الذي كأنه انما صيغ له هو، فلم يصفح عنه حتى ينزل منه ، ويقعد او يقوم: (قال ابن الزيات يهجو ابن ابي دؤاد :

صلى الضحا لما استفاد عداوتي ... وأراه ينسك بعدها ويصوم
لا تعدمن عداوة مشئومة ... تركتك تقعد تارة وتقوم)

فصنع ابو تمام الدالية :

أرأيت أيَّ سوالف وخدود ... عنَّت لنا بين اللوى فزرود

وأحسن ما شاء . وكان ابن ابي دؤاد فيها أشبه بالكندي الفيلسوف

الذي جبهه بقوله : الأمير فوق من وصفت فقال له — ولم لا تفهم ما يقال— مثلا من المشكاة والنبراس — وتمثم بذلك حبيب . وهكذا جاء .

واذا أراد الله نشر فضيلة ...
ما كان يعرف طيب عرف العود ...

والقرآن يا صاحب المنطق مخلوق ؟ .. أعوذ بالله .. هذا الذي ألجأ أبا تمام الى عكس قضية الحسد « نشر فضيله طويت » بدل «طي فضيلة نشرت» والتماس ام البراهين .

سوى وجع الحساد داو فإنه إذا حل في قلب فليس يحول
ولا تطمعن من حاسد في مودة وإن كنت تبديها له وتنيل

وإن يكن هو أحمد بن أبي دؤاد ، اللهم غفرا ، فقد كان أحمد بن أبي دؤاد شيخ الفضل والأدب وسنام العرب ، ولعل أبا تمام لم يعد الحقيقة إذ قال :

عامي وعام العيس بين وديقة مسجورة وتنوفة صيهود
حتى أُغادر كلَّ يوم للفلا للطير عيداً من بنات العيد
هيهات منها روضة محمودة حتى تناخ بأحمد المحمود
بمُعَرَّسِ العربِ الذي وجدت به أمن المروع ونجدة المنجود
حلّت عرى أثقالها وهمومها أبناء إسماعيل فيه وهود

وهذان صنفا العرب من عدنان وقحطان .

ومما يصحح مذهب الإمام الغزالي في علاج الحسد والحقد وما الى ذلك قول أبي تمام يصف شعره في آخر هذه الدالية :

خذها مثقفة القوافي ربُّها لسوابغ النعماء غير كنود
حذاءَ تملأُ كل أذن حكمة وبلاغة وتدر كل وريد

كالطعنة النجلاء من يد ثائر بأخيه أو كالضربة الأخدود

كالدر والمرجان ألّف نَظْمه بالشَّذْر في عنق الكعاب الرود

كشقيقة البرد المنمنم وشيه في أرض مهرة أو بلاد تزيد

يُعْطى ا البِشرى الكريم ويحتبي برداثها في المحفل المشهود

بشرى الغني أبي البنات تتابعت بُشَراؤُه بالفارس المولود

كَرْقَى الأساود والأراقم طالما نزعت حُمَاتِ سخائم وحقود[1]

وهـذا موضع الشاهد .

والإمام الغزالي صاحب ربع المهلكات وربع المنجيات ذو الأدب السديد الرشيد شملته رحمات الحي الواحد المجيد ونفعنا بجاهه آمين .

هذا وقول أبي تمام بين وديقة مسجورة أي حر شديد وتنوفة صيهود أي صحراء لاماء فيها . وقوله حتى أغادر الخ عيـداً فهو العيد المعروف وبنات العيد النياق والعيد فحل قديم أي حتى تهلك هذه الإبل العيدية من شدة السير والحر والعطش وتعكف الطير عليها تأكلها فهذا عيدها .

هذا ولأبي تمام بين منبر المعتصم، ومجمع مالك بن طوق وهمسات الزخرف الى الحسن بن وهب درجات من ابتعاد واقتراب ، ومن اجودها ما كان فيه بعيداً كأنه على منبر ، لاحترام الممدوح له، قريباً بالتماس ادب المودة وتجويد المدح ، كبعض كلماته في ابي دلف وابي سعيد الثغري مثل :

على مثلها من أربـــع وملاعب أُذِيلَتْ مصونات الدموع السواكب

ومثـــل :

اما الرسوم فقد ذكَّرن ما سلفا فلا تَكُفَّنْ من شأنيك أو يَكِفَا

---

(١) الأساود جمع أسود أي الثعابين والأراقم جمع أرقم ، نوع من الثعابين .

ومثـــل :

لا أنت أنت ولا الديار ديـــار خفّ الهـوى وتولت الأوطار
لله در أبي سعيـــد إنـــه لــلدين محض ليس فيـــه سمار

السمار اللبن الذي فيه ماء .

أيامنا مصقولة اطرافهـــا بك والليالي كلهـــا أسحار
هممي معلّقة عليك رقابها مغلولة إن الوفـاء إسار
ومودتي لك لا تعار بلى إذا ما كان تامور الفؤادِ يُعَار
والناس بعدك ما تغير حُبْوَتي لفراقهم إن انجدوا أو غاروا

وأنكر الاصمعي «اغار» في قولهم « أغار وأنجد » وانما هو «غار وانجد» وبيت الاعشى عنده « غار لعمري في البلاد وانجدا » على الخرم اي سقوط فاء « فعولن » الأولى من عجز البيت هنا . ووعى ابو تمام ذلك وكان بالأفصح مغرى .

والناس بعدك ما تغير حبوتي لفراقهم ان انجدوا أو غاروا
فاسلم ولا تنفك يخطوك الردى فينا وتسقط دونك الأقدار

هذا جيد . تأمل قوله : « وتسقط دونك الاقدار » فهو حق عزيز .
والرائية :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر

منبرية اقترابية لمكان طيء (أم كان نبطياً ؟ معاذ الله) والرثاء والوفاء.. والجلسيات (أو كما يقال الآن الصالونيات) التي في ابي جعفر محمد بن عبد الملك الزيات شيء بين روم خشبات المنبر وهمسات الزخرف . (وقال احمد ابن ابي دؤاد لما بلغه أن ابن الزيات هجاه بنحو من تسعين بيتاً :

افضل من تسعين بيتاً هجا   جمعـــك معناهن في بيت،
ما احوج الملك الى مطرة   تغسل عنا وضر الزيت

وابن ابي دؤاد يعرض هنا بأن ابن الزيات نبطي ، قال الفرزدق :

ولكن دياقيٌّ أبـوه وأمـــه   بحَوْران يَعْصِرن السليط أقاربه

والسليط الزيت كما تعلم) .

واقرأ لأبي تمام في ابن الزيات :

متى انت عن ذهلية الحي ذاهل   وقلبك منها مدة الدهر آهـل
أبا جعفر إن الجهالة أمهـــا   ولود وأمّ العلم جدّاءُ حائل
أرى الحشو والدهماء أضحوا كأنهم   شُعوب تلاقت دُونَنَا وقبائل

هنا الاقتراب في عالم آفاق الفكر .

فكن هضبة نأوي اليها وصخرة   يُعَرّد عنها الأعوجيُّ المُنَاقِلُ

أي الحصان الذي يناقل وهو دون العدو وفوق المشي ... وعجز البيت ناب شيئاً لفظه عن صدره ... ذو ضخامـــة مصطنعة فيها نوع من فيهقة ومضغ ، ذلك بأن ابن الزيات كان — فيما ذكروا — بخيلاً ، وأنـّى لبخيل أن يكون « هضبة نأوى اليها » ... لقد كان ابو تمام مرهف الفؤاد دقيق الاحساس :

لـك القلم الاعلى الذي بشباته   تصاب من الأمر الكُلَى والمفاصل
أبا جعفر ان الخليفة ان يكن   لواردنـا بحراً فانـك ساحـل

فلا بد من وقفة عندك بقلق المنتظر القارب ليعبر ويرد ...

وقـد افاد ابو تمام رقة من جرير حين جاراه في بعض ما قال في ابي سعيد الثغرى :

تريدين المزيد وليس عندي ... وراء محل حبك من مزيد

فهذا بريء من انحراف .

وما انا بحق معجب بقوله في ابن الجهم وكان له صديقاً :

ان يكد مطرف الحياء فإننا ... نغدو ونسري في اخـــاء تالد
او يختلف مـــاء الوصال فماؤنا ... عذب تحدّر من غمام واحـد

آخر البيت جيد

أو يفترق نسب يُؤلّف بيننا ... أدب أقمناه مقام الوالد
لا تهلكن أبـداً ولا تبعد فما ... أخلاقك الخُضر الرُّبى بأباعد
أعَليُّ يا بْنَ الجهم إنكَ دُفتَ لي ... سُمّاً وجمرا في الزلال البارد

أي بفراقك .

هل كان في نفس أبي تمام من ابن الجهم شيء ؟
ربك تعالى أعلم .

وذكرو ان علي بن الجهم كان من اصحاب الوشايات. وفي اخبار البحتري ما يدل على حذر منه له وانطواء عنه . فما احْزَألّ عنه ابو عبادة فعنه نحن نَحْزَئِلُّ ، وقد جعل الخاطر بعد هذه الاستراحة إلى أبي تمام يكلّ :

واذا رأيت أبا يزيد في ندى ... ووغى ومبدىء غارة ومعيدا
أيقنت ان من السماح شجاعـة ... تَدْمى وأن من الشجاعة جودا
واذا سرحت الطرف نحو قبابه ... لم تلق إلا نعمـــة وحسودا
ومكارما عتق النجار تليـــدة ... إن كانهضب عَمَايَتَيْنِ تليدا

تأمل الموسيقا ههنا . وهذا بحركان أبو تمام فيه ذا سبح رغيب . والذهن المجرد والرياضيات والموسيقا كل ذلك مجال بعضه يمت الى بعض :

متوقد منـــه الزمان وربما كان الزمــــان بآخرين بليـــدا
أبقى أبوك ومزيـــد وأبوهما وابوه ركنك في الفخار شديدا
سلفوا يرون الذكر عقبا صالحا ومضوا يعــدون الثناء خلودا

ومن قبل قد قال :

راحت غواني الحي عنك غوانياً يلبسن نأياً تارة وصـــدودا
من كل سابغة الشباب اذا بدت تركت عميد القريتين عميـــدا
ازرين بالمرد الغطارف بُدّنا غيدا الْفنَتهمو غطارف غيدا
أحلى الرجال من النساء مواقعا من كان أشْبَهَهم بهن خدودا

ولله وحده الكمال ... هل بعد في النفس من أبي تمام شيء ؟

ما نال أهـــل الجاهلية كلهم شعري ولا سمعت بسحري بابل
واذا اتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامـــل

ويأبى أبو الطيب الا أن نستشهد به في كل مقام

ولقد قال ابن الأثير ، يعني أبا الطيب ، « فإن سعادة الرجل كانت اكبر من شعره » .. وكذب وبحسبك شاهدا مقتله وهو ابن احـــدى وخمسين في الأوج وبيده اللواء . وسرعان ما استدرك ابن الأثير بعد فقـــال : « وعلى الحقيقة فإنه خاتم الشعراء ، ومهما وصفته بهفهو فوق الوصفوفوق الاطراء».. وخاتم الشعراء ، أي أكبرهم واستشهد هو نفسه بقوله من بعد :

« لا تطلبن كريما بعـد رؤيتـه إن الكرام بأسخاهم يدا ختموا
ولا تبال بشعره بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصمم »

وهكذا ينبغي ان يقال. وكان أبو تمام «رب معان وصيقل الباب واذهان»
وذلك مكان رفيع ، وهو له عندنا وعندكم ايضاً أعظم شفيع

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

(٧)

« ومن يَكُ أمسى بالمدينة رحله   فإني وقيارا بهـــا لغريب »

وفي النفس أيضاً شيء من الشاعر الانجليزي صمويــــل تيلور كولردج — ولعل قراءته بلغة ليست هي لغتك بَعْضُ حجاب. وقد كان لك به إعجاب. ثم هو ليس بذى غوامض ، لا بـــد معها من كشفٍ ورياضة رائض . وفيه وضوح ، وإلى الاسماح جنوح يسمون الاسماح الآن تلقائية « من قوله تعالى : « ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل » . ولا أدري كيف صير بهم الى هذا الاشتقاق ، كأن مجال اللغة عن مرادهم قد ضاق .

ومع هـــذا في كولردج بُعْدٌ ، سَبَبُهُ — مع إتقان ظاهر اسماحه — صناعة فيه وجهد . وكان ايضاً يتقن النغم . ويتقن تفاصيل الجرس . وكان له وثبات خيال . وله اختراع في هذا المجال .

وأخذ الدكتور طه على الأستاذ العقاد رحمه الله انه لم يراع فرق ما بين « الخيال » Imagination « والوهم » Fancy . واذا تفلسفنا حقاً فليس بين الأمرين فرق ، إذ لا وهم بلا خيال ، إذ لا يصدق اختراع شيء ليس بقيس على سابقـــة من العلم على وجه مضى ، كالذكريات مثلاً ، وكالأحلام مثلاً ، فكلا ذينك على وجه ، منشؤهما التجارب التي مرت بك من صنوف العيش . وإن شئت فسم الذكريات خيـــالاً والاحلام وهماً وعلى هذا اكثر

مدار هذين الاصطلاحين عند النقدة . وعكس العقاد رحمه الله مدلولها فحسب ان الخيال مـــا خالطه الاختراع ، والاشتقاق يقوي ما ذهب اليه ، كقول المعري مثلاً :

وخلت الدّر أنـْجُمَه عليه   ومثلك من تخيَّل ثم خالا

و « Honey - dew » ندى العسل و « Milk of paradise » لبن الجنة أدخل في باب الوهم منها في باب الخيال ، ونحو هذا في شعر كولردج كثير .

For he on honey-dew hath fed
And drunk the milk of paradise

ما أجمل وما أسلس . هذا من قصيدته « كبلاخان » وأولها تعلمه قبة اللهو واللذائذ ، كالتي بنى الأمير عند فـُرْصة البحر للاستشفاء ، وأنس الحسان من بنات النساء ، حيث يجري النهر المقدس Alph «ألف» في كهوف ما خطرت اغوارها على قلب بشر .

Weave a circle round him thrice,
And close your eyes with holy dread,
For he on honey-dew hath fed
And drunk the milk of paradise.

السطران الأولان نظر فيهما كولردج، كما لا يخفى إلى سواحر «ماكبيث» ، حيث رقصن حول القدر التي فيها الضفادع والأورال وإبهام بحار ربان سفينة ، فهذا إبهامه يكون افعل في السحر. وهذا معنى قوله « وأغمضوا اجفانـــكم بالفزع المقدس » ثم جاء بندى العسل ولبن الجنة من التوراة ، تعويذاً لـك ولنفسه من سواحر الإبهام آكلات لحوم الأنام .

وفكرة ... «Weave a circle round him thrice» وهيّ نِيَامْ

نِيَامِيَّةٌ – (من قولهم نِيَامْ نِيَامْ ونسم ونسم أي أكَلَةُ لحوم البشر) – غريبة ههنا من كولردج في معرض حديثه عن الصين وملكها الذي بهر ماركوبولو ...... ولكنه بالنسبة الى عقلية أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ومبدأ النهضة الصناعية والتوسع الامبريالي وهلم جرا ، لم يكن الفرق كبيراً بين ملك الصين وملوك الغابة العراة (وغَيْرُ العراةِ في حكم العراة) في أجواف أرض الميعاد السوداء . والذي يدلك على هذا الخلط عند كولردج قوله :

And' mid this tumult Kubla heard from far
Ancestral voices prophecying war

ولا يخفى ما يخالط هذا من الرهبة والطبول والدموية والأفواه الفواغر .

وقد زعمت « بيرل بك » في حديثها عن « الأرض الطيبة » أن زبانية الحرب في أرض الصين قد يأكلون من كبود أعدائهم ، كالذي رامت أن تصنعه هند بنت عتبة يوم عينين وفي رجليها خلخال رهيب من آذان وأنوف.

هذا والذي كأنه صح عندي أن كولردج كان نادر الذكاء واسع الاطلاع جيد الملكة . وزعموا أنه كان محدثاً بارعاً ، مسرفاً أحياناً ثرثاراً ....متسع أفق الخيال . غير أنه لم يكن مع معرفته موسيقا اللفظ والنغم ، موهوبــاً سحر البيان العميق المنبعث من حيث الشغاف، الى اللانهاية سَبْحا سَبْحا . كان يريد التجديد . وكان كيمائي الملكة ، فاجتمعت عنده كل المواد . النظر بِمِثْلِ عين ابن الاثير بتنقير وبما لا ينبئك مِثْلُ خبير ، ثم النقد . وبعد تَنَخُّلِهِ المواد وجمعها وخلطها لتكون شعراً كان شيءٌ لامع براق جَيِّدٌ عميق السَّطْحِ ، شيءٌ عجيب ، .. إبهام الربان في قدر السواحر ، أو لبن الجنة ، أو ندى العسل ... هذا الوسيط الذي تنحل به دقيقات التركيب وتتولد وتتفاعل ، الإلهام ، .. هذا العنصرُ يمد إليه كولردج بقوى ذكائه البارع بنانات حديثه المقتدر ، ويسقط بإعياء دون بلوغ الشغاف من قلبك ،

لأنه لم يبعث بالنغم وبالاسماح ... [ماذا ؟ « التلقائية »] .... وبالوضوح من نَبْض الشغاف من قلبه . حتى قصة البحري الشيخ، The Rime of the Ancient Mariner وفيها كلام حسن مصدر بعضه من انفعالات فرحات خاصة ذاتية جداً ليست من موضوع القصـــة في شيء ، ولكن من طرب كولردج لضربات موسيقا الرجز الشعبي Ballad :

The breeze blew,
The white foam flew,
The furrow followed free,
We were the first, that ever burst,

هذا أضعف من الثلاثة الاسطر قبله والله أعلم .

Into that silent sea

وكيف يكون Silent sea بعد الذي قال من صفة حباب المـــاء وحركة صوته ؟

الوسيط الذي تتفاعل معه الخلطة الكيمائية لم يكن هناك ، وتطايرت أرواح الجنائز منها للجنة أو للنار ، ولكل روح تطير رز صفير كالسهم الذي رَمَيْتُ به الطائر المشئوم .

I fear thee ancient mariner
I fear thy skinny hand

هل خافه أن يأكله كما عسى أن يكون قد أكل اجساد اصحابه كما عسى ان يكون قد اكل الطائر المشئوم .

عيب كولردج انه جرد الفكر للشعر فأعطاه كل شيء إلا الالهام ... ثم اشاع بعد ذلك جواً من اللاّ إنسانية الرهيب يجوز معه الاقتراب من الجنائز

مع أكلة لحوم البشر . وليست برائعة روعة أبي تمام من شرفات المنبر ...
الذي يجلس عليه حتى حين يريـــد ان يهمس ... كولردج واقف يتحدث
باصبع تشير مثـــل بجاره الخيف ، وقد قطعتها الساحرة وألقتها في القدر
ورقصت حولها ثلاثاً وأغمضت أجفانها في فزع مقدس .

والبيان افصاح وبلاغ . وافصح كولردج ومـــا بلغنا . ما بلغ شغاف
قلوبنا . وعلى نغمه البارع

For he on honey - dew hath fed
And drunk the milk of paradise

نقرناه وما طَـنّ .

ولعل هذا العناء بجهد الذكاء هو الذي دفع كولردج آخر الأمر الى التماس
تخدير الأفيون ، فقد كان ناقداً باقعة ، وما كان ليخدعه ثناء المادحين له عن
حقيقة قيمة انتاجه . وقصّةُ طرق الباب في كبلاخان مؤثرة . مأساة هذا
النابغـــة يروم بالاجتهاد خرق الحجاب ، فانبتر تسلسل صناعة الحلم البارعة
لما طرق الباب . لاندى العسل ولا لبن الخلود ولا شعلة الحب المقدس ...
شبهه بأبي تمامُ معاناةُ الفؤادِ العظيم طَـلَـبَ حَطْـمِ القيود .

اما ابو تمام فنهض بها من فوق منبره . تلك هي روعته وعبقريته . ورام
كولردج كسرها أو اذابتها أو التخلص منها بضروب الاحتيال ، فاعيته .

لبيت صوتاً زبطريـــاً هرقت له كأس الكرى ورضاب الخرد العرب
عـــداك حر الثغور المستضامة عن برد الثغور وعن سلسالها الخصِب
بصرت بالراحـــة الكبرى فلم ترها تنـــال إلا على جسر من التعب

قراءتك شعر شاعر في غير لغتك وان شرحه لك الشارح الخفي لا تخلو بحال
من حجب .

واقرأ كلمة كولردج Love حيث يقول :

All thoughts, all passions, all delights
Whatever stirs this mortal frame,
All are but ministers of love,
And feed his sacred flame.

Oft in my waking dreams do I
Live o 'e r again that happy hour,
When midway on the mount I lay,
Beside the ruin'd tower.

فقد افاد منها كلا شيلي في Skylark وكيتس في La Belle Dame sans Merci غير قليل ... ومــــع هذا فلعل كولردج لو قد سلك غير نهج « الرومانتيكيين » لكان قد تأتى له من راحة الفؤاد ما لم يتأت له إذ شايع « ورد ثورث » فقصرت عنه خطاه و لم يعطه « القول » من قياده ما « أعطـــاه » ... ولعلك سائل بعد ما معنى حطم القيود أو الاحتيال على حطمها أو النهوض بها . والمراد من ذلك أن عنصر الالهام هو الذي انهض ابا تمام بقيوده فأطاع حديدهن حركاته رهيباً مهيباً غريباً . ولا نزعم ان كولردج كان بلا الهام . ولكن فراره الى التخدير اخمد ما كان عنده من جذوته باتفاق ، حتى سقاه كأس الموت ساق .

« ومن صحب الدنيا طويلاً تقلبت على عينه حتى يرى صدقها كذباً »
« وكيف التذاذي بالاصائل والضحا اذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبّا »

سيعود باذن الله تعالى :

« ذكرت به وصلاً كأن لم أفُزْ به وعيشاً كأني كنت اقطعه وثبــا »

« لها بشر الدر الذي قلدت بــه ولم أر بدراً قبلها قلد الشهبا »

رحم الله ابا الطيب ورحم الله ابا تمام .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين وجعلنا بشفاعتــه من الناجين آمين .

(٨)

طربنا الى الحسناء لو أنّ وليها قريب واما القلب عنها فلا يسلو
تذكرتها والتيه بيني وبينهـــا وغيبمن الاحداث والدهر لايألو

هذا روى زهير في لاميته الرائعة .

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو
واقفر من سلمى التعانيق فالثقل

ورحم الله زهيراً ... كان هو أيضاً من أصحـــاب القيود . ولكنه من براعته اسبغ عليهن أطراف ثيابه . ماذا قال :

لهم راح وراووق ومسك تُعلُّ به جلودهم وماء
يجرّون البرود وقدتَمَشَّت حُمَيّا الكأس فيهم والغناء
فأما ما دوين العقد منها فمن أدماء مرتعها خــلاء
واما المقلتان فمن مهــاة وللدر الملاحــة والصفاء

وإلى هــذا نظر شيخنا وشاعرنا ابو الطيب — (مع نظره الى صَدَف الاحصان) — حين قال :

لها بشر الدار الذي قلدت به   ولم أر بدراً قبلها قلد الشهبا

ولقد رام ان يتجنب لفظ زهير وذلك قوله :

سربٌ محاسنه حرمت ذواتها   دانى الصفات بعيد موصوفاتها
أوفى فكنت إذا رميت بمقلتي   بشراً رأيت أرقَّ من عبراتها

أي أشرف هذا السرب فكنت إذا نظرت إلى بشر من أبشارهنَّ شاهدت أرقّ من عبرات عيني التي كانت ملأى بالدمع . الانفعال القلبي تسوغ معه مثل هذه الصناعة . وهـذا هو التصيد والغَوْصُ الفكري الذي رامه « الميتافيزقيون » أو ضَرْبٌ منه وعليه أكثر « سوناتات » شكسبير، وعند أبي تمام منه ولكنه في حيز أمْرٍ اكبر هو مذهب أبي تمام . وهذا الذي جعل ابن رشيق يزعم ان ابن الرومي أشد غوصاً على المعاني من ابي تمام ... عنى مجرد الغوص والافتنان امثال : « مدَّ في شأو صوتها نفس كاف» « من سجو وليس فيه انقطاع » « لا تراها هناك تـَجْحَظُ عَيْنٌ » « وإذا امْرُؤُ مدح أمرأً لنَواله »... لا الغوص من علٍ في آفاق من علٍ في عالم باهرٍ مبهور. واحترم ابن رشيق آراء الأوائـل فتَحَرَّج أن يقدم ابن الرومي ، وكان للاندلسيين ومن اليهم به ولع من اجل شيخهم ابي علي القالي إذ جلبه اليهم والله أعلم .

وقد فطن ابو الطيب الى أن الصدق والاقتحام واقدام الكمي أبلغ من الغوص . فترك نحو « أرق من عبراتها » الى التشبيه بالدر إذ هكذا يكون الصفاء ، ولا بأس بـأن يتبع زهيراً ويأخذ منه فهو على رسفانه المحجوب وهوب .

صَحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو
وأقفر من سلمى التعانيق فالثّقل

وقد كنت من سلمى سنين ثمانيا على صِيرِ أمْرٍ ما يمر ومايحلو
وكنت اذا ما جئت يَوْماً بحاجة مضت وأجمّت حاجَةُ الغَدِ ما تخلو

أي كنت اذا ما جئت يوماً سلمى تزورها لحاجة مضت تلك الحاجة وجاءت حاجة جديدة اليها فلا تخلو انت من حاجة اليها قط . واذا ابتعدت عنها لم يُسْلِك النأي عنها .

وكلّ محب أحدث النأي عنده سُلُوّ فؤاد غير حبك ما يسلو

أي كل محب يسليه النأي الا حبك ، ما يسلو حبك من يهواك قط ... ومعنى هذين البيتين قد اراده عمر بن ابي ربيعة في قوله :

تَحِنُّ الى نُعْمٍ فلا الشمل جامع ولا الحبل موصولٌ ولا انت مقصر
ولا قرب نعم ان دنت لك نافع ولا نأيُها يُسْلِي ولا أنت تصبر

وقوله « ولا قرب نعم ان دنت لك نافع » يفاد منه مجرد امتناعها وعسر منالها — لا الصدى والرغبة اللذين لا ينتهيان كما في قول زهير .

وقول شكسبير :

فلا العُمُر مبليها ولا عادةُ اللقا بها من مجاليها الصُنُوفَ تُضيع
سواها من النسوان يُتْخِمن بالجَدا وأقْوَى اذا ما أشبعتك تُجيع

Age cannot wither her, nor custom stale
Her infinite variety, other women cloy
The appetites they feed, but she makes hungry
Where most she satisfies ......

لا تعجبني فيه استعارته التي استعار من الطعام وما اليه .... وفيه مراد

زهير . والذي قال زهير يخالطه الحزن واستشعار ذهاب الشباب والحب وبهما كان تجدد الحياة وحيويتها .

وكنت اذا ما جئت يوماً بحاجة   مضت وأجمّت حاجةُ الغد ماتخلو
وكل محب أحدث النأي عنده   سلو فؤاد غير حبك ما يسلو
تأوّبَنِي ذكر الاحبة بعدما   هجعت ودوني قُلّة الحزن فالرمل

تأمل عمق روح الصبابة وأغوار الحزن وأعباءه التي معها .

تأوبني ذكر الأحبة بعدما   هجعت ودوني قلة الحزن فالرمل
فأقسمت جهداً بالمنازل من منى   وما سحقت فيها المقادم والقمل

هل حج أبو تمام فانه يقول :

تلك الجزيرة مذ تحمل مالك   أضحت وباب الغيث عنها مبهم
أقوت فلم أذكر بها لما خلت   إلا منى لما تقضى الموسم

شيء من كمباشرة تجربة الحج ههنا – فإن لم يكن قد حج فقد أبعد التأمل وأصاب وهو بعد القائل :

ولقد علمت لدن لجحتم أنه   ما بعد ذاك العرس إلا المأتم
علما طلبت رُسومه فوجدتها   في الظن إن الألمعيّ منجم

فيكون قد نجّم بألمعيته كما ترى والله أعلم .

تأويني ذكر الأحبة بعدما   هجعت ودوني قلة الحزن فالرمل
فأقسمت جهداً بالمنازل من منى   وما سحقت فيها المقادم والقمل

هل تأفف زهير من القمل أو أقسم به ؟

وقد كان القمل في الزمان الماضي يبلغ من أذى الناس مبلغاً . وعندك في

ذلك خبر كعب بن عجرة رضي الله عنه إذ حمل إلى النبي ﷺ والقمل يتناثر على وجهه فقال له عليه الصلاة والسلام : ما كنت أرى أن الجهد قد بلغ بك هذا . ثم أذن له أن يحلق ويصوم ثلاثة أيام أو يطعم ستة مساكين ، قال تعالى : « فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك » . قيل شاة ، ولم تكن عند ابن عجرة شاة أو كما قالوا :

فأقسمت جهداً بالمنازل من منى وما سحقت فيها المقادم والقمل
لارتحلن بالفجر ثم لأدأبَنْ إلى الليل إلا أن يعرجني طفل

شرح لهم هذا البيت الشيخ عبد العزيز عبد الله رحمه الله تعالى ونضر ثراه.

وكان خط الشيخ عبد العزيز على السبورة واضحاً . وتلاميذه بين اثني عشر إلى ثلاثة عشر إلا ما قل – واحداً أو اثنين أو ثلاثة – يفهمون ويعربون . وقد سبقت لبعضهم معرفة «أن تحذف وجوباً في خمسة مواضع» ، بخط الوالد على السبورة كأنما دو بالحبر الصيني على ورق أبيض صقيل : لام الجحود ، أو التي بمعنى إلى أو إلا

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر

حتّى ، فاء السببية ومن أمثلتها :

ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها عقود مدح فما أرضى لكم كلمى

وواو المعية ... وهو قد قرأ كتاب حفنى ناصف ، قواعد اللغة العربية كله ، والمجرد والمزيد ، وحذف كان

أبا خراشة أما أنت ذا نفر فإن قومي لم تأكلهم الضبع

وأقدم على فصول البلاغة والبديع وكان البديع إليه أحب ، وهو ابن تسع إلى عشر .

وكان يعطيه قطعة واحدة ، خمسة أو عشرة ، أحسبها عشرة ، برّاً به ، ورعايةً لزمالة أبيه ، وكان ذلك يسره ، ويسر من كانوا معه من التلاميذ...
« لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . »

هـذا ،

وأما قول زهير : « إلا أن يعرجني دلفل » فيخالف فيه مذهب الشعراء الجاهليين في الاتحاد بالناقة كما عند ابنه كعب مثلاً :

تسعى الوشاة جنابيها وقولهمو إنك يا بن أبي سلمى لمقتـــول

إلى انفصام عنها بحزم مسافر ــ«رُبّ عجلةٍ تهب ريثا»ــ وبيطرةٍ صاحب دابه شفيق .

كان زهير مثاما أحس أبو العلاء ، من حنفاء الجاهلية . وما كان لمثـل جبروت ذكائه وعقله أن يروم أن يكنى عن نفسه أو يرمز إليها بناقة. حتى في المعلقة أضرب عنها إضراباً :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما تبزّل مـــا بـين العشيرة بالدم

هذا بعد ذكراه أم أوفى وعقابيل أطلالها .

وفي القافية : بل اذكرَنْ خبر قيس كلها حسبا
وخيرها نائلا وخيرها خلقا

وفي الميمية التي من البسيط :

فاستبدلت بعدنا داراً يمـــانية ترعى الخريف فأدنى دارها ظلم
إن البخيل ملوم حيث كان ولـ ـكن الجوادَ على عـــلاته هرم

وفي النونية التي من البسيط :

يَقْطَعن اجواز أميال الفلاة كما ... يَغْشى النّواتي غِمارَ اللجّ بالسفن
يَخْفِضها الآل طوراً ثم يرفعها ... كالدوم يَعْمِدن للاشراف أو قَطَن
ألم تر ابن سنان كيف فضّله ... ما يشتري فيه حمد الناس بالثمن

ومن الدالية البسيطية التي يُذْكَر أن سيدنا عبدالله بن عباس أنشدها سيدنا عمر بن الخطاب إذ استنشده والصحابة حاضرون ، رضي الله عنهم جميعاً :

إلى ابن سَلْمَى سنانٍ وابنه هرم ... تنجو بأقتادها عيدية تخد

العيدية الابل . تخد أي تسير

في مُسبَطِرٍ تَبارَى في أزمتها ... فُتْلَ المرافق في أعناقها قَوَدُ

أي مرافقها مفتولة وأعناقها ذات طول . والمسبطر هو الطريق الهادي .

معصوصبات يُبادِرْن النجاء بنا ... إذا ترامت بها الديمومة الجُدَدُ

الديمومة الفلاة ، الجدد المستوية المنبسطة

عومَ القوادس قفى الاردَمُونَ بها ... إذا ترامى بها المغلوبُ الزَّبِد

القوادِس السفن والأردمون الملاحون ولك أن شئت إن تترجم عنوان كلمة كولردج « The Rime of the Ancient Mariner » – قافية الأردَم العجوز – ويكون هذا العنوان من مخلّع البسيط. هذا والمغلوب الزّبدُ هو البحر جعله مَغلَوباً لضخامة أمواجه . وتكرار إغْشاءِ الملاحين سفينتهم لج البحر كثير في شعر زهير مُنبىء اما بتجربة ركوب البحر أو مشاهدة سفنه بتأمل وعجب ورهبة عند ساحل جدة والحجاز – قال في الكافيه :

يغشى الحداة بهم وَعثَ الكثيب كما ... يُغشي السفائنَ مَوجَ اللجّة العرِكُ

والعُرَك هم الملاحون – وقال بعد في الدالية :

بفِتْيَةٍ كسيوف الهند يبعثهم هَمٌّ فكلهم ذو حـــاجة يَقِدُ
مَتْهم السّير فاتآدت سوالفهم وما بأعناقهم إلا الكرى أوَدُ

إني لأبعثهم والليل مُطَّرِق ...

أي كثيف وهم قد أنآدت أعناقهم من النعاس

إني لأبعثهم والليـــل مطــرق ولم يناموا سوى أن قلت قدهجدوا
إلى مطايا لهم حُـــدبٍ عرائكها وقد تحلل من أصلابهـــا القَحَد

أي إلى ابل هزلت من السير حتى احدودبت أسنِمَتُها وتحللت قَحداتها أي أصولها من مواضعها والجمال فيما يذكرون إذا طال بها الجوع تغـذى من شحم سنامها . وهذه الأبيات الدالية من أطول ما قال زهير في الإبل وهو بعد لم يعد بها كونها مطايا ورواحل والفتية الذين كسيوف الهند وهو أحدهم غير مُتَحدثين بها كالذي تجد في شعر الجاهلية

وما أشك أنه قال في رائيته التي مدح بها هرما بدءاً بذلك :

دع ذا وعد القول في هرم شيخ البداة وسيــد الحضر

والصوت أجشّ والقيد ثقيل ...

. . . ومن يعش ثمانين حولاً لا أبالك يسأم

وما انفصل امرؤ القيس عن ناقته حين عقرها :

ويوم عقرت للعذارى مطيتي فواعجبا من كورها المتحمل

وان يك قد نجّى بذلك فنه من ثقل أعباء نعتها ، إذ أخَفُّ منه تشبيه

الليل بالبعير ذي الأعجاز والكلكل وهو ينوء . إذ ما عقر إلا نفسه ...

وشاهد ذلك بعض قوله :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل

على ان زهيراً يتحدث إلينا بقيده وانسانه الكبير لا من منـــبر ولا من وراء حجاب ولكن عند حبوة الندى مكافحة من قريب

« تداركتما الأحلاف قد ثُلّ عرشها وذبيان قد زلت بأقدامهـا النعل

« وما يكُ من فضل أتَوْه فإنمـــا توارثه آباء آبائهم قَبـل

« وهل ينبت الخطّي إلا وشيجُه وتُغرَس إلا في منابتهـا النخل

« صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو وأقصر من سلمى التعانيق فالثقـل

« تاوبني ذكـر الأحبة بعدمـا هجعت ودوني قلة الحزن فالرمل

فلي دموع حرار ... وزهير زعم أنه سئم بعد ثمانين وكأنه لم يسأم ، فهل تراه سلا بعد ثمان ... ؟ ورحم الله جريراً إذ يقول :

سقى الأدمَيْ بمسبلة الغوادي وسلمانين مرتجزا ركاما

وقال أبو عبادة البحتري :

أكنت معنفي يوم الرحيـل وقد جدت دموعي في الهمول

عشية لا الفراق افاء عزمي إليّ ولا اللقاء شفى غليلي

وقد حاولت أن تخد المطايا إلى حي على حلب حلول

وقال أبو تمام :

سلام الله عدة رمـل خَبْتٍ على ابن الهيثم الملك اللباب

ذكرتك ذكرة جذبت فؤادي إليك كأنها ذكرى التصاب

ذكرت صنيعة لك ألبستني أثيث المال والنعَم الرغاب
وليست بالعوانِ العنسِ عندي ولا هي منك بالبكر الكعاب
فلا يَبعَدْ زمان منك عِشنا بنضرَته ورَونقه المُجاب
لياليه ليالي الوصل تمّت بايام كأيام الشباب

وقال أبو الطيب :

لبِسن الوشى لا مُتجملات ولكن كَي يَصُنّ به الجمالا
وضفَرن الغدائر لا لحُسْن ولكن خفن في الشعر الضلالا
أشدُّ الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا
ومن يك ذا فم مر مريض يَجدْ مرّاً بـه الماء الزلالا

وفي اصداء النيل :

ومالك والجزالة في زمـان يحب به من القول الهجين
تُبين به وليس له سميع وينظمه سواك فلا يبين
فإن ذوى الجزالة قد طواهم لدى غبرائه الزمن الخئون
فليتك لم تكن إذ ان غبنا مكانك بعد ما درج القرون
وليتك حين كنت خُلِقْتَ منهم
تمين مع الزمـان كما يمين

بل الحمد لله من قبل ومن بعد .

إليه يرجع الأمر جميعاً — .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

(٩)

رأوا الإله وشَرْعَهُ فتباعدوا ورأوا بديعة والفجور فجاءُوا
رَمضَانُ جئت بألف ألف عجيبة أحيت لياليك العظام نساء

كان ذلك بنادي الخريجين أوائل سنة ١٩٣٧ وكان يعد خطوة إلى الأمام.

أنا لا أرشح للخلافــة مائقاً

يعني الملك فاروق الأول :

غِراً يسير على طريق حــائر
ان يَدَّعُوا إصلاحنــا وعلاءَنا فالشاة تُسْمَنُ لانتفاع الجازر

هذا كان سنة ١٩٣٩ م — وارتجف كبار الوطنيين من هذا الصوت الجسور.

سُخْف يشاد به وسخف يودي قد أسخفوا من مُبْدِيء ومعيد
ان المحاضرة التي شاهدتهــا هزؤ على هزؤٍ على .....

هذا كان مجاراة لأبي تمام في داليته :

أرأيت أي سوالف وخـــدود عَنَّت لنا بــين اللوى فزرود

على نَحْوٍ هزلي تهكُّمي .

وأعْجَف شَخْتٍ كالجرادة شاحِب مُلَوَّى كقِنْوِ النخلة المُتَعَشكل
إذا لَـبِس السوداء واندسَّ في الدجى وعرَّد يَعْوِي كالخليع المعيَّـل

هذا على نهج « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » ...

تَطلَّب الجهاد بها قَصِيرٌ مبغلا لو قــد يكون لمثله تبغيــل

فيلـُفها وتلـُفـّه فكـأنه ثـَوبٌ يُعَرَّض للهواء بليل

ومن أبيات الدالية :

ولقد رأيت الارذلين كأنهم بُعْران توضـح قـُيِّدت بقيود
ويلوح فـَعْلـَل كالوباء ويَختَفِي في حينه كالدرهم المفقود

وهكذا وهلم جرا ...

واعلم أن كلية غوردون خالطت إنشاءها منذ البدء حبائل دسائس السياسة ومكايد طلب السيطرة والحكم .... وقد جيء لها ، بغرض نوع من الدعاية ، ببعض علماء فحول أول الأمر من أمثال الشيخ عبـد الرؤف سلام والشيخ الخضري ، ثم انحُدِر بهـا شيئاً فشيئاً ، حتى زال اللب وبقيت قشور ثم لعل هذه القشور نفسها قد زالت فلم يَبْقَ شيء .

وكان الناس يُغْرَوْنَ ويُحَاوَلـُونَ على إرسال أبنائهم لكلية غوردون. وكان فيهم عن ذلك انقباض . وبعض البيوت الدينية لم يرسلوا بأبنائهم إلا لما خَشُوا ان يظن بهم استمرار الولاء للتعايـشِي ، وقال لهم المـأمور المصري الذي أعجبه سَمْتُهم إن ذلـك ليس بالأسلوب التعايُشِي . وكان أكثر من التحقوا بكلية غوردون من أبناء الذين جاءوا مع الحكم الجديد فبقي أكثر الوطنيين عنه بمعزل ، ففاتتهم الفرص الأولى .

وكان السير « جيمز كري» الذي عُهِدَ إليه بأمر التعليم أول الأمر ذكياً نشطاً وفي مظهره كأنه غير دنيوي وكأنـه « درويش نصارى » وكان ناظر كلية غوردون مصرياً من خريجي اكسفورد يقال له هدايت بك، وكان معتزاً بنفسه ، عصرياً ، حسن الهندام ، جيد تصفيفة الشعر ، إذا أراد أن يحُكَّ رأسه مرّ بإصبعه من فوقه من دون أن يَمَسَّه . وكان مهيباً مخشياً . إلا أن الشيخ الخضري لم يكن يخشاه . ورام أحد المتملقين أن يتخلص له من الشيخ

الخضري بواسطة عمل سحري يقوم به أحد «الفلاته» الذين كانوا بأم درمان . ولما بلغ الشيخ الخضري ذلك قالوا غضب وثار وغادر الديار ، فظن المتملق انه ما اخرج الشيخ الخضري إلا كيد الساحر .

فتأمل هذا المزج بين فضيلة العلم وجهل العامة وقذرهم وكدرهم منذ البداية .

وقالوا ان السير « جيمز كري » كان ربما أغرق في مظهر دروشته حتى يوشك أن ينسى الناس انه هو الرئيس . ثم يجيء ذات يوم على بغلته وهو يتغنى « بغلة بتاءي » (أي بتاعتي) « كلية بتاءي » .

« هدايت كان بتاءي » .

وكانت تُرْبَط بغلته في ميدان الموز الكاذب ، قريباً من مدخل بناية كلية غوردون . وكان المستر « ويليامز » الذي صار من بعد مديراً لكلية غوردون إذ هي مدرسة ثانوية له كلب فاره يربط أو يُجْعَلُ له سرير في طرف من ميدان الموز الكاذب ويُجَاءُ له بشواء اللحم الحنيذ وأوشك أن يكون مثل القرد الذي كان عند زبيدة على عهد هرون الرشيد . فذكر أبو العلاء المعري أن الناس كانوا يدخلون عليه فيحيونه . فدخل عليه من بينهم يزيد بن مزيد الشيباني فقتله ... وهذا كأنه من نسج الاساطير .

وجاءت لجنة « دي لوار » في سنة ١٩٣٧ووصّت باقامة المدارس العليا، تمهيداً لإنشاء الجامعة . واقيمت حفلة شاي للجنة وخطب فيها كبار الخريجين وقال لهم « لورد دي لوار » .

This, your magnificent country. . . .

وهو يتصبب عرقاً .

وكانت كل عام تقام حفلة للخريجين بعد مباريات طويلة في كرة القدم وجر

الحبل والقفز العالي وأصناف ما جعلت تدرسه المعاهد من الأعيب. والى ذلك أشار المرحوم أحمد شوقي في توديعه لورد كرومر حيث قال :

هل من نداك على المدارس انها   تذر العلوم وتأخذ « الفتبولا »

وكانت قصيدة حافظ إبراهيم « بنات الشعر بالنفحات جودي » وهي ضارعة ضعيفة بالنسبة الى هذه اللامية عند الناس أجرأ منها وأكثر وطنية وحماسة فتأمل .

ولعل الحفل الذي ألقى فيه شوقي خطبته لم يكن يختلف في جوهره كثيراً عن حفل الخريجين الذي كان يقام بالميدان نمرة ١١» ههنا ، وتحضر له طربيزات الصفرة الكبيرة ليقعد عندها كل التلاميذ ويشربوا الكَيْكَ والشاي ويقف المستر وليامز من بعد بيده ورقة فيها خطبة عربية مكتوبة بحروف لاتينية ، فيخطب هو «بَلاَ رَابيَّهْ» — وهذا في ظاهره تنازل واعتراف باللغة العربية ، ولكنَّ باطنه وحقيقته غزوةٌ لها وغارة عليها لما فيه من طَمْسٍ حروفها وطريقة كتابتها كما ترى .

هذا وقد وُحِّدت المدارس العليا جميعاً باسم كلية غوردون سنة ١٩٤٤ وتولى أمر ادارتها بادىءالأمر المستر سكوت ثم جاء بعده الدكتور توتهيل صاحب كتاب « الزراعة في السودان » . وهو سفر نفيس جمع كلمات جياداً عن أصناف النبات وما إلى ذلك في السودان . ولم يُكتَب حتى الآن شيء في مستواه . إلا أن سابقة الدكتور توتهيل في رئاسة المدارس العليا في بداية أمرها جعلت لقسم شمبات منها وضعا من السيطرة كان له فيما بعد أثر لم يخل من جَورٍ على تطور تاريخ الكلية الجامعية ثم الجامعة من بعد . ثم جاء المستر ولشر سنة ١٩٤٧ . قالوا وكانت الحركة الوطنية قد جعلت تحتدُّ . وتحت ادارة المستر وِلشَرْ صارت كلية غوردون كلية جامعية سنة ١٩٥١ ثم هو أعد لها دستورها لتكون جامعة سنة ١٩٥٦ . وكان مدير الكلية الجامعية

ذا نطاق عظيم من النفوذ المطلق إلا أنه كان يمكن الاحتجاج عليه والاحتكام مما عسى أن يقع من خطأ أو ظلم للأفراد عند الزائر وهو الحاكم العام . فأبطِل هذا المُتَنَفّسُ في قانون سنة ١٩٥٦ "توطئة" لتمتيع ادارة الجامعة بسيطرة لا مُعقّب عليها .

ورُئي أن يُختار لادارة الجامعة الجديدةالمستقلة استاذ من الخارج.ووقف المستر ولشر في حفل تخريجه يخطب بمشهد من الطلبة والخريجين . وذكر أن أربعة من السودانيين كانوا له أيّما عون في ما كان ينهض به من أعباء وعدّ أول الأمر أسماء ثلاثة من كبار الخريجين ووجهائهم... ثم سكت يسيراً وعد اسم الرابع وقال هو فلان ... my sufraji « خادمي السفرجي » ... وران على الناس أجمع عجب مخبوء.وما أشبه ما كان من مقالته هذه بغناء السير جيمس كري من قبل في الزمان القديم :

— بقلة بتائي

كلية بتائي

هدايت كان بتائي

وإنك لا تجني من الشوك العنب .

وخلف البروفسور جرانت المستر ولشر . وسُودِنَ منصبه بعد عامين . وسبقت انتخاب خلفه السوداني سلسلة من اجتماعات خاصة أقامها بعض اعضاء مجلس الجامعة يتآمرون بها لاستبعاد الاستاذ الدكتور شبيكة من أن يُختار أول مدير سوداني للجامعة . وكان أحق الناس بذلك ، بل كان ذلك حقه الشرعي بحسب طريقة اجراءات السَّوْدَنَة آنئذ ، إذ كان نائب المدير وأقدم الاساتذة جميعاً عملاً بالجامعة ،صحب نماءها منذ أن كانت مدرسة ثانوية وعمل بها في مراحلها كلها وساهم في أصناف نشاطها من تدريس وبحث وتأليف وادارة وهلم جرا . وتريث المتآمرون بإجراءاتهم حتى تستقر أوضاع السياسة

آنئذ الحكومية على حال . وكان الواجب يقتضي أن يسارعوا باختيار خلف البروفسور جرانت حتى يتسلم منه ويُعِدّ العدة قبل ذلك لوضع الخُطَـــا الأوليات من هيكل الأسلوب الذي ينوي مبـــدأ السير عليه . ولكنهم – أي رجال المجلس – آثروا التأجيل يرتقبون أن تخلو الجامعـة من الطلبة بعطلة الصيف فلا يكون لهم ضلع في التأثير على طريقة الاختيار أو الاحتجاج على ما عسى أن يقع من ظلم أو انحراف . ويرتقبون أيضاً نتيجة الانتخابات البرلمانية . وقد اسفرت هذه عن فوز حزب لم يكن الدكتور مكي شبيكة لديهم بحق أثير . ثم إنه قد كان كسائر أبناء البلد المواطنـين فرداً يعمل في دائرة اختصاصه معتمداً على أن يُنْصف ويُنْتَصَفُ له في ضوء أمانـــة نفسه وجودة عمله وحسن كفايته ودرايته ، فلم يَخْلُ من محاربه كَيْدِ الأقليات التي تطلب البقاءَ لنفسها ما استطاعت بأيما وسيلة بإبعاد ممثلي الأكثريـة عن مناطق النفوذ .

والملك والجاه والسلطة والنفوذ كل ذلك بيد الله يضعه حيث يشاء ....

وما استُبْعِدَ الدكتور مكي شبيكة عن حقه الشرعي حتى انفتـح على الجامعة باب شر مستطير ، والحق أن جامعات افريقية الحديثة قـد داخلت أكثرهن السياسة وشهوة سلطة الحكم وجاهه وما يتبع ذلك من صراع وقذر أحياناً . ذلك بأن المستعمرين حين أنشأوا نَـوَاةَ هذه الجامعات قـد عمدوا إلى الاحتفاظ لأنفسهم فيها بهيبة الطبقة الحاكمـة والعنصر الحاكم . وكان المدير يُعْطَى وضعاً من السلطة شبيهاً في مظهره وامتيازاته بأوضاع من كانوا آنئذ كبار ضباط الحكم ، كمديري المصالح الكبيرة عندنا والسكرتير الأداري والمالي مثلاً . ثم أضيف إلى هذا ايام القلق السياسي الوطني عامل ادّعـــاء المحافظة على الاستقلال الأكاديمي ، فجَعَلَ ذلك مدير الكلية الجامعية (ثم الجامعة من بعد) ذا منطقة من نفوذ مطلق أشبه شيء ببلاطٍ صغير .

ومن التمويه والقياس الفـاسد ما جُعِل لكثير من جامعات افريقية من

قوانين ومجالس جامعية غير أكاديمية كالتي في الجامعـــات الاقليمية بانجلترا. فليس منصب المدير في واحدة من هذه بلاطـاً صغيراً تدعمه سلطـــة الساسة الحكام ، كما في أكثر جامعات افريقيا على النحو الذي قدمنا . ثم ان مجالس جامعات انجلترا اقليمية الطابع لا قوميّة كالتي عنـــدنا ، تستمد كينونتها وحيويتها من كينونة المجتمع الاكاديمي وحيويته لا من سلطان السياسة ومـا يقع فيها من نزاع .

ولا يغب عنك بعد أن الجامعات القوميه الكبرى بانجلترا لا تشرف عليها مجالس غير أكاديمية — فذلك حفظ لها هيبتها وجعلها لغيرها قدوة .

هذا وقد نشرت جريدة الصراحة قصيدة الكلب الكبير والجرو الصغير، وجاء فيها : (١٩٥٨) .

ألم ترهم غـداة تجمعوا أكبادهم نار
وقالوا إنّما نـَصْنَعُهُ لـَيْسَ به عار
ولم يرعو لذلك الشيخ لا إلا ولاذِمّهْ
ولم يَرعَو الدارِ العلم لاالحقّ ولاالحُرمَهْ

فأوغر ذلك بعض الصدور ...

ثم نشرت جريدة الصحافة عام ١٩٦٢ قصيدة المنآة والمتعزل .

وجاء فيها :

ألم تعلمي يا عمرك الله انـني بليت بجيل بين جلف وجَيْأل
وعاشرت إخوان الجحود وسار بي طريقي على أطراف شوك وجندل
يقولون لي هـلاّ تقيم لدى الحمى حمى العلم إن العلم أكرم منزل
فقلت وأين العلـم ليست دياره هنا ههنا دار الخنى والتبذل

وحولي اعـدائي فمنهم مجاهر .وآخر مخف كيـده غير مؤتلي
إذا شاء رب العرش ثل عروشهم وأتبع منهم آخرا حتف أول

فقال لك بعض من عسى أن يعطفوا عليك : ان رجال الجيش — وكان ذلك زمان عبود — قد غضبوا من هذه الكلمة . وانبرى بعضهم يترجمهـا ويطلب من مجلس الجامعة باسم شهوة التطلع إلى النفوذ المطلق أن يُعاقَبَ صاحبها ...

ونشرت من بعد اللواء الظافر ، وجاء فيها :

وقفت كما رفع اللواء الظافر وجبينها حدُّ السنان الباهر
إما تريني كالحسين مُضرجـاً بدم الشهيد فذاك فوز ظاهر
وحويت في صدري خزائن حكمة وصبرت ان العبقري لصـابر
وأرى مصارع حاسِدِيَّ وربما ألنَقَى غداً وأنا الأمـير القاهر
والقلب في الظلمات يبصر نوره رُوح الإله وكالنبي الشاعر
ولأنت فتنة ناظرين ولم يزل عندي لك الودُّ الصحيح الطاهر
وتزيده الأيام وهو يَزيـدني ِحرْصاً على نيْـلِ العلى وأثابر
ووجوه قومٍ قد رأيت كأنها من قُبْحها في التجربات مقابر

وثارت ثائرة قوم فتقدموا بعريضة ....
وذلك حديث يطول ....

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيـار بها لغريب »

وكيف يغترب بالمدينة أحد لولا أن عمير بن ضابىء كان رجلاً جهولاً....
أم هم الشعراء ، يهيمون في كل واد .

نسأل الله العفو والعافية والمعافاة في الدنيا والآخرة . وصلى الله على سيدنا محمد رسوله وخاتم خلقه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

(١٠)

وحَليلِ غانية تركت مُجدّلا	تمكو فريصته كشدق الاعلم
ومشك سابغة هتكت فروجها	بالسيف عن حامي الحقيقة معلم
بطل كأن ثيابه في سَرْحَةٍ	يُحْذَى نِعال السبت ليس بتوأم

السبت بكسر السين أي الجلد. وربما كان يَفتَح السين خطأ. والمراكيب الحُمْرُ كُنَّ يُبعَنَ يوم السبت فلو قـــد كان فهمه لها أنه يحذي المركوب الجديد يشتريه يوم السبت من سوق السبت ، كان ذلك فهماً غير بعيد جداً من الصواب . وكان لكل مركوب « قدُّوم » — أي منقار — « كقدُّوم » الطير أي كمنقار الطير . وما لم يكن منهن رقيقاً مما كان من جلد البقر كان له منقار صقر ... والاسكافون مكبون والفقر ضارب بجران. وكانت مراكيب النساء رقيقات بأقصى ما يستطاع دقيقات جوانبهن ، لا مناقير لهن . ومنهن نوع كان يقال له « قطع كلبوس » كان يُسْتجاد . « وكلبوس » هذا اسم صانعه أو لقبه وقطع المراكيب صُنْعها كما لا يخفى . فقولك «قطع كلبوس» كقولك مثلاً «أسنة قَعْضَب» أي رماح قعضب أو نصاله ، وكان هالكيا — حدّاداً — ماهراً . قال امرؤ القيس :

وقُلْنا لفتيـــان كرامٍ ألا انزلوا	فعَالَوْا علينا فَضْل ثوب مُطَنَّب
وأوتاده مَاذيّـــة وعمـــاده	رُدينيـــة فيهـــا أسنة قعضب

هذا من البائية . وأبيات فيها تعجبني جداً .

أتذكر اذا انحدرت الى المركب من عند الجرف. وإذ تقرأ في ابن أبي الحديد:

« نعم زعيم الرفقـــة المهلب
أبيض وضاح كتيْس الحُلّب

واذ ودعك صاحبـــك بقطار الخرطوم يستبعد ما أنت مقبل عليه من سفر ، وهل تعود ، وأنشد :

فلله عينــا من رأى من تفرق   أشتّ وأنأى من فراق المحصب
فريقان منهم جازع بطن نخلة   وآخر منهم قاطع نجد كبكب

وأنشدت بالباخرة الكلمة التي أولها :

تقول وأرسلت دمعاً همولا   أحقّاً انت ازمعت الرحيلا

واستمع لها احدهم وكان ينفس عليه كثيراً . وأقر أن ههنا ملكة جزالة نادرة وأنكر : « فألف تحيـــة لبني ابينا » ... وكأنه أحس فيها روحاً رجعياً . روحاً قـَبَلِيـّاً . وكان إنما أقر له بكلمة الجزالة ليكتشف لنفسه كيف تصاب، إذ لم يكن عنده إلا أنها شيء يمكن أن يشترى بنوع من التأتي والحيلة والـكـَدّ ... وغاب عنه أن ذاك عطاء الله :

حلّت بأرض الزائرين فأصبحت   عسراً على طلابك ابنـــة مخرم
وكأن فارة تاجر بقسيمـــة   سبقت عوارضها اليك من الفم
أو روضة أُنُفـاً تضمن نبتها   غَيْثٌ قليـــل الدّمن ليس بمعلم
سَحّاً وتسكابـــاً فكلّ عشية   يجري عليهـــا الماء لم يتصرم

هذه كان ينشدها أخوه معه وينحو بالكسرة الى نوع من امالة طربـــة توشك أن تظهر بها ياء ساكنة .

طَلَبت ربيعـــة المهى لهـــا فتفيّأتْ ظلاً لهـــا ممدودا
بكريَّها علويَّها صَعْبيّها الحِصْنى شَيْبَانيّهـا الصنديـدا
ذُهْليَّها مريهـــا مطريَّهـــا يُمْنى يَدَيهـــا خالد بن يزيدا
نسب كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عمودا
شَرَفٌ على أولى الزمان وإنما خَلَقُ المناسب ما يكون جديدا
وَرِثوا الأبوة والحظوظ فأصبحوا جَمَعوا جُدوداً في العُلى وجُدودا
وقر النفوس اذا كواكب قَعْضَبٍ أرْدَيْنَ عفريت الوغى المريـــدا

يعني أسنة قعضب . فلما جعلها كواكب جعل فوارس الوغى عفاريت مردة . وهذا أبو تمام كما لا يخفى عليك ولا زال انشاده من رفقائه على لأواء الدهر . وترقبناه فما جاء النصر . ويا إلهي هذا ضعفنا ظاهر بَيْن يَدَيْك . وهذا يوم الجمعة وهذه عسى ان تكون من ساعات الاستجابة . (البخاري) عن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه ، وأشار بيده يقللها . أ. هـ. وقيل أخفيت كما أخفيت ليلة القدر . وقالوا رفعت . وقيل ذلك لأبي هريرة فقال كذب من قال ذلك . أ. هـ. هذا على زمانه فكيف في زمان الحفالة ؟ قال البخاري رضي الله عنه ونفعنا به حدثني يحيى بن حماد حدثنا ابو عوانة عن بيان عن قيس بن حازم عن مرداس الأسلمي قال ، قال النبي ﷺ : يذهب الصالحون الأول فالأول ويبقى حفالة كحُفَالة الشعير أو التمر لا يباليهم الله بَالَـه ، قال ابو عبدالله يقال حفالة وحثالة أ. هـ. وفي الموطأ ان المرء ليدرك بحسن خلقه درجة القائم بالليل الظامىء بالهواجر . أ. هـ. وفيه ايضاً ان لقمان الحكيم اوصى ابنه فقال يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فان الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء . أ. هـ. ورجح ابو الوليد الباجي قول من قـــال ان ساعة الاستجابة يوم الجمعة هي العصر وما تأوله بعض الصحابة من ان « يصلي » من قوله ﷺ « وهو قائم

يصلي » ان له حكم المصلي » ثم قال : «ويصح ان يتأولوا يصلي بمعنى يدعو» . وبلغ ابن حجر بالأقوال التي ذكرت فيها نيفاً واربعين .

وقد قرأ الامام بسورة الزلزلة في الركعة الأولى وبسورة الاخلاص في الثانية . ولعل هذا فأل حسن . وما عند الله خير للابرار . وصرح الظالمين منهار . وعاقبتهم النار . آجلاً وعاجلاً إن شاء الله تعالى . وهو أسود من القار وهو الزفت .

وهاذاك هو الطاغوت ، وهاذاك هو الجِبْتْ .

وبعداً لَكَ بُعْداً لَكَ بُعْداً لَكَ لاطِبْتْ .

ثِبْ ... وانكسرت عنق الخبيثْ .

والسير الى ذلك حثيثْ .

وهذا الشّعْرُ أثيثْ .

« حلت بأرض الزائرين فاصبحت   عسراً علي طلابك ابنةَ مخرم
وكأنّ فـارة تاجرٍ بقسيمة   سبقت عوارضها إليك من الفم
أو روضة أُنفا تضمن نبتهـا   غيث قليل الدمن ليس بمعـلم
سحّاً وتسكابا فكـل عشية   يجري عليها المـاء لم يتصرم
وخلا الذباب بها فليس ببـارح   غَرِدا كفعل الشارب المـترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعـه   قدح المكب على الزناد الأجـذم

هل اخترع عنترة هذه الصورة أم قد رأى من هكذا صفته فجاء به هنا.

وفي اصداء النيل :

ولقـد أحزنني أن   خِيطَ في الدار الكَفَنْ

هذا يوم وفاة الوالد :

مثلمـــا أحزنني أن قـطـف الموت حَسَنْ
ودبابٌ قرع الطبـــل فـــدوّى ورطن

وكان حسن طروباً إلى صوت الطبل :

« والمنايا بـــين غـــادٍ وسار كلُّ حيٍّ بِرهنِهـــا غَلِقُ »
يا صاح بانوا هـــل تراهم عادوا أم هل لنا بلقائهم ميعـــاد
أم هل فؤادك سوف يَصدَع صخره هذا الجحود ففي فؤادك آدُ
فاصبر ولا تَخْشَ انفجاراً إنـــه تُشْفىَ به لو يَحدث الأكبـاد
أو ماترى عطفاً عليك وربمـا في أعين رمقتك قـد تزداد
ولقد ذكرت الخَوْدَ وهي كأنها جاءت وذلك غُصنُها الميّـاد
أم ليس لما أن وقفت مُناصِرٌ الا اجتهادك إنه الجواد
ولقد أقوم أروم في وَهْن الدجى هَتْكَ الحجاب وهِمّتي إصعـاد
ولقد شكرت الله إن بلاءه عندي شكورٌ والشكورُ يُزَاد
أما العدو فهم كثير رُبّما عَصَفت بهم رِيحٌ لهـا إرعاد
زارتك هِنْدٌ إنها لنجيبة وبقلبها لــك ياوَدُودُ ودادُ
والغانياتُ ومقتهن ولم تُرِبْ إن المريب عن الشهود يُـذَاد
ولقد كسبت بذاك روح تجرُّدٍ في الله لا يدنو إليه فساد
ولسوف يمنحك المهيمن آيةً منه فلا تيأس وذاك عتـــاد
ولسوف يسقط فوق قوم سَقْفهم ويصير ما زرعوه وهو رمـــاد
كسفتْ شموسُ بعدشَمسِك إنها قد كان منها المصدر الوقّاد
عودي إلى هـــذا الظلام بلمحة يأيهـــا الحسناء ياميـــلاد

أم ننشد من أبي تمام للعزاء والأيام غير وِضَـاء .

بِكْرٌ إذا جردّت في حسنهـا فكرك دلتــك على الصانع
نُوح صفا مُذْ عهد نوحٍ له شِرْبُ العلى في الحسب البارع

مُطَّرد الآباء في نِسْبَةٍ كالصبح في إشراقه الساطع
نُوح بن عَمْرو بن حَوِيّ بن عَمْرو بن حَوِيّ بن الفتى ماتع
للجَدْب في أمواله مرتع ومَقْنع في الخصب للقانع

أي السائل ... أم كما قال أبو الطيب: « ان الكرام بأسخاهم يداً ختموا» أم ماذا – أم : ثُمَّ ماذا كما كان يقول الدكتور زكي مبارك رحمة الله عليه.

ان الفؤاد هاجه الحنين
ان الفؤاد بعدكم حزين
وصخرة الأيام لو تلين
نلفى كما كنا معاً نكون

« وقد أرَتْنا حسنها ذات المَسك شادِخَةُ الغُرَّةِ غراء الضَّحِكْ »

Tell them I came and no one answered...

قولوا لهم إني حضرت ولم يجبني أحد
إني وفيت بوعدي ولم يُجبني أحد
هل ثَمَّ أحد

هذا من القطعة TheListners...

كان الاستاذ جيوم يعجبه شعر جون مانسفيلد. وهذه منه كان المستر ج.س. سكوت يدرسها في الزمان البعيد. ومانسفيلد هذا كان شاعر الملك. وأحسب كلمته هذه تعطو ولا تنال على حُسْنٍ ما ونغَمٍ .. نغم ما

لا تَنأ يا حُلْوُ ألا لا نَفتَرِقْ
من ناظريك النُّور عندي يَنبَثِقْ
قلبي لا الفجر الذي سَيَنْفلِقْ
إذا ذهبت والسرورُ يختنق
في مَهْده إذا بك البيْنُ عَلِق

وفي « جون دون » بَعْضُ روح رنجز ، ويعطو وينال كثيراً أحياناً كثيرة وفيه البادرة والجهد والعناء والفكر . قالوا نشأ يتيماً ، مات أبوه لعامين (١٥٧٣–١٦٣١ م) من مولده وشبَّ عابثاً زير نساء وخبر حرب البحر وكان تعليمه جيّداً إذ درس بأكسفورد وكمبردج ومدارس القانون بلندن . ثم كان زوجاً صالحاً . وذاق ضيقاً من العيش وهو ذو عيال وكان أول نشأته في بيت يسر . ثم لحق بخدمة الملك جيمس الأول وصار قسيساً في كنيسة سنت بول . وألح عليه المرض . وتَنَسَّكَ . ولله در أبي العلاء إذ يقول :

وقال الفارسون حليف زهد وأخطأت الظنون بما فرسنه
ولم أعرض عن اللذات إلا لأنَّ خيارها عني خَنَسْنَه

وقال رحمه الله :

وآمال النفوس معللات ولكن الحوادث يعترضنه

وعسى أن نقول معه عما قليل :

لأمواد الشبيبة كيف غِضْنَه ورو ضات الصبا كاليبس إضنه

وفي بانات رامة :

ألم ترني قضيت الليل أبكي وللعينين بالدمع انهمار
الوذ بكل بيت مستجاد على عَتَبِ القريض له انحدار
تنخله فؤادي في الدياجي فأسهرني وقد خدروا وخاروا

— وداعا

ان الفؤاد بعدكم كليم هذا الفراق حدث جسيم
وانتمو الجنة والنعيم وطيرنا من الصدى تحوم
إن النوى فيكم لنا غريم

وأنتمو الحرية العذراء   وطاب فيكم للفتى الغناء
وهل تراق منهمو الدماء   وهم أولاء كلهم أشـــلاء
ميتة ما إن بهـــا ذماء   لقدأساءوا والنفوس َساءوا
وما تفاءلت َغداةَ جاءوا

قال أبو الطيب :

اليوم عهدكم فأين الموعد   هيهات ليس ليوم عهدكمو غد
الموت أقرب مِخْلبا من بينكم   والنَّجم أبعد منكم لا تبعدوا
عدوية َبدَوِيَّةٌ من دونها   سلب النفوس ونار حرب توقد
قالت وقد رأت اصفراري من به   وتنهـــدت فأجبتها المتنهد

وقال رحمه الله

في الناس أمثلة تدور حياتها   كمماتها ومماتها كحياتها
هِبْت النكاح حذار نسل مثلها   حتى وفرت على النساء بناتها

فهل ترك أبو العلاء التزويج ليبرهن أنــه أصدق من أبي الطيب ؟ وقول أبي الطيب : « حتى وفرت على النساء بناتها » يقارب السذاجة في ظاهره. ولعل الأمهات أشد تعلقاً ببناتهن مما نظن ، فإلى هذا المعنى أراد أبو الطيب وهذا كما ترى معنى دقيق ، ولعله أن يكون قد صدق فيه والله تعالى أعلم

« وجون دون » من أخريات كلمة له غرامية عنوانها « القلب المكسور » The Broken Heart ، ولعل الكامل أشبه في تقريبها :

ولقد دخلت البيت َقلْبي صاحبي   وخرجت لم أحمِلهُ إذ أنا غــادي
ولقــد علمت لو انَّ قلبي عندكم   رَهْـــنٌ وليس فؤادكم كفؤادي ،
قد كان قلبكمو تعلم رأفةً   منه وشيمة رحمةٍ ووداد
لكن هــذا الحبَّ منــه بوَكْزَةٍ   قــد فتَّه مِثْلَ الزجاجِ بَدَادِ

ولأنه لا شيءَ يُلفَى كائناً لا شيءَ أو بُعْدٌ من الأبعاد ...
يُلفى خلاءً ، فالحطام جميعه في الصّدر غير مُوَحَّدِ الآحاد
وكما إذا انكسر الزجاج ترى به مائةً أقلُّ من الوجوه بَوادي ،
فكذاك قلبي يستطيع حطامُه رَوْمَ المُنى وتَجِلَّةَ العُبّاد
لكنّه من بعدِ هذا الحبّ لنْ يَقْوَى على حُبٍّ مدى الآباد

وقال من كلمة أخرى له عنوانها : The Message أو كأن قال :

أعيدوا لي الطرف الذي ظلَّ شاردا يراقب منكم لا يَمَلُّ المشاهدا
وعلمتمو طرفي صُنُوف خداعكم فصار سوى طرفي الذي كنت عاهدا
ألا لا تُعيدوه إليَّ فإنني لقد صرت فيه بعد ما خان زاهدا
أعيدوا لي القلب البريءَ الذي خلا لعمري مما يجعل القلب فاسدا
فإن تُكْسِبوا قلبي طبيعة خلطكم مع الجد هزلاً كان للجد فاقدا
فلا تَرْجعوا قلبي إلي فإنه لَقلبٌ سوى قلبي الذي كان راشدا
بلى فارجعوا قلبي وطرفي لكي أرى وأعرف منكم مينكم والمكايدا
وأضحك مسرورا إذا ما وجدتمو حرارة ذي وَجْدٍ بمن ليس واجدا
أو آخرَ خدّاعٍ خلوبٍ كمثلكم لي الآن عن صدق الهوى متباعدا

وقال في أول كلمة له حسنة عنوانها Love's Progress

ومن يبغ الهوى من غير صدق إلى أرب الهوى إذ يبتغيه
فذاك كمن يروم ركوب بحر وليس سوى دوار الرأس فيه

وأحسبه ههنا يصف بعض حاله هو لما ركب البحر إلى حرب قادس والكلمة بعد طويلة لا تخلو من حسن صناعة وفكاهة فكر .

وقال أبو تمام يمدح أبا سعيد :

كم نعمة زينتني بسموطها كالعقد في عنق الكعاب الناهد

غادرتها كالسور عُوليَ سمكه	مضروبةً بيني وبين الحـاسد
فاشدد يديك على يدي وتلافني	من مَطْلب كدر الموارد راكد

لعله أراد مطلب الرزق ونضال الدنيا .

أصبحت في طرقاته ووجوهـه	أعمى ولكني نبيل القائـد

وأي معنى في نفسه يريد أبو تمام أن يفصح عنه حين يشبه نفسه بالأعمى... فقد جاء نحو من ذلك في قوله :

فصرت كأنني أعمى معنّى	يُحب الغانيات ولا يراهـا

والشعر من فرط الذكاء ربما بدا كأنه ضرب من الجنون . ولذلك تضيق أحياناً بالشعراء مذاهب العيش ... وهل عنى أبو تمام بقوله :

« نبيل القائد » شعره ؟ وذكر صاحب مقدمة ديوان « جون دن » أنه قد أسفَّ بالملق في بعض مانظم يطلب به كسب الرزق ، وعسى أن يعذره في ذلك جودة ما نظمه . وهذا غير بعيد من المعنى الذي أراد أبو تمـام . والله أعلم .

إن الحبيبة قد تحرك طـائر	في القلب يهفو نحوها صدّاح
إن الحبيبة لا يزال خيالهـا	في القلب إذ أني لها أرتاح
إن الحبيبة قد سكرت بحبها	حتى لقد هانت على الراح
اني هتفت بها اتسمع هاتفي	خلف الرياح وعطرها فواح
ياحبذا من قد نحب وبينها	في هذه الأحشاء منه جراح
هل ترجِعَنَّ إليك أنت بحبها	أنت الغنى وحُبُّها الأفراح
أنا لا أبالي إنني انا صـابر	والله ينصرني ولست أبـاح
والسيف في كفّي وإني ضارب	أعناق قـوْمٍ إنني ذَبَّـاح
لا تسخروا مني لأن ابصرتمو	ان لا نصير فنصري الفتّاح

ولقدفزعت إلى الكتاب وكان لي في الحشر والشورى به استفتاح

ولقد صبوت بذكرة معسولة منها وحولي أشرعَتْ أرماح

ولقد تفاءل خاطري وأظنني قد آن مني ان يكون نجاح

بالله عودي يا مليحــــة انها ما إن يدانيها لديَّ مِلاح

هي فذة بجبينها وبخدّهــا وبقلتيها وهي بَعْـدُ رَداح

وبروحهـا وإذا أُحدثها في وبها إليّ البشر والإسمـاح

سطعت إليّ بِشارةٌ منها على بُعْد المدى حين النفوس شحاح

خاطبتها بلقــاءةٍ لاقيتها عجبٍ وقد تتزاور الأرواح

ماذا أفاضَ الفيضَ من نفسي من الفرح الذي ألقاه يانْفتــاح

بالله عودي حدّثيني آنسي نفسي بلطفك أنت لي إصلاح

إني وحيد أنت أختي أنت لي في غمرة الخطب البهيم صباح

أنت اللطيفة والبشوش ولونها قد سرني وغرامنا فَضاح

ولقد رأيت أديم خدّك زاهياً يا حبتي علَّ اللقاءَ يُتــاح

— من عجب أن تنظم هذا الشعر ...

-- اجمل شعر .

إني لعمرك لا اكلـف نفسي استحضارها فبها لديّ حضور

إني احس القلب أشرق عندما أبصرتها من ليلِـهِ الديجور

إن المليحة فاعلمَنَّ محبتي دامت لهــا وبها اليّ مصير

ان المليحة قد نقدتُ مَحَبتي نَقْداً لها فإذا المحبَّــةُ نور

ان المحبة حين تَصْدُق ربما تُلْفىَ لدى الرحمن وهي أجور

إني لأرجو ان أقبل ثغرهــا بصفاء نفس إذ إليّ تحور

اني لأعلم أنهـا لي إنني إذ أشتهيها أنتقي وأخير

وتزورني طيفـا وشخصاً مسه من لؤلؤ ومزاجهـا كافور

ولقـد تجوز إلى عرض البحر والصحراء حيث النيـل والعمور

ولقد رأيت البرق يلمع إنــه برق الغيوث بهـا إلي تسير
ولعمرها إني لأهواها ولا أخشـى تقلبها وليس يجور
إني رأيت الصدق في أعماقها بحبتي إن الهـوى مقدور
ثم العلاقة بيننا محفوفـة بالأنس حتى رفدهـا ميسور
وسرقتِ قلبي يا هناة وإنني بك فاعلمي لمتيم مسحور

— أجمل شعر

« سقاك وحيانا بك الله إنما على العيس نور والخدور كمائمه »

كان علي بك الجارم ينشد هذا البيت لأبي الطيب كطرب به .

وكان يقول لهم الاستاذ أحمد ابرهيم بلطة رحمة الله عليـه « دا اقسى ممتحن في الدبلوم » ... وأنشده من لامية أبي العلاء :

طربن للمـع البارق المتعالي ببغداد وَهْناً ما لهن ومالي

وكان بها وباللامية الأخرى وبالعينية التي ودع بها بغداد ، معجباً ، وإنما نبهه على جاهلن الاستاذ أحمد الزين رحمه الله ببعض ما كان يكتب آنئذ في مجله الثقافة .

وأنشد الجارم ، وسأله أهو شاعر ، من رائية يذكر بها أهله

أعد لي ذكريات ممتعـات مثيرات كأحلام العذارى

والعذارى ههنا شيء أثيري مثل أبكار أبي تمام

وقد طرب الجارم لهذا الشعر الواعد

وملعب صبية يَلْـهُون فيه يمثل من ديار الخلد دارا
متى أبصرتهم أبصرت فيهم معاني لا تماثلهم كبارا

وأطيافا متى طافت بقلبي أثار أساه أدمعي الغزارا
فيا صوراً تطل على فؤادي فتحرقه اشتعالاً واستعارا
تمثلكم لي الأحلام ليلا وتبعثكم لي الذكرى نهارا

ونظمت هذه الكلمة في يونية ١٩٤١ ومطلعها

أقول لخافق في الصدر ثارا ودمع في مجاري العين مارا
رويدكما فدونكما ليال أتسطيعان فيهن اصطبارا

وعسى أن تطبع قصائد ما قبل أصداء النيل كلهن في ديوان واحد معاً.

وقال أبو تمام :

ولقد رأيتك والكلام لآلىءٌ تؤم فبِكرٌ في النظام وثيب
فكأن قسا في عكاظ يخطب وكأن ليلى الأخيلية تندب

يعني بكاءها توبة بن الحمير وهو من جيد الشعر

أيا عين بكى توبة بن الحمير بسح كفيض الجدول المتفجر
لتبك عليه من خفاجة نسوة بماء شئون العبرة المتحدر
كأن فتى الفتيان توبة لم يسر بنجد ولم يطلع مع المتغور
فيا تَوْبَ للهيجا ويا تَوْبَ للندى ويا تَوْبَ للمستنبح المتنوِّر
الا ربّ مكروب أجبتَ ونائلٍ بذلْتَ ومعروف لديك ومنكر

وأحسب أبا الطيب المتنبي رحمه الله نظر إلى قول ليلى « فياتوب للهيجا» حيث قال :

فيا شوقِ ما أبقى ويا لي من النوى ويا دمع ما أجرى ويا قلب ما أصبى

وليلى جيدة الشعر جزلته. وقد تعلم إبداع الخنساء . وابـداع جنوب

اخت عمرو ذي الكلب . وقالت القرشية :

وما ليث غَريفٍ ذو أظافير وإقدام
كحِبِّي إذ تلاقوا ووجوه القوم أقرانْ
وانت الطاعن النجلاءَ منها مُزْبِدٌ آن
وقد ترحل بالركب فما تُخْنِي لخُلاّن

وهذا جيد ولا يرعك اختلاف حرف الروي فذلك ماغير من جوهر رنة النغم من شيء . واحسب انه قد ضاع من اشعار النساء شيء حسن كثير . وربما كان سبب ذلك غَيْرَةُ الرجّال منهن وعليهن فأقلّوا من الرواية والتدوين عنهن . وفي النساء بيان ثر وحفاظ على أصالة العواطف والبيان معاً. ودرجة الرجال عليهن هي رئاسة الأسرة وهذا قد يجحف بحظهن من فرَص التبريز ولكن لايجعلهن في حقيقة معاني الانسانية وإمكانياتها دون الرجال... وزَعَمَ « جون دون » أنهن في منزلة ليست بالخير ولا الشر فنحن لانحبهن حقاً ولا نبغضهن وإنما نميل إلى هذه حيناً وإلى تلك حيناً آخر وهن جميعاً لنا لنستمتع بهن .

But they are ours as fruits are ours,
He that but tastes, he that devours,
And he that leaves all, doth as well:
Chang'd loves are but chang'd sorts of meat,
And when he hath the kernel eat,
Who doth not fling away the shell?

وهن لنا مثل الثمار فمن يَذُقْ فذلك أكْلاً سوف يأكلها لَمّا
ومن لا يذقها لم يُلَمْ ثم إنه يُغَيِّر هذا الحُبُّ ماغير اللحما

ومنذا الذي إن يأكل اللبَّ لا يَكُنْ
بغير اطراح القِشْرِ للقشر مهتما

وفي هذا قسوة واقع خشن .

ويعجبني قول يزيد بن الطثرية :

الا حبذا عيناك يا أمَّ شنبل إذا الكحل في جفنيها جال جائله
بنفسي من ان مَرَّ برد بنانه على كبدي كانت شفاءً أنامله
ومن هابني في كل أمرٍ وهبته فلا هو يعطيني ولا أنا سائله

وقال الآخر وهو من شواهد شروح الألفية :

وما علينا إذا ماكنت جارتنا الا يجاورنا إلاك ديار

هذا بيت حلو ... يا حلوة يا غالية. ياأصناف الطيب . يا غصن الأندلس الرطيب . من يقول ان الحب اشتياق جسم إلى جسم ، شيء جنسي فقط ؟ ما هذا النوع الروحي ، الشهود السَّبُّوحي الذي نجده في مجرد التفكير فيك يا مرجانة ؟ ما هذه القوة التي تنبعث في سريرتنا بمجرد مشاهدة الخيوط الأرجوانية كارجوان الجَمْر على حرير خدّك الصافي بشُهْلة كشهلة العسل.... هذان اللونان المختلفان جداً ، صَيَّرْتُهما شيئاً وهَجِيّاً واحداً عندك إلى سويداء قلبي ، هذا هو صعود الحب فوق الدرج ... الدرج الذي يتخطى الجنس إلى الانسان ... تذكرت أوراق الورد لمصطفى صادق الرافعي رضي الله عنه : كان من أهل القلوب الأفذاذ ، أهل الذوق والشوق والحب وفي العربية مبيناً وبقصب السبق قميناً . ومن عجب أن صاحبك الذي كان يتعصب له قد صار بعد شيوعياً وتلك هي الردة بعد إيمان ... وماذا كان يقول د. هـ. لورنس عن سولار بلكسَسْ . كان مجتهداً . إلا أن الإلحاد العميق قصّر به . سبب إلحاده توهمه ان الغاية ، غاية الحياة والوجود وأشواق الحب ، كل ذلك يمكن الوصول إليه من طريق

لذة الجنس الجسدية في هذه الدنيا الفانية . وسبقه أبو تمام وكان أدق ، وكأن القضية التي رام نقضها هي الأصل :

وقالوا نكاح الحب يفسد شكله   وكم نكحوا حباً وليس بفاسد

وكم نكحوا حباً ففسد . هذا متضمن كما ترى . والراجح والله أعلم خلاف ما ذهب إليه د.ه. لورنس. وتعجبني قصته «الفتاة الضائعة» على طول ما فيها واستشعار شعر . وقد زعم « بوثويل » في مذكراته ان الدكتور سمويل جونسون سئل عن ألذ شيء فقال الجماع يا سيدي باللفظة الصريحة ولا يكنى . ومثل مقالة جونسون هذه ربما تُتاح في الأنس . والذي ذهب إليه يصح على وجه نِسْبي كسائر لذات الجسد ، وللنفس منها حد تبشم عنده من كل مزيد . أما لذة الروح فجوهر شفاف عزيز يفلت قبل استدارة البنان حوله للاستيلاء عليه . وها هي ذي قصيدة يا سكرة ...

لماذا هذه الأنوار ؟ هل ولدهنّ الحب فيك أو كيانك كان مشتملاً عليهن « ككمون النار في حجره » . أين أنت . هل تسمعين صوتي. هل تستجيبين ؟ هل فكرت في الحب بجد ... هذا كأنه ضرب من قول أبي تمام :

بكر إذا جردت في حسنها   فكرك دلتك على الصانع

وقررت إغلاق العلاقات ؟ هل أنت سطحية التفكير تزدهيك الدنيا ، واحساسي بالجمال وشدة تذوقيه شغلني عن باطنيات تفكيرك البشري الذي هو تفكير ذات منفردة محدودة جداً مثل أكثر المخلوقات البشرية ؟ وهل هذا القشف في وجنتيك من البكاء أو من وضوء الشتاء ؟ عوذتاك برب السماء . وقد ابتسمت فأضاء القشف بنور أضوأ من سجادة الجبين في مُحيا الصالحين ... إقبالتك بالدنيا ولحظات منك زاد وخلود . ذكرى ذلك أعيش بها . ضياؤك معي الآن .

إليك مني التحيات تحملها النسمات والريحان .

هبت الريح بالنسيم على النيل ولكن ما زال نجمي بعيدا
وألحت عليّ هوج خطوب الدهر إني صارعتهن وحيدا
ولقد ذقت من صنوف بني آدم بغياً وخسةً وجحودا
واعتداءً وساخرين مع العدوان حولي ومن يداوي الحسودا
ودعائي ربي وأرجو من الله على رغم أنفهم أن أسودا
يا حبيب الفؤاد أشرقت الدنيا بجبينك واصطنعت الخلودا
وأرى الشعر رقّ وانساب وانجاب ظلام العدا وشمت الشهودا
والولايات عند قومي حبانيها إلاهي وقد حباني المزيدا
والكرامات والإغارة والكشف وركنا يلقى العدوّ شديدا
يا حبيب الفؤاد يا أجمل الناس جبينا ومقلتين وجيدا
وتراءت لنا ببهجتها حتى صبرنا وكان رأيا سديدا
أنت والله أعذب الناس والكاسات من فيك تثمل الصنديدا

أنت در وعَسْجَد وحسام مُجرّدُ
وفؤادي رهين حُبّك والحسن مفرد
وأرى وجهك المنير على البعد يُوَقدُ
يا أحب الورى جميعا بـه الله يَشْهدُ

غَنّني بالهوى تَغَنّ إن قلبي المشُوقَ حَنّ
وتذكرت شخصها حينما استنّ وارجحنّ
ولإشراق نفسهـــا عندك السكر والدّدَنْ
وسمرنـــا وعيشنا طاب قد أثمر الفنَنْ
أنا ياصاح طائرُ انا في الكون باهرُ
انا قلبي طـَمـَى به الفــنُّ والقلبُ شاعِرُ
ورأيت الضياء في الـ ـبَحْرِ والسبح ماهِرُ

يا صلاتي مع المزيـــع وأدعو وأسجد
وضياءُ الهموم في الـ قلب والشِّعْر مشهد
وسبتني من الجـوا ري الغوالي تـَودُّد
انتِ في ذلك المكا ن وخضراءُ كالذهَب
والشبـــاب الذي على غصنك الناضر التهب
وتجاوزت معدن الـجنس والأنس يا عَطَب ... (أي ياهلاك)
إنك الصندل النفيس وهذا الورى حطب

أنا أهواك ان قلبي بليلى متيم
وهي كأس وخمرة عتقت وهي أنجم

ورأينا ضياءها
وصعدنا سماءها
وهوانا لها قديم
وبها هكذا نهيم

ورأينا فما رأينا على الأفق كوكبا
ولقد قلت ياحبيبة أهلا ومرحبا

انا أبكي مدامعي سَيْل
انا أرنو مضاجعي لَيْل
أنا أبغي الهدى وبي مَيْل

لك يادرة بلا زَيْف
لك يا صلتة وكالسَّيْف

علِّلاني فإنَّ كأس شرابي عندها يا فتاة عودي
صبِّراني قد طال طال عذابي حبذا أنت يا سعودي

والمنى والقصيد
والرجاء الفريد
انت والله عيد وفؤادي سعيد
ووجدت المزيد
إن حدي حديد
وعدوي طريد

قد حَفَرنا لحده هيناك
قد دَفَنّاه وذقنا لماك
وجميع الناس طرا فداك

كيف السبيل إليها ذات الخيال البعيد
تاقت ضلوعي إليها والعيش هذا يبيد
وكل شيء إذا .. غابت فليس يفيد

وكل وجه سواهـــا يا صاح غير جميل
وما لها يا أخي فيمن نراه مثيل

وقد رأينا النسا
هل ترجعن ياعسى

هل ترجعّن يا أخي الحبيبه
الغادة الحسانة العجيبة
ذات المحيا الناضر المحبوبة
والهَيْبة العظيمة الموهوبة
ونعمة الله بها مكسوبة

يا حبذا اشراقها علينا لما تراءت بالسنا إلينا
وأهدت الود كذا إلينا ثم تقول قد نويت البينا

إنا بهــا لربنا اهتدينــا وقد أرَقْنا الخمروارعوينا

وقـد نقوم الليل نتلو الآيا
وما أسد ذاك كان رايا
والله ربي يغفر الخطايا

يا حبذا الجزلة هل تعود ذكرتها ونأيها يئود
وقربها يصفو بـه الوجود وحبها في كبدي يزيـد
وإنها الجنة والخلود وغصنها المنعم الأملود

أوزان شعري تنبري إليها
عهدي بها قد أسدلت يديها
وقبضت ، تبصر ، ساعديها
وروضة الآفاق في عينيها

وروضة القبول
والمنظر الجميل
وهل قرأت إندميون يا خليل
A thing of beauty is a joy for ever

ذلك زمان بعيد
والحمد لله العزيز الحميد

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

قال الآخر :

وكأنَّ سعــــدى إذ تودّعنا وقد اشرأبَّ الدمع أن يَكِفا
رشأٌ تواصين القيانُ بــه حتى عَقَدْنَ بأذْنه شنفا

وتأمل قوله « وقد اشرأبَّ الدمع أن يكفا » ...

السفر قطعة من جهنم . وما اغتربت من دارك إلا كارها . واعلم بأن الحذر من التدبير .

قال الآخر :

يا ليتني كلمت غَيرَ حارج أمَّ صبي قد حبا أو دارج

فسر الشنقيطي رحمه الله قوله : كلمت غَيرَ حارج ، أي تزوجتهـا ، إذ الحَرَجُ الإثمُ ولا يكون الكلام على ما ذهب إليه خالياً من الحرج وهي غير حلال وفي هذا نظر . وعسى ما ذهب إليه أن يكون احوط ومن حادث النساء لا يسلم من أن يصبو كما ذكر صاحب كليلة ودمنة . واحسب بعد أن جُنْـدَ بالم يرد ما ذهب إليه الشنقيطي رحمه الله ولكن أراد ليغيظ الشماخ إذ أم الصبي هذه زوجته

وأحسن الشماخ رحمه الله ما شاء حيث قال :

دارُ الفتاةِ التي كنا نقول لهـــا يا ظَبْيَةً عُطُلا حُسَّانَـةَ الجيد
كأنها وابن أيام تُربّبُه من قرة العينِ مجتابا ديابود
تُدْني الحمامة منها وهي لاهية من يانع الكرم قِنْوانِ العناقيد

أي دار الفتاة التي كنا نقول لها يا ظبية جميلة العنق. وقوله عطلا بضمتين

أي لا قلادة لها ولا تكون الظبية إلا عطلا . يا ظبية حقاً لا تشبيهاً لحسنك وجمال جيدك . وخص الجيد وإن دل قوله عطلا عليه لأنه كما قدمنا أراد معنى أنها ظبية حقاً ، رشاقتها وسحر عينيها ، ونفورها . ثم هذه المرأة وابنها الصغير الذي تحنو عليه من فرحهما ، هي به وهو بها ، كأنهما مجتابا – أي لابسا – ديابود ، وهو ضرب من الثياب الفارسية – أي كأنهما شخصان لابسا ثوبٍ جديد يختالان به يوم زينة . ولاحق ببهجة هذه المرأة بنفسها وطفلها ، إقبالُها على المرآةِ تُدْنيهاإلى شعرها ، لاهية عنه وهو ينظر إليها ، لاهية بفرحة فؤادها إلى صغيرها وإلى الحياة ، ولاهية إليه ايضاً عما تلهو به الأمهات إلى أطفالهن ، راضية عن جمال صورتها وشعرها هذا الأثيث اليانع بالشباب الغزير المتعقد كأنه العناقيد من الكرم ، وكأن عناقيده من كثافتها وخصبها واجتماعها عراجين نَخْل دانية بقطوفها ... فهذا إن شاء الله معنى قوله : قنوان العناقيد أي عناقيده كقنوان النخل . قال تعالى : « ومن النخل من طلعها قنوان دانية » . وقال امرؤ القيس : « أثيث كقنو النخلة المتعثكل » وقال النابغة « كالكرم مال على الدعام المسند» ... فجمع الشماخ هذا كله معاً كما ترى والله أعلم .

هذا وكما جعل فتاته ظبية عطلا عاد فجعلها حمامة والحمامة ذات طوق وذلك خلاف العطل ، وطوقها ههنا حسن جيدها حلية الله التي حلاها ، إن الله على كل شيء قدير . وإنما جعلها حمامة بقوله « تدني الحمامة منها وهي لاهية » . والحمامة المرآة ، وإذا أدنت المرآة منها رأت نفسها ، أو انعكاس نفسها في المرآة .

تذكرت الحمامة في الحمام بمصر وقد نبا شيئاً مقامي

ولم أشك انفرادي كنت فردا لعمر ابيك إذ هم في الظلام

ورب كتيبة وجلاد يوم أحم ويمن منصور أمامي
ومنتصر على الأعداء مني وما قدروه صبري واعتزامي

إن شاء الله تعالى . هذا روى أبي الطيب في كلمته « ملومكما يجل عن الملام » وهو بعد القائل :

وأسري في ظلام الليل وحدي كأني منه في قمر منير

فيكون هو القمر المنير كما كانت صاحبة الشماخ هي حمامة الحمامة .

هذا ،

ويذكرني قول أبي تمام :

بكرٌ إذا جردت في حسنها فكرك دلتك على الصانع

حرص الأستاذ نديم الجسر في كتابه الجيد قصة الإيمان على التماس الأدلة على الصانع الأكبر وكراهيته التسليم بالإيمان بلا دليل عقلي إذ ذلك ربما يفتح باب الضلال لأهل الزيغ والإلحاد حين يتبينون عجز أهل الذكاء عن اقامة حجة قضية السماء .

والتسليم والايمان من القلب ليس معناه العجز عن اقامة برهان يقبله العقل، فما كل ما يقبله العقل يلزمه أن يكون بالطريقة الفلسفية ، ولا كل ما يكون بالطريقة الفلسفية قابِلهُ العقل . وقد فنّد هيوم موضوع السببية وخلص من ذلك إلى الإلحاد . وقبله فنده الغزالي وخلص من ذلك إلى الإيمان .

وكثير من الايمان مخالِطهُ رَحْمَةُ المرء نفسه وطلب الهرب من مواجهة الواقع . والقوة هي الضالة المنشودة . وغايتها اللذات . ولكن ما القوة.لعل العجز الموعز بالهرب هو ايضاً قوة.عدم الاقتناع بالهزيمة المطلقة والتماس بصيص الرجاء من جوف ظلامها بأيما هرب ... ههنا تكمن حقيقة الايمان ... إذ توهم بصيص النور في وسط الظلام — بله رؤيته — ذلك آية أنه موجود .

وما اللذات ...

وهذا الجسد بعد ضعيف

وقضايا الوجد والهيام من الحقائق الكونية الكبرى التي لا تصلح طريقة اسلوب المنطق والجدل للإفصاح عنها . وإنما يفصح عنها أسلوب القلب واسلوب الروح ..

الدعاء والصلاة والشعر والموسيقا وأنواع الايقاع .

وقصة صاحب الناي الذي تبعه الأطفال إلى الغيب رمز إلى قوة صوت الروح . ولأمر ما حصرت القصة تلك القوة في التأثير على الأطفال وعلى الجرذان . أم عمدت إلى الاختصار ليس إلا بحيث لو قد شاء صاحب الناي لجذب معه الكبار إلى الغيب . ومما يتظرف به بعض الناس مسألة استحضار الأرواح . وهي في جوهرها محاولة شيء من التصوف والعبادة، بحيث تستطيع عند الدّفع الحصول على بركة أو كرامة جاهزة مثل حصولك على الشاي والقهوة بوضع المساحيق الجاهزة لذلك كمسحوق الشاي الجاهز

instant tea والقهوة الجاهزة instant coffee

وقال يزيد بن الطثرية :

الا حبذا عيناك يا أمّ شنبل   إذا الكحل في جفنيها جال جائله

عيناك ، هذا السر ، الذي هو اسم الله الاعظم ، منبعث منها ... دلتك على الصانع وكتبنا اسم الله الأعظم على القدح بكسر القاف وسكون الدال وهو في يدي وأنا في النار .

فصارت برداً وسلاما
وبشرى وغلاما
وعجل حنيذ
وثغر وخبز ونبيذ

فكرة الاسم الأعظم تجريد لفكرة الحيوية الدينية الأولى ، التي يسميها

تقدة علوم الاجتماع animism إذ الله المعتقد فيه الربوبية ذاتٌ فوق الذوات، الاتصال بها ممكن وهي من ههنا شيء مختلف كل الاختـــلاف عن كل مراد الفلسفة في هذا الصدد .. واسم الله الأعظم لا محل له في فلسفـــة الأسباب والمسببات وواجب الوجود ونحو ذلك

الالحاد صحراء .

والإيمان الذي هو بحر زاخر أو ماء معين لا بد من ارتباطه بالبشريـة . لذلك ألهت النصارى عيسى فأفسدوا بشريته باللاّبَشَرِيَّةِ التي حاولوه إليها.

والمسلمون يحبون رسول الله ﷺ حباً شديداً وهو حبيب الله وهو بذلك وسيلتهم إليه . وأهل السنة أشد المسلمين حباً للرسول ﷺ إذ ليس يصرفهم عنه تأمل مأساة علي وأبناء البتول رضوان الله عنهم اجمعين ..

وقال كعب بن زهير رضي الله عنه :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول	متيم أثرهـــا لم يُفْدَ مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا	الا أغنُّ غضيض الطرف مكحول

فقدم جمال العينين على سائر ما رأى ... وهذه القصيدة من الروائـع . وسعاد التي في أولها موصوفة صفات انثى وهي كناية عن حضرة الشهود ... وقد بلغها رضي الله عنه ، حين سُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلـع عليه بردته ، البشير النذير .

امست سعاد بأرض لا يبلغها	إلا العتاق النجيبات المراسيل
ولن يبلغها إلا عـــذافِرَةٌ	لها على الأين ارقـــال وتبغيل

وتلك عذافرته أي ناقته القوية التي هي هو .

حَرْفٌ أبوها أخوها من مُهَجنَّة	وعمها خالها قوداء شمليل
كأن أوب ذراعيهـــا إذا عرقت	وقـــد تلَفَّع بالقُورِ العساقيـل
وقال للقوم حاديهم وقـــد جعلت	وُرْقَ الجنادب يركضن الحصى قيلوا

أي كأن حركة رجُوع ذراعيها في حال عرقها وحين تلتف آفاق آكام الصحراء بالسراب اللامع وحين تحتـــد الهاجرة ويقول الحادي للركب الا فانزلوا وقيلوا... كأنها حركة ذراعي امرأة نَـصَف طويلةالجيد قد رُزِئَت ولدها فقامت تبكي وتلطم وشايعها في ذلك ثواكل أمثالها :

شدَّ النهار ذراعا عيطل نَـصَفٍ قامت فجاوبها نُكْدٌ مثاكيل
نوّاحة رِخْوة الضَّبْعَيْنِ ليس لها لما نعى بكرهـا الناعون معقول

كعب أشبُّ من أبيه في هذه اللامية ويوشك أن يكون بها اشعر وكأن زهيراً إنما نظر إلى حال نفسه وابنه إذ يقول :

يُفَضّله إذا اجتهدا عليها تَمامُ السّن منه والذكاء

وفي نسيب اللامية — أعني لامية كعب :

هيفـاء مقبلة عجزاء مـــدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول
تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنـــه منهل بالراح معـــلول

وقوله هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة، موجز واف من السهل الممتنع. والمعنى كثير إلا أن وروده بهذه الصورة نادر .

وقال يزيد بن الطثرية والشيء بالشيء يذكر :

عقيلية أما ملاثُ إزارها فدعصٌ وأما خصرها فبتيلُ
تَقَيَّظ اكنافَ الحمى ويظلها بنعمان من وادي الأراكِ مقيل
فيا خُلّة النفس التي ليس دونها لنا من أخـلاّء الصّفاء خليل
ويا من كتمنا حبّه لم يُطَعْ به عدوٌ ولم يُؤمَنْ عليه دخيل
فديتُك أعدائي كثير وشقتي بعيد وانصاري لديك قليل
وكنت اذا ماجئت جئت بعلةٍ فأفنَيْتُ علاتي فكيف أقول

ويزيد هذا كان من أصحاب الشَّعَر الجَثْلِ وصاحب غَزَل . وقد تعلم أصلحك الله خبر لِمَّته حين جزَّها أخوه ثَوْرٌ بأمر الوالي عقابا له على تشبيبه بحسناء يقال لها وحشية . وفيها يقول :

ألا حبذا عيناك يا أمَّ شَنبَلٍ إذا الكحل في جفنيها جال جائله
فداك من الخُلان كل مُمَزّجٍ تكون لأدنى من يلاقي وسائله
وكنت كأني حين كان كلامها وَدَاعاً وخلي موثقَ العهد حامِلُه
رَهِينٌ بنفس لم تُفَكَّ كُبُوله عن الساق حتى جردالسيف قاتله
فقال دعوني سجدتين وأُرعِدَت حذار الردى أحشاؤه ومفاصله

وليزيد أبيات حسان يرثي بها لمته التي جزها أخوه .. منها قوله :

ترّفق بها يا ثور ليس ثوابها بهذا ولكن غير هذا ثوابها

أي ليس جزاء حسنها ووفرتها ان تجز . ولكن شيئاً سوى هذا هو حقها وهي به أهل وذلك أن تعبث بها البنانات الحسان :

ألا ربما يا ثور قد علَّ وسطها أنامل رَخْصَاتٌ حديثٌ خضابها

وقد يكون أراد هنا بقوله « أنامل رخصات » بعض الأنامل ، أي الأظافر ، يُطِلْنَها ويَخْضِبْنَها بالحناء . وتطويل الأظافر مما ظل على وجه الأيام مما تتجمل به النساء .

وتسلك مِدْري العاج في مُدْلَهِمة إذا لم تُفَرَّج مات غَمّاً صؤابها

والمدلهمة أي المظلمة عنى بها لِمَّته . والصُّؤاب صغار القمل ، وكان فليه من لهو الغزل في الزمان القديم . وقد ذهب به «الدي دي تي» فاستحدث الناس الآن أساليب من اللهو جديدة . ومِدْري العاج أي مشط العاج. وكان العاج غالياً لندرته ومشقة الحصول عليه . فإن يك يزيد كان له مشط عاج

فذلك من غاية الترف . وان يك أراد بمدري العاج أصابع الحسان البيض ، فذلك أغزل وأشد ترفاً

فراح بها ثور ترف كأنهـــا سلاسل درع خبؤها وانسكابها

أي اختفاء لمعها وظهوره والتشبيه جيد . والدرع التي شبه بها لمته حسنة الصنع كريمة المعدن

فأصبح رأسي كالصخيرة أشرفت عليها عقاب ثم طارت عقابهـــا

فهذا الذي حزن له يزيد فعاتب عليه أخاه الحاج ثور ... وكان هـــذا كريماً مسامحاً فيما يبدو . والذي حزن له يزيد من حلق الشعر حتى يصـير الرأس كالصخيرة هو الآن « موضة » فتأمل .

وقد أحسنت زينب بنت الطثرية إذ تقول ترثي أخاها يزيد :

أرى الأثل من وادي العقيق مجاوري
مقيما وقد غالت يزيد غوائله

ويوشك المكان أن يشع بنور من كان فيه حيناً بعد زواله ثم يعفو كل ذلك والله على كل شيء قدير . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ...

هل تسمع موج البحر
أم فؤادك صخر

خلت الأصائل بَعْدَها يا بُعْدَها — أما الديار فقد وقفنا عندها
عودي إلينا قد صبرنا قد طغى — كيد العداة وقد سئمنا كيدها
جودي فدى لك كلّ ذات خميلة — في وجهها حسناء نحمد ودّها
شوقي اليك سما ودمعي قد همى — والحب ضعضع مهجتي بل هدّها
قُولِي هناك وقد سمعنا صوتها — زُرْها وكيف أزَوُرها يا ضِدّها
جاروا وقد ظلمتك قوم قبلهم — وصبرت والأحداث تبلو جهدها
وجدوك كالجبل الذي لا مثله — جبل وتصمد للكوارث صمدها
اني ذكرتك لو محياك الذي — أهوى هنا لتنال نفسي سعدها

بل خلدها

إذ انني بك استريح وارتضي — كل الحياة ولا ابالي فقدها
إذ ان ودّك كنز نفسي والهدى — بك يستطاع وما إليّ اودّها

واجدها واشدّها واحدّها واسدها

وذكرتها والغيث يهمي — وخيال ليلى ملء وهمي
والقوم إذ يبغون ظلمي — بالجور يلتمسون هدمي
ويسوؤهم فضلي وعزمي — حسدوا بقلب الجهل علمي

وبخسة الجبناء حلمي

ودعوت والله الذي فوق السماء أطال حجبي
ويشك في تأييده لي إذ رأوا خذلانه اياي صحبي
ولقد أحس بأنه موف علي بنصره والليل داج
ورأيت بدراً في الدجنة وقده ملء الفجاج

مثل الحريق بدا بعيدا

ووجدتني من ضوئه حقاً سعيدا
ورأيت في نهج النظام اسماً فذكرني بليلى
وأقول للقلب الذي كتم الهوى ويميل ميلا
ميلا إلى ليلى
سال الهوى سيلا
أصغاث احلام وما تجديك اضغاث من الأحلام فاصبر
ما أكثر الحساد حولك أنت فاعرفهم وأمر القوم مدبر
ودعوت بالأسماء بالقدوس بالملك السلام الواحد الباري المصور
ورأيت لكن ما رأيت
ولأنت جاري بيت بيت
والمقلتان خميلتان ووجهها قمر السماء
ولقد اناديها وتسمعني على بعد النداء
وأنا انتظرت فما اتيت
ولقد نهاني العاذلات فما ارعويت
أنت الهامة والحمامة والغلامة والكميت
يا ليت انك ههنا عندي وملء القلب ليت
وتقول بالخد الجميل وومضة الشفتين هيت
يأيها القلب الطروب
هاتيك جارية لعوب
حقا عروب
حقا خلوب
يأيها القلب الجريح بها الا تتوب
انها فاعلم ذنوب
لأنه — أي هواها — يشغلك عن تأمل نور الله . يشغلك عن الشرع .
ولذلك قال ابن الوردي .

اعتزل ذكر الأغاني والغزل

وما هذه الدنيا ؟

وكيف يكون إصلاح الثلث يا صاح . ان المطر أحياناً يحيط الدنيا بأثقال وانقباض . ذلك بأنه يجيء بحيوية ربيعية تهتز لها غصون الأشجار . فيلتمس المرء نشوة من الشباب تستجيب هذه الخصوبة . فمن كان في روق الشباب انفعل بروح من نشاطه ، فشرب الشاي الأحمر والتذه . أو شرب الخمر والتذها . أو صنع صنيع طرفة ذي الطراف . أو عدا ونقز كالحمل السمين . وبعد الشباب كل هذا عسير . وقد يشكو الشيخ الرطوبة والبرد . وفي كتاب النحو أن أبا حنيفة قد أجاز الوضوء بماء الورد .

« زعمتني شيخاً ولست بشيخ   إنما الشيخ من يدب دبيبا »

وصدقت وشهد المسكين على نفسه .

ما ليس بشيخ قد يحن ويحزن وإلى الذكرى يركن وبها يفتن

« اذكرونا مثل ذكرانا لكم   رب ذكرى قربت من نزحا »
« واذكروا صباً إذا غنّى بكم   شرب الدمع وعاف القدحا »

أما القدح الذي فيه ما أحلّ بولص لأصحابه فلا يستحله مسلم . قال الانجليزي للأفندي ولكن قدحاً من البيرة منعش بعد التّنِس وهل هذا حرام؟ وكان ذلك أول الوهن . ثم استجيز الويسكي واخواته في الاحتفالات الدبلوماسية . وشكا السردونة رحمه الله من ذلك في ترجمة حياته أن هذا من ضروب الضيافة التي أدخلها عليهم الاستقلال وما اليه بالأسلوب الحديث أو شيئاً من هذا المجرى .

وأما هذا القدح منكم أيها الأحباء فمترع . كلما عببناه عاد فامتلأ . ومثله يُعب ولا يُمص ، خلافاً بفرط النشوة للنص .

كان الدكتور السمران ، وسعته رحمة العزيز الرحمـان ، يعجبه بعض شعر ابن قميئة ويعجبه بعض دقائق الكتاب مثل قول الخليل بضرورة الحاق هاء السكت ما كان على حرف واحد من أمثال قه وعه . ولا ريب ان هذا مما منع الخليل في تحليله إيقاعات العروض أن يجعل ما يسمى مقطعاً قصيراً وهو نصف السبب الثقيل شيئاً منفرداً قائماً بنفسه ، على أن ذلك للمتأمل في حاق النغم أمر ممكن ، يدلك على ذلك وقوع أمثال الوقص والعقل من الزحـاف فهذان إنما يصيبان حرفاً متحركاً واحداً .

هذا .

وقد ذكر ابن قميئة التمساح وذلك قوله :

« يا ابنة الخير إنما نحن رهن لصروف الأيام بعد الليالي »
« تدرك التـمسَحَ المولـَّع في اللجة والعُصْمَ في رؤوس الجبـال »

وذِكْرُ التمساح في كليلة ودمنة كثير .

والعُصْم التي في رؤوس الجبال من أعسر الظباء صيداً . وذلك قول سويد:

ودَعَتْني برقـاها انهـا تـُنْزِل الأعصم من رأس الـيَفَـعْ

والأراوي تسكن شعف الجبال ويُحْتال عليها فيما ذكروا بالغناء . وما احسب عنترة إلا أراد أن يشبه صاحبته بالأُرْوِيَّة إذ قال :

يا شاة ما قنصٍ لمن حلت له حرمت عليَّ وليتها لم تحرم

وقال :

حلت بأرض الزائرين فأصبحت عَسِراً عليَّ طِلابُكِ ابنة مخرم

وأرض الزائرين هي المأسدة والزائرون هم الذين يزأرون كزئير الأسد .

والأُسْد تسكن السهل المعشب ذا الشجر . وان تلك شاة القنص حلت لهؤلاء وحلت بهم وهي ابنة المخرم أي الأُروية ابنة مخارم الجبال ، فكيف إلى احتبالها وصيدها بهذا الغناء .

هلا سألت الخيل يابنة مالك ان كنت جاهلة بما لم تعلمي
يُخَبِّرْكِ من شهد الوقيعة انني اغشى الوغى وأعف عند المغنم

هذا . وأول قول عمرو بن قميئة الذي تقدم :

إنّ قلبي عَنْ تكتم غير سالي

وتُكْتَم هذه بصيغة المبني للمجهول . وهو اسمها واجتمعت فيه علتان مع العلمية مانعتان من الصرف ، التأنيث وزنة الفعل . ومع هذا صرفها ابن قميئة من أجل النغم وترتيل الكلام .

« ان قلبي عن تكتم غير سالي وعجيب تقلب الأحوال »
وعجيب صبري على حادث الدهر وهل يبلغ المدى أمثالي
واحتمالي كيد الصغار بقلب عبقري مجرب حمّال
وصلاتي أدعو وهل يسمع الله وأُلْفىَ به شديد المحال
والنفاق الذي رأيت كثير ليت شعري متى يكون مجالي

غني غنني فذاك هروبي[1]
نغمي قَيْنَتي ونفسي طروبي
ودموعي خمري وحزني كوبي
ولدى الله بانتصار نصيبي

(١) اعلم ان الهروب لم يرد سماعاً ولكنه فعل لازم دال على حركة فالفعول أشبه به والمحفوظ : الهرب بالتحريك .

طالما قد نظرت والبرق لاحا
وشَممنا من نحوك التفاحا
وإليها طَيري على البعد صاحا
وأجابت ونرقب الافراحـا

هربا هكذا واين وأينا قد دعتنا ونحن قد لبينا

طفت سبعاً بالبيت حجاً وعمرة
ثم خاضت نفسي من العيش غمرة
أنت يا مشتهاة أنـْس وخمرة
وتذكرت عطرها وهو خُمْرَه
وعلى الرأس خصلتان وخِمْرة

ليت شعرى حبيبتي هل تعود
حلوة الروح غصنها أملود
لا كمثل التي أحب الغيد
إنها التبر خالصاً والحديد
فيه بأس شديد
ونضال عتيد

تملقوا ما شاءوا
فأين فاءوا
وبخزي باءوا

حبتكم ياجمال لفؤادي مجال
ولدينا على البعـ ـد من رؤاكم خيال
ثم ما بين أروا حنا اللطاف وصال

هل تحسين قربي هل وجدت اشتياقي

هل تحسين دمعي عندكم واحتراقي
خبريني بما ذقـ ـت من طعوم الفراق
قد رأيناك لما أن تراءت بساق
واشتهيناك حتى باللمى والعنـــاق

والعدى ويحهم حاربونا
بالنوى عـــذبونا
حسدوا حسنكم غربونا

هل تعود الرداح
بالهوى والسماح
ذلك البرق لاح
من وراء البطاح

دع الشعر ان الشعر ليس بنافع وما عنك كَيْدَ الحاسدين بدافع
وكم بضياء العبقريـــة يا فتى كويت أناساً في سواء الأضالع
وأعطاك رب العرش نصراً وسورة تطول بها فوق الجبال الفوارع
وزارتك ليـــلى فارتقبها فانها تعود باسعاد وأيمن طالــع
ويُلقَى العدامن بعدما سخروا بنا دماؤهم مسفوحـــة في الشوارع

آمين آمين آمين

دعونا يارب فاستجب
وحمانا قد انتهب
وصبرنا وجار جوراً علينا أولو الرِّيَبْ
وسئمنا ومن يطل صبره يَسأمِ الدّأبْ
قد جأرنا وقد دعوناك فاستجب

أعطنا ، هذه الأكف مددنا ونجتديك

لا تخيب رجاءنا إذ دعونا دعاءنا
ولباس التقى جعلنا كساءنا
وبطه شفيعنا نرتجيك نَجْتَدِيك

وبدمع غزير
وبقلب كسير
ورجاء كبير
إن مكر العدا يبور
ورماداً يحور

« وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع »

تذكرناك يا حسناء والاضلاع مجروحة
وقد برّحت الأحزان بالعاشق تبريحة
وندعو الله والأصوات بالإخْبَاتِ مبحوحة
ولو شاء لقد روّح عنا الله ترويحة
وأعطانا لواء النصر والأعداء مذبوحة
تذكرناك يا ليلى
وناديناك يا ليلى

وندعو الله إذ مالت بنا جدراننا ميلا
ونخشى أنها تسقط إذ حاربت السيلا

واغرورق حلقه بالدموع، شمشون الجبار حين رأى ما يصنع القماء الصغار الذين جيء بهم إلى المعبد بأيديهم الزنابير والنمل ليعذبوه . والذهبي سمي أبا الطيب في تذكرة الحفاظ حامل لواء الشعراء

ونظرت بظبية كانت مذعورة

أين أين الشباب ...

غنني غنني يا حادي   مُنفطرٌ بالأسى فؤادي
«سيروا معاً إنما ميعادكم   يوم الثلاثاء بطن الوادي»
وقد تذكرت أهل ودي   وحن قلبي إلى بلادي
وذكرتنيك يا مُفَدًّا   ة كل خمصانة الحشى
وكل حوراء كالرشا
والله ربي سيجمع الشمل   يجمع الشمل إن يشا
والحب لما قلنا كتمناه   سِرُّه هكذا فشا
والنغم الحلو يا حبيب الفؤاد مثلي به انتشى

أسهرني الهمّ والحَزَنْ   ووجهكم كان لي حَسَنْ
وقد تمنيتكم وأنتم   عافية الروح والبَدَنْ
علمت لما أتى يود   ع أن الفؤاد حنّ

قد طال هذا الفراق طولا
وكان ريب الزمان غولا
وحجل أسماء لن يحولا   وشَخْصُها الراجح أرجحَنّ

والدمع من عينك انحَدَر
ووجه ذَلفاءَ كالقمر
ومقلتاهـا تمازجان الشغاف في القلب بالنَظَرْ
ورب مثلي على الهوى   يُؤمّل الوصل قد صبر

« وَلَمَن صَبَر وغَفَر إن ذلك لمن عزم الأمور »

صدق الله العظيم . وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

تـــذكرت حبيب القلب فالتاع الفؤاد
وقد قلت من الوجـــد متى الحبّ يعـــاد

وقد نُحْتُ من البين كما ناح الحمام
وما خلت على حبك يا ليلى الام

وآثَرْتُ سبيل الحزم والدنيا تزول
وصـــبر العارِف الله على البين جميل

كما كان على يوسف يعقوب صبورا
ونيران الهوى في القلب تُعطِي الروح نورا

تذكرتك يا حبّة قَلبِي فطربت
ومن كاساتك الخمرية اللون شربت

وعيناك هما الكوكب والبحر المحيط
وقد مال بنا ، يا حبذا أنتِ ، الغبيط

تـــذكرناك في مصر وفي الخرطوم ذكرا
وقد يُلْفَى أدكار الخود في الأكوان عطرا

تذكرناك يا عَذْبَةُ والحب سعادةْ
لك الحسنى من العهد جزاءً وزيادة

وأبصرت امتداد الجـــدول الفضي لاحا
وكادت تغرب الشمس وعرف الخود فاحا

ولما ابتسمت خصتك بالود سعاد
وقد طاب لنا بالحب يا ليلى الجهاد

وقول امرىء القيس

تقول وقد مال الغبيط بنا معا عقرتبعيري يا امرأ القيس فانزل
فقلت لها سيري وأرخي زمامه ولا تبعديني من جناك المعلـــل

يُروَى بعده :

دعي البكر لا ترثي له من ردافنا وهاتي أذيقينا جَنَاةَ السَّفرجل

وينبغي أن تكون السفرجل قد وردت في شعر امرىء القيس حتى يتملق بها النحويون كل هذا التملق . وقال الخليل أنه لا جمع لها ولو كان لجمعتهـــا العرب على « سفارجل » ، فتأمل . والبيت حسن طيب الرنين . إلا أنه ليس من نغم إيقاع المعلقة . والإيقاع الذي تتحد بـــه القصيدة ، جسم نَغَمِي نورانيّ روحاني رنّات الوزن ، وهـــذه تكون له كساءً كما الألفاظ لهنّ — أي للرنات — كساءٌ ، وتَعَبُ الشاعرُ حين يتعب في التماس اللفظ الجيـــد الملائم أحسب سببه هو طلبه التوفيق بين الذي قد وقع عند ضمير نفسه من بيان الإيقاع الأول والذي يَهُمُّ به من بيان الكلام المألوف الصارح المعنى .

وقول امرىء القيس « فقلت لها سيري وأرخي زمامه » مغن من جهتي الإيقاع والمعنى الظاهر عن « دعي البكر لا ترثى له من ردافنا » وقوله « لا ترثي له من ردافنا » لا يخلو من كلال . وقوله « وهـــاتي أذيقينا جناة السفرجل » حلو حسن ، وفيه تهتك لينّ لا أحسبه من مذهب امرىء القيس

على ضلاله . ولعل صاحب هذا الشطر « وهاتي أذيقينا جناة السفرجل» إنما رام به شرحا وتفريعا من قول الشاعر : « ولا تبعديني من جناك المعلل » والله أعلم .

وفي ديوان بانات رامة :

وما جنينا جناةً من سفرجلةٍ بها نتيه على الدنيا وننتصر

وما السفرجلة إلا الحبيبة المشتهاة

وأنشدك قصيدة صوفية في خيف منى . وتذكرت ليلة المادحين وديوان الشيخ والقصيدة النونية المليحة المشطرة .

إنّ لمع البرق من خَيْف منى جدّد الوجد وهاج الحزنا
كلما طرز أثواب الدُّجى لمْعُه أحرمَ عيني الوسنا
صلوات الله تغشى دائماً ذلك الوجه الكريم الحسنا

الذي صحّ عندي أن أبا الطيب رحمه الله تعالى قد بدأ شاعراً ضخما ، وَهُوَ بعد القائل :

ولو لم تكوني بنت أكرم والد لكان أباكِ الضخم كَوْنُكِ لي أما

بدأ في سماء الشعر مُحَلِّقاً ، وفي عرينه ليثاً هزبراً باسلاً ، وبين آفاقه العظام صخرة لا تزاحم :

« أنا صخرة الوادي إذا ما زوحمت وإذا نطقت فإنني الجوزاء
واذا خَفِيتُ على الغبي فعاذر ألا تراني مقلة عمياء »

وهو القائل :

« انعم ولذّ فللأمورِ أواخرٌ أبداً إذا كانت لهن أوائل

ما نال أهْلُ الجـــاهلية كلهم شعري ولاسمعت بسِحريَ بابل»

وهو القائل :

« هام الفؤاد بأعرابية سكنت بيتاً من القلب لم تَمدُد له طنبا
مظلومـــة القد في تشبيهه غصنا مظلومة الريق في تشبيهه ضربا
بيضاء تُطْمِعُ في ما تحت حلتها وَعزّ ذلك مطلوبا اذا طلبــا
كأنها الشمس يُعْيِي كف قابضه شُعاعها ويراهُ الطرف مقتربا »

ولو لم يعد إبداعه أمثال هذا وهو كثير منذ أوائل مـا وصلنا من كلم صباه لكان بين المحدثين في طبقات الشعراء عظيما جداً ...

لـكان مثلاً مع البحتري وأبي تمام. وإذن لحرمنا جماعة ممن استعانوا بشعره

بعد أن وضح أمره وبهر مِنْ أمثـــالِ الشريف الرضي وأبي العـــلاء المعري ...

كفاتك ودخول الكاف منقصة كالشمس قلت وما للشمس أمثال

ممن كانت محاكاة أبي الطيب والتفريع عن ذلك لهم مذهباً . ولقـد كان شعر أبي الطيب قبل عهد السيفيات ضربين ، ما حلّق فيه كقوله :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مَخَافة فَقْرٍ فالذي صنع الفقر

وقوله :

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني إن النفيس غريب حيثما كانـــا
محسد الفضل مكذوبٌ على أثري ألقى الكميَّ ويلقاني إذا حانـــا

وقوله :

وإنمـــا الناس بالملوك ولا تصلح عُرْبٌ ملوكهـــا عجم

يستخشن الخز حـين يلمسه   وكان يُبْرَى بظفره القـلم

وقوله :

فيابن كَرَوَّس يا نِصْفَ أعمى   وان تَفْخَرْ فيا نصف البصير
تُعادِينا لأنا غَيْرُ لُكْنٍ   وتحسدنا لأنا غـير عُور
فلو كنت امرءاً يهجى هجونـا   ولكن ضـاق فِتْرٌ عن مسير

والضرب الثاني ما كان منه رياضةَ قَوْلٍ تدفعه إليه ملكة الفن ودأبُ العبقرية . وكان الغرض من هذه الرياضة والدُّربة انيتمكن الشاعر المستكن في نفس أبي الطيب من السيطرة على بيانه كل السيطرة . وذلك إنمـا يتأتى بنوع من عزل ذاتية الفنان المنفعل عن أرب انفعاله ، وهـدف تعبيره حتى يستطيع أن ينظر إليه في نوع من بُعْدٍ بإشراف مُهَيْمِنٍ مطمئن .

ولعل مذهب القصيدة المادحة أقوى في تدريب الملكة من مـذهب الفن الدرامي ، مثلا.ذلك بأن مذهب الفن الدرامي يتطلب عن الشاعر تَقَمُصَ ما يتخيله أو يتوهم تصوره من أصناف المواقف والشخصيات. ومذهبقصيدة المدح يتطلب هَتْكَ حجاب البعد عن الممدوح للجلوس معه في مرتبة واحدة يَسُرُّهُ فيها الشاعرُ برأيِ الناسِ الحَسَنِ فيه كان هـذا أمراً غير ذي عسر كبير على الجاهلي المتمكن مثل زهير بن أبي سلمى لأنه كان المجتمع نفسه يعين على هتك حجاب البعد المرتبي بينه وبين الممدوح . وظل شيء من ذلك هو الغالب أكثر أيام بني أمية . ولذلك استطاع جرير أن يقول :

دعا الحجاج مثل دعاء نوح   فأسمع ذا المعارج فاستجابا

وأن يقول :

من سدّ مطّلع النفاق عليهم   أم من يصول كصولة الحجّاج
أم من يغار على النساء حفيظـة   إذ لا يثقن بغـيرة الأزواج

واستطاع ابن قيس ان يقول لعبد العزيز بن مروان :

أمك بيضاء من قضاعة في الـ بيت الذي يُستَظل في طنبه

واعلم اصلحك الله ان هذا ليس ببداوة . فكلا عبدالله بن قيس وعبد العزيز بن مروان كان حضرياً قديماً في الحضارة من أهل القرى من أم القرى . ولقد لاقى أوائل المحدثين عسراً ذلله لهم أبو معاذ بسطوة علمه وضَمرَرِه ، وما ذكروا من شعوبيته وزندقته وقَدَرِه ، إذ ذلك كان مما يكسر حجاب هيبة المرتبه بينه وبين الأمير العباسي القصي عن رعيته بنسبه وحسبه ، وصولة طغيانه ورَهَبُوتِ جبروته . ثم أبو نواس بمنادمته وذكائه وفضله ، على ما خالط ذلك من ذلة وزَلـَّةِ واسفاف بعض الأحيان . ثم أبو تمام بتعويله على مقارعة السيف بالقلم وأهْل الدرع والسنان بَلـْوذِعيَّاتِ الأذهان . وقد كان البحتري رحمه الله شيئاً بين النديم وذي اللب الحكيم ، ومُنِيِ فَضْلُه الرائع بَمشَابِهَ مما مُنِيِ به فضل أبي نواس من الضيم ، وعند كليهما رنة الجرس وانطلاقات الفؤاد .

وقد هتك أبو الطيب بقوة شخصيته حجاب الهيبة والمرتبة بينه وبين السلاطين . وافادته فترة معالجة المدح دُرْبَةً على ذلك . ثم كان بعد يحتاج إلى هذه الدربة لتطيعه المعاني التي تنقاد للفنان حين يَنْفَصِمُ عن ذاتية نفسه وذاتية الحُجُب بينه وبين الناس . حينما يصل إلى منزلة الإشراف المهيمن المطمئن .

ولقد كانت العرب لا تعرف هذا الشيء الذي يقولون له الآن « الوحدة العضوية » (الذين جعلوا القرآن عضين) .. ذلك بأن العرب لم يقرأوا أرسطوطاليس ليتعلموا منه نقد الشعر ، كما فعل الأفرنج من بعد في حرصهم على أن ينتسبوا إلى اليونان والروم وأن ينسبوا هؤلاء إلى انفسهم ويدعو إرثهم دون سواهم من البشر .

وما كان أرسطوطاليس قد كتب « بوطيقاه » لنـا أو لهم ولكن تعقيباً على فن الدرامة اليوناني القديم ، وقد تعمد تـَجَاوُزَ أصنافٍ كثيرة من أشعار قومه فلم يعتمدها بالنقد والتحليل فكيف باشعار سواهم. وليس ما صدق على ما حلله من الدرامة اليونانية بصادق ضربة لازم على غيرها من ضروب فنون الشعر .

والقصيدة العربية فن من الشعر لم يكن لأرسطوطاليس به علم ، قـلَّ أو كـَثـُر – وإنما كان علمه عند العرب الأولين ، ثم حيز ذلـــك الى الخليل بن أحمد وخَلـَفٍ وطبقتهما ...

وقد كان الجاحظ وابن قتيبة والمبرد والقـالي والمعري وابن رشيق وابن المعتز أعلم به من أصناف من يحسبون أنهم به علماء من مقلدي الفكر الافرنجي من معاصرينا ... « كأسِيفَةٍ فـَخَرت بِحِدْجِ حصان » .

وقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

وما ضر العرب شيئاً أنها لم تعرف هذا الذي يقال انه سماه أرسطوطاليس « الوحدة العضوية » .

وإنما كانت العرب تعرف شيئاً يقال له « نـَفـَسُ الشاعر » بتحريك النون والفاء .... وهو الجسم النغمي النوري الروحي الذي يميز بين كامـل عنترة وكامل لبيد وطويل امرىءالقيس وطويلي طرفة وزهير..لا بل بين طويل:

سمالك شوق بعدمـا كان اقصرا

وطويل :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

ذلك بأن القصيدة تأتلف عند الشاعر العربي نـَغـَماً خالصا قبل أن تصير

وزناً وقبل أن تصير كلمات كما قدمنا منذ حين . ولقد ذكر محمد بن يزيد المبرد وقد قدّمنا لك بعض رأيه في هذا الصدد من قبلُ ، (راجع الكامل، ٢ — ١٢٨) ... ان فصحاء العرب ينشدون كثيراً

لَسَعْدُ بن الضِّباب إذا غدا أحبُّ الينا منكفافَرَسٍ حَمِرْ

يحذفون « لعمري » التي في أول البيت اعتماداً على تقدير الايقاع كما ترى. وإنما يمكن تقدير الإيقاع لكونه نغما في النفس قبل أن يصير نقرات ودقات والله تعالى أعلم .

ولقد كان َنفَسُ أبي الطيب رائعاً في السيفيات . إلا أن بعض روائعه ربما تجد فيها بعض المدح كأنه مقحم . خذ قصيدته « فديناك من ربع وإن زدتنا كَربا » .

ألا تحس قوله :

فرُبَّ غلامٍ عَلـَّم المجد نفسه كتعليم سيف الدولة الطـَّعن والضّربا

كأنه مقحم وسائر الأبيات بعده . والذي يشعرنا أنها مقحمة كون أن رنة أنغامها لا تلائم نفس ما قبلها . وليس الأمر متعلقاً بمجرد اختلاف ظاهر الأغراض التي تناولها الأداء ... فما شيء مثلا بأشد تبايناً من حيث ظاهر المعنى من قوْلي أمرىءِ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجَلِ بصبح وما الاصباح منك بأمثَل
كأن السباع فيه عرقى عَشيَّة بأرجائه القصوى أنابيشُ عُنصل

ومع هذا فاتحاد النفس يقبل انشادك هذا البيت بعد بيت الليل من غير أن تُحِس في نفس النغم كبيرَ نُبُوٍّ

ولعل أبا الطيب إنما قال بادىء الأمر :

ولست أبالي بعد إدراكي العلى أكان تراثاً ما تناولت أم كسبا
أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه حريصاً عليها مستهاما بها صبا

إلى آخر القصيدة

وما يبدو لنا من استقامة أكثر ما قاله أبو الطيب من قوله :

فرب غـــلام علم المجـــد نفسه كتعليم سيف الدولة الطعن والضربا

إلى قوله :

فخلي العذارى والبطاريق والقرى وشعث النصارى والقرابين والصلبا

لعله يصلح شاهداً على ما أفادته إياه الدُربة قبل عهد سيف الدولة .

وقصائد أبي الطيب الجياد في كافور مستويات متلئبات النفس على روح واحد . وأحسب ان أبا الطيب عند سيف الدولة كان لا ينفك خلانه يشيرون عليه أن يذكر الأمير هنا وألا يغفل عن ذكره هناك . بل إنا لنعلم أن سيف الدولة لم يهش الى القصيدة الرائعة .

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجرّ عوالينا ومجرى السوابق

فاحتاج أبو الطيب إلى أن يشفعها بالرائية .

طوال قنا تُطاعِنُها قصار

وهي حسنة

وقد فطن الصاحب بن عباد الى ضعف البيت .

أغركم طول الجيوش وعرضها عَلِيٌّ شروب للجيوش أكول

والبيت :

وإن تكن الدولات قسماً فإنها لمن ورد الموت الزُؤام تدول

ولولا نحو هذه الاضافات لـكانت اللامية « ليالي بعد الظاعنين شكول » كلها خالصة في قصة الظعينة التي لقيها الشاعر بدرب القلة والقتـــال الذي شهده وهو مُنْتَش بهذا اللقاء .

تمل ّ الحصون الشم طول نزالنا فتلقي إلينا أهلهـــا وتزول
سوى وجع الحساد داو فانــه إذا حل ّ في قلب فليس يحول

واقرأ بائية أبي الطيب :

أغالب فيــك الشوق والشوق أغلب وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

والأخرى :

من الجآذر في زى الأعاريب حمر الحلى والمطايا والجلابيب

والدالية :

أود من الايام مـــا لا توده وأشكو إليها بيننا وهي جنده

كل هذا الشعر لاكلفة فيه ، ولا حجاب بين الشاعر وممدوحه . وقدجعل أبو الطيب المودة على مستوى الأوج الفكري هي الرابطة .

ثم قد بلغ أبو الطيب من الشعر ذروة لا تنال في العضديات . ولقـد قال في التونية « مغاني الشعب » .

له علـّمت نفسي القول فيهم كتعليم الطراد بـلا سنان

أي ما سبق من تجويدي كان تدريباً حتى استقام لي البيان كل الاستقامة الآن . وأعطاني الشعر من قياده ما لم يعطه أحد .

أبا شجاع بفارس عضد الدو لة فـنـّا خسرو شهشاهـــا

أساميا لم تزده معرفـــة وإنمـا لذةً ذكرناهـــا
تقود مستحسن الكلام لنـــا كما تقود السحاب عظماهـــا

وهو بعد الغيث .

أبو الطيب في هذه الهائية وفي النونية مرتفع فوق نفسه وفوق ان يكون بينه وبين ممدوحة حال حجاب . هو في مستوى الصديقين وأهـل الكشف بالاشراف السامي المهيمن المطمئن ، الذي إنما كان يعطـــاه عباقرة الشعراء بالالهام من عند الله الصمد العلام . لهذا سماه الناس المتنبي ، حتى بعد أن ترك الخروج على السلطـان وعوّل على القلم . ألم يلم نفسه على هـذا التعويل حين قال :

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي المجـد للسيف ليس المجـد للعلم
من اقتضى بسوى الهندي حاجته أجاب كل سؤال عن هـل بلم

ولقد كان « المتنبي » نبزا نبزه به مخالفوه . ولكنه شاع واستقر لما كان يلابسه من معنى المدح والاعتراف والاعجاب . ولقد أريد به أن يكون عيباً فكان حلية .

ولقـد انتقم أبوالطيب لأنكسار أبي نواس، وضَرَرِ بشار، وتمتمة حبيب وبذاذة أبي عبادة ، ورعونة الرومي ، بهذه الإشراقة المهيمنة من عـل ، أشرفها على ابن كيغلغ وبـدر بن عمار . . . وعلى سيف الدولة بن حمدان .

وما انتفاع أخي الدنيـا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظـلم

بقوة الشخصية المباشرة ...

وعلى كافور باللقاء البعيد وانطلاق عقـدات النـّفْس والنـّفَس والحـلاوة الرقيقة المنبعثة من الحزن والانفصـام شيئا عن مستوى سائر أصنـاف الناس

بتَفَرُّد الفن ... انفصام من سنخ غربة الفكر التي أحسها علقمة الفحــل في قصيدتَيْهِ« سمطي الدهر » .

إلا انه لا يخالطه أدنى وحشة . وانفصام من سنخ تفرد كافور بالسلطان وهو أسود خصي مهيب مخشى ، إلا أنه لاتخالطه ضعة .

ولقد أشرف على بغداد ومن كانوا بها من علماء وصناديد وفلاسفة وكتاب وطواويس وضغابيس .

وعلى عضد الدولة بالعلم المحض والفكرالمحض والشعر المحض.وابتعاد الفنان المتأله الواثق بنفسه الدقيق الذي هو «حكم يقضي فلا ينقض ما يقضي » أو كا قال الأعشى .

لا يقبل الرشوة في حكمه ولا يبالي غَبَن الخـاسر

ولم يحسن أبو الطيب مدح ابن العميد مع اشرافه المسيطر القاهر من فوقــه بلا ريب لأنه كانت بينهما حجب كثيفة كلهن من جانب أبي الطيب لما أحسه من حسد ابن العميد له وهو القائل :

سوى وجع الحساد داو فإنه إذا حل في قلب فليس يحول

وما مدحه أبو الطيب الا اتقاءً لشره حتى يصل إلى فارس . وقــد كان ابن العميد لا يملك إلا أن يحسد أبا الطيب . لأنه هو كان ينسب إليه مِثْلُ بيان الجاحظ وابداع عبد الحميد وقد كان يعلم عند نفسه وكان أهــل الفضل أيضاً يعلمون أنه ليس بشيء بالقياس إلى الذي قال :

انا الذي نظر الأعمى إلى أدبي واسمعت كلماتي من بـــه صمم

فنحو هذا وحده من دواعي الحسد كافٍ ، بحسب ما ذكره الإمام حجة الإسلام الغزالي رضي الله عنه في بعض ربــع المهلكات ، والله تعالى اعلم .

قال أبو الطيب :

مغاني الشعب طيبا في المغاني بمنزلة الربيع من الزمـان
ولكن الفتى العربي فيهـا غريب الوجه واليد واللسان

وهو الفتى العربي. ولكن أبا الطيب كما ترى جرّد من ذات نفسه شخصاً آخر ونظر إلى نفسه بعين الفنان الرقيب المسيطر المهيمن ... أنت يا فتى ههنا غريب ... ولا يريد الرثاء لنفسه ولكن الملاحظة والمراقبة والشهود .

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمـان

ثم صفة الخيل وإرم ذات العماد الخضراء ذات الأشربة الواقفات بلا أوان. أين دمشق حيث الأحباب والثريد والجفان الصينية .

شامية طالما خلوت بها تبصر في ناظري محياها
وقد رأيت الملوك قاطبة وسرت حتى رأيت مولاها

ان شئت فسلاسة وكلام آخذ بعضه برقاب بعض . وان شئت فهيمنة فنان . أبو تمام بايمانه بالفكر مهّد لأبي الطيب طريق الصولة به .

وأبو نواس هزل جاداً باسم الفكر ليتقي صولة سيف هرون الرشيد .

« أربع البلى إن الخشوع لبادي عليك وإني لم أخنك ودادي »
« سلام على الدنيا إذا ما رحلتمو بني برمك من رائحين وغادي »
« إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا فأيّ فتى بعد الخصيب تزور »
« فتى يبتغي حسن الثناء بماله ويعلم ان الدائرات تـدور »

وبَشّار تزندق باسم الفكر

خُلِقْت على ما فيّ غير مخير هواي ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد وقصر علمي ان انال المغيبا

وتكلم في السياسة الخطرة .

تقسم كسرى رهطه بسيوفهم · وأضحى أبو العباس أحلام نائم
ومروان قد دارت على رأسه الرحا · وكان لما أجرمت نزر الجرائم
فوم وَزَراً ينجيك يا بن سلامة · فلست بناج من مضيم وضائم
على الملك الجبار يقتحم الردى · ويفجأه في المـأزق المتلاحم

وأبو تمام طال بالفكر إلى لقاء المعتصم ولم يَخْلُ من حسده ابن الزيات وابن أبي دؤاد والحسن بن رجاء ، وقد ذكروا عن هذا انه افتخر بانه قد هم بقتله لأنه وَجَدَهُ تارك الصلاة .... المنافق.... وقد زعموا انه نهض واقفاً اكراماً لسماعه شعر أبي تمام فيه حيث يقول :

لما وردنا ساحة الحسن انقضى · عنا تعجرف دولة الأمحـال

ونادم البحتري المتوكل واحتمل سماجاته ، وكان أضعف القوم، ومع هذا كانت تحيط به هالة الفكر فتكسبه القدس في سماء الشعر .

جاشوا فذاك الغَوْر منهم سائل · دفعا وذاك النجد منهم معشب
يتسرعون إلى الحتوف كأنها · وَفْرٌ بأرض عـدوهم يتنهب
ما إنَ ترى إلا توقُّدَ كوكب · في قَـوْنَسٍ قدغاب فيه كوكب
وعلى الأمير ابي الحسين سكينة · في الروع يسلكها الهزبر الأغلب
ولحربة الإسلام حين يهزها · هَوْل يراع له النّفاق ويرعب

وقال أبو الطيب :

وقفت على دار الحبيب فحمحمت · جوادي وهل تشجو الجياد المعاهد
وما تُنْكِرُ الدهماء من رسم منزل · سقتها ضريب الشول فيه الولائد
خليلي إني لا أرى غير شاعر · فلِمْ منهم الدعوى ومني القصائد

فإنك شاعر والشاعر الحق صادق والصدق يكرهه الكاذب.

عجب مُعَاداةُ الناس بعضهم بعضاً على الشعر . وقـد ركبت في الناس نزوات الغضب وحب القتال :

إنمـــا أنفس الأنيس سباعٌ يتفارسن جهرة واغتيـــالا
من أطاق التماس شيء غلاباً واغتصـاباً لم يلتمسه سؤالا

والنساء حلوى وسلوى ولاسيما في أوقات البلوى . ومن أرخم وأنعم ما خط قلم كاتب آهة مدام دي رينال في سجن جوليان سوريـــل ، وأخريات القصة وكثير من مشاهد غرامها كأنما ينظر إلى مجنون ليلى . . وقـــد ترجم ستاندال خبر وضاح وأم البنين فلا يستبعد أن يكون قـــد اطلع من أخبار محبي العرب على شيء كثير . .

والصدق يحبه الناس في أعماقهم ويخافونه . والفن الذي يراد للفكاهة ربما يصير سلاح قتال . والحب تستفيد منه الروح قوة وينتصر على الموت . قال ستاندال إن مدام دي رينال لم تحاول الانتحار ولكنها ماتت بعد ثلاثة أيام من موت حبيبها وهي تعانق أطفالها وكانت تحبهم . أرادت لتلقاه في العالم الآخر ودعت أطفالها إذا كان ذلك لديها آثر...هذا هو تأويل النهاية البارعة التي ختم بها ذلك الأديب خبر مجنونه وليلاه .

وقال امرؤ القيس :

فبتنا تصد الوحش عنا كأننا قتيلان لم يعلم لنا الناس مصرعا
تصد عن المأثور بيني وبينهـا وتُـدْني علي السابريّ المضلعا
إذا أخذتها هزةالروعأمسكت بمنكب مقدام على الهول أروعا

— ليس هذا بنفس امرىء القيس .

— نعم صدقت ، اللهم إلا قوله «فبتنا تَصُدُّ الوحش عنا » وسائر البيت

كما ترى حشو لا يكون مثله عند امرىء القيس . ولعله كانت لامرىء القيس قصيدة من هذا الروي وإياها جارى ابن أبي ربيعة في كلمته « ألم تسأل الأطلال والمتربعا » والله تعالى أعلم .

ـ نحن الآن في القرن العشرين وهاك اقرئي شعري الغَزِل :

ـ بديع

وسافرت الحبيبة بالقطر السريعْ
وانظرْ للطبيعهْ في زمن الربيع
وأمـا من تراهم ففي حكم القطيع
تعَالي يا حبيبَهْ فإنـَّك الوُجُـود

إن الله لَمَوْجودْ

ـ ما البرهان

ـ أنت البرهان

هذه الشفافية التي تتجاوز نفسك إلى نفسي . إن صح هـذا على مستوانا فأي شيء نحن ؟

ـ نحن كلمة النور الأكبر قال لنا كن فيكون

« فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون »

ـ نظرة يا سوار

يا نضار
يا هوى النفس يا نزهةً وانتصار
يا شعار
يا ضياء الدياجي ونيلَ القفار

حبذا يَوم أن شاهدت مهجتي جنتي
روح روحي وأحلى الثمار ، وهي ثلج ونار ، وبها بهجتي
وأحبُ الملاحِ الصغار والكبار
إنها المرجان . وهي الياقوتة غـُصْن البان ، إنها فتنتي
وأعِيرَا فؤادي اصطبارا
قد عشقت الفتاة النوارا
التي زانت الدّرع إذ قاتلت وتزين الخمارا
حبذا نـَظـْرة للبحار من وراء البحار
قد رأيت الشرار وأضاء السوار
وبكم يا حبيبي يزدان النضار
ونخاف لعمري أن يطول الانتظار
ألم تحزن ودمعك قد يمور
وأنت بحبها أبداً غرير
وقلبك يانع غض صغير

وقد ذهب الشباب ولست تدري بأنك عنده رجل كبير
وقد ذهب الشباب وإن شيئاً جديداً حبُّك الحدث الخطير
تُحِب العبقرية وهي خَوْد يَفُوح العِطْر منها والحبور
تذكرناك يا روضاً نضيرا تطيب به الحياة ولا تبور
وكنت إذا رأيتك رَق قلبي وبَشَّ وحفـّنا الكون الكبير
وسِرتُ وفي جفوني لذع دَمْعٍ من الوجع الذي حوت الصُّدور
أكفكف من تحدره وأرجو العزاءَ إذا تساعفني السطور
وليس مساعفي إلا لقاكم إذا ما عدتمو ولكم حضور
وقد صبرت على الأوغاد نفسي وقِدْماً أحرز الأرب الصبور

لقد كان دهر الفرزدق إذ فرّ من زياد إلى سعيد بن العاص ، والعلالي التي

فيها المسك الذكي ، أرْحَبَ من دهـر أبي الطيب ، وكان دَهرُ أبي الطيب أرحب من القرن العشرين . وجاء الشابُّ المستطيل يبتسم بحيوية مَوْقوتـَةٍ مؤدبة وتفاؤلٍ اشتراكي ليأكل من مخك بالملعقة والشوكة كما يفعلون بجماجم القرود وهي حية في بعض ولائم أهل الصين . وذكر أغا خان أنـه جيء على المائدة له بثعبان مطبوخ فاحتال عليه حتى أسقطه تحت قدميه قـال ولو ذقته كنت هلكت

ـ وماذا أكلت يا رونالد يا ولدي الحبيب ؟

ـ أكلت ثعبان بَحْر مطبوخاً وأشعر بألم يا أماه يا أماه .

ـ ومن أكل معك يا رونالد يا رونالد يا ولدي الحبيب

ـ أعطيت كلبي منه فأكل وأشعر بألم يا أماه يا أماه

ـ وماذا حدث للكلب يا رونالد يا رونالد يا ولدي الحبيب

ـ مات الكلب وأشعر بألم يا أماه يا أماه

(وههنا توجد الوحدة العضوية التي ذكرها أرسطوطاليس وهي موجودة في آداب ساداتنا المستعمرين ولم يكن يعرفها أجـــدادنا البدائيون ، نحنُ الشعوبيون) .

ـ ومن أجدادنا البدائيون يا رونالد يا رونالد يا ولدي الحبيب

ـ امرؤ القيس والنابغة وأبو الطيب المتنبي وأشعر بألم يا أماه يا أماه

« أرى المتشاعرين غروا بذمي ... ومنذا يحمد الـــداء العضالا

ومن يك ذا فم مـــر مريض ... يجد مراً بـــه المـــاء الزلالا

وقالوا هل نُبَلـِّغك الثريـــا ... فقلت نعم إذا شئت استفـالا

أشد الغم عنـــدي في سرور ... تـَيَقـَّن عنه صاحبه انتقالا »

أما أبو كبير الهذلي فقد أدبه تأبط شرّاً وأخافه . ووجدنا عندكم رجلين من الص العرب . وعيناها سقيمتان . جد سقيمتين وهو َحوَرٌ بلا ريب ، حَوَرٌ أنيث ، وشعر الرأس أثيث ، والحاجب أزج ، والشفتان عمرة وحج

ومهما نقل بالصبر فالعمر ذاهب وهذا الهوى أشواقه ليس تذهب
وما رمت إلا اليسر لكن تألبت عليّ جموع الحاسدين أأغْضَب

...

تذكرنا حبيب النفس فالأشواق مهتاجة
وهذي الجمرة العذراء في الظلماء وهاجة

...

تذكرنا حبيب النفس فالخاطر مشغول
وغالت ود بعض الناس لا تَحْفِلْ بهم غول

..

تذكرنا حبيب النفس فارتاح الفؤاد
وقد عاد إلينا الحب وانجاب الفساد

...

رأينا بضياء الكشف إشراق الزمان
وأبصرنا بنور القلب أسرار المعاني

...

وأقبلنا على العيش بمجد وانتصار
وحل القوم إذ تلعنهم دار البوار

...

وقد أرسل من فوقهم الله الصواعق
الا قد زهق الباطل والباطل زاهق

...

حمــــدت الله رب النــــاس إذ زالــوا زوالا
وأبصرت من الحسناء في الطيف خيالا

...

وأبصرت على الخــــدين من سُعَــدى سوادا
كما يخدشك الماء إذا ما البرد زادا

...

وأولناه خَطْباً عابراً سوف يزول
وفي الأحشاء يا سُعْدَى من الحب الغليــــل

...

ولما ابتسمت أشرقتِ الخدّينِ نورا
وألفينا انشراح الصدر منكم والحبورا

...

وأرسلنا إليكم بهوى النفس رسالةْ
ولا نخشى مع الحب من الناس المقالة

...

أحبــــاء فؤادي ولقياكم مرادي
وتلك النظـــرة الحلوة منكم هي زادي

...

أحباء ضلوعي لكم سالت دموعي
ولو عدتم لقد أفرَخَ بعــــد الخوف رُوعِي

...

أحبائي أجيبوا لكم قلـــبي نصيب
ولو عـــدتم لقد عـــاد بكم عيشي يطيب

...

أحبـــائي دعوت وبالله سَمَوْتُ
إلى غـــيركم والله ربِّي مـــا صبوت

• • •

هو الحبُّ فلا تحزن اخـــا الحب وصـــابر
وحسناؤك قد جـــاءت ومـــا مثلك شاعر

• • •

ألم تشمم أريج العطر من جَنْب الخميلة
وقد عادت إلينا الخود والدنيا جميلة

• • •

ألا يا حبذا وجهك يا ذات الدلال
وفي عينيك كاسات من السحـــر الحـــلال

• • •

وما أُنزل في بابلَ والإيمان عندي
وقد أقبلتِ بالنصر وإقبالك جُنْدي

• • •

أيا ريح الشّمال فؤادي غيرُ سالي
وفي قلبي الصباباتُ وحال الوَجْدِ حـــالي

• • •

وطيرُ اليُمْنِ رفّـافـَة وروحُ الوجد شفّـافة
وفي سمعي بشارات وراءَ الغيب هَتّـافـَة

• • •

لقد طاحوا لقد طاحوا ورب الناس مَنّـاحُ
وثغر الجزلة العيناء رمـــان وتفاح

• • •

وصلينا على الهادي وروح الله في الوادي
ألم تبصر على أوجههم شخص الردى بادي

...

ألم تبصر على أوجههم شخص الردى لاحا
وقد طاف عليهم طائف المكروه فاجتاحا

...

ولله الحمد من قبل ومن بعد

وصلى الله على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

(١٤)

« هذي المعاهد من سعاد فسلم   واسأل وإن وجمت ولم تتكلم »
« آيات رَبْعٍ قـــد تأبد منجد   وحُدُوج حيّ قد تحمل مُتهِمِ »
« وبسقط العلمين ناعمـــة الصبا   حيرى الشباب تبين إن لم تصرم »
« بيضاء تكتمها الفجاج وخلفها   نفسٌ يُصَعِّده هوى لم يكتم »
« هل ركب مكة حاملون تحية   تهدى إليهـــا من معنى مغرم »
« إن لم يبلغك الحجيج فلا رَمَوا   في الجمرتين ولا سُقُوا في زمزم»
« ورُمُوا برائعة الفراق فإنهـــا   سِلْمُ السهاد وحرب نوم النوم »

رقيق البحتري. ومنوا برائعةِ الفراق. ما أشدّ ما أرّقنا. فهل أرقكم بعد ما عنـّا فرّقكم . أم أغرانا بالنوم لنصطاد الطيف في هـذا الحر الساعر من سموم الصيف .

صبر الفؤاد وقـــد أحس ملالا   من طول صبر وانتظاري طـالا
ولقد بُليت وقد شكرت عطاء من   أعطى الجزيل وأصلح الأعمـالا
وجـلادة النفس التي نُلفَى بهـا   أعطى وتجربة القِتَـال أنالا
ومحبةً أعطى وأشرب حُبَّنـا   بَعْضَ القلوب وكان ذلك فـالا
ولقد رأيت من المليحة ودهـــا   كَمَلا وصعّرت المليحة خـالا
قلنا لهـــا إنا نحبك صرّحي   بحبه وتمثلي الأمثـــالا
بسمت لنا بالمقلتين ووجهها   وبـــه الحياءُ شكيمةً ودلالا

قد طال هذا البين فيا بيننا يا ربّ قربهم وأنعِم بالا
إنا دعونا بالفؤاد جميعه ولقد تجيب لمن دعاك سؤالا
ونريد منك ولاية ووقاية وهداية ومن الحياة مجالا
والنصر إنّ النصر عندك كلّه يا ذا الجلال وتمنح الإقبالا
جاروا علينا حاسدين وعندنا صَبْرٌ به نتجاوز العذالا
ونريد منك الفَيْضَ رُبّتَ نفحةٍ من فيض نورك تكشف الأهوالا

آمين آمين آمين

اللهم من رام لنا الغوائل فارْمِهِ بسهمٍ منك عاجل

طاحوا ورب الكعبة

زُوري رُقَيَة قد أتى الميعاد والشّوْق لا أسلوكم يزداد
ولقد صبرت وفي الحشاشة منكم لذْعٌ به عند البكاء أكاد
قد خبروني أنكم سافرتمو عُودوا عسى ذاك اللقاء يعاد
أو ما سمعتم بالذي كادت لنا من بعدكم أعداؤنا الحساد
وجدوا بنا الجبل الأشمّ ولم يزل يعلو بنا فوق الجهاد جهاد
والله يعطينا المزيد بجوده فنزيد فضلاً والعدو يذاد
غنيت بالشّعر الرخيم وكان لي في المحسنين من القصيد جياد
ولقد تزور وأنت ترقب وعدها ذات الدلال وقُرْبها لك آدُ

أي قوة ...

ويح المليحة قد ذكرناها
ولقد يشوق القلب مرآها
وخمائله مرعاها

وأنت تذكر قول الشريف الرضي :

« يا ظبية البان ترعى في خمائله   ليهنك اليوم أن القلب مرعاك »

قــال الآخر :

« الله يعلم أنا من تشوقنا   يوم الفراق إلى جيراننا صُور
وأنني حوثما يثني الهوى بصري   من حوثما سلكوا أدنو فأنـْظُور

والشاهد هو كما ترى قوله « حوثما » مكان « حيثما » واشباع ضمـة الظاء من فأنظوْر .

وهاك من نفس القرَى ّ والمجرى مكسورْ

وقد تجيءُ إلينا أم راحتنـا   إلى الحياة من المولى بتقْدير
نحبها الحبّ لا نألو ونذكرهـا   وذِكرُها عنك يجلو كل دَيجُور
وقد فتحت كتاب الله فابتهجت   نفسي إذا استفتحت منه بأسطُور

جمع سطر بإشباع ضمة الطاء ...

روى الإمام البخاري رضي الله عنه ونفعنا بجاهه ونصرنا وسترنا قال : حدثنا موسى بن اسمعيل حدثنا عمر بن يحيى بن سعيد بن عمرو بن سعيد قال أخبرني جدي ، قال كنت جالساً مع أبي هريرة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ومعنا مروان ، قال أبو هريرة سمعت الصادق المصدوق يقول : هلكة أمتي على يدي غلمة من قريش . » ا. هـ الحديث .

مروان هو ابن الحكم وابنه عبد الملك قتل عمرو بن سعيد وهو عمرو بن سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس . وسعيد بن العاص كان ممن عهد إليهم أمير المؤمنين سيدنا عثمان رضي الله عنه بكتابة المصحف

الإمام .

قال ابن حجر رحمه الله ما معناه أن يزيد بن معاويـــة كان أول أولئك الغلمة . والحديث نفيسُ السَّنَدِ كما ترى

قال تعالى: لا «يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد» متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد . » صدق الله العظيم . سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم

سهرت بـــذكراكم وإني لمغرم ... بكم وغِنَائي عن غَنَائي يترجم
تذكرت أصناف البنات وإنكم ... لأعذب في نفسي وأحلى وأقْدَم
صـــبرت على كل الأذى بمحبّتي ... لكم إنـه قلبي بكم يَتَنَعَّم
حُضُور حضور عندكم فاحضروا لنا ... بعالمكم والشَّمْلُ بالود يُنْظم
أرى بشر الدر الذي هو جلدكم ... يُضِيء لنا والليل بالناس مظلم
تسيرون في الآفاق قلبي إليكم ... جنيب بكم ملآن بالشوق مفعم
ولو أمكن السلوان كنت سلوتكم ... وأنـي ويجري بالهوى اللحم والدم
نرق إليكم رقة وكمثلنا ... ترقون والقُرْبى إلى الـبر تبغم
وذاك قضاء الله في اللوح خطّـه ... وأنتم حبيب القلب والله يعلم

يُؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيرا وما يتذكر إلا أولو الألباب

فكـرت فيكم طويلا ... وقـد أردت الرحيـلا
وقلت يا أمّ عمـــرو ... صبري من الحب عيلا
وذقت من ثَغْرِ أنغا ... م حُبّكم سلسبيلا
والنيل قد فاض يا صا ... ح هـل رأيت النيـلا

عمَّ الجزائر والجو ف عمّه والبُقـُولا
وكان وجهـك يا رو ضة الحياة جميلا

...

يا أجمل الناس يا رَا حة ً وراحاً وروحا
والعمر قد صار منكم رَحبَ المجال فسيحا
هــل تسمعين غنائي إليكمو والمديحا
أم بالحجـاز رأيتم بَرْقِي إليكم لوحا
ام هـل هتكنا حجابا يُعْطى الوصال الصريحا
ام هل صَفَحنا عن النا س واحتسبنا الجروحا
ام الشماتة لم تؤ ذِ دمعنـا المسفوحا
ام حبكم قـد كسانا مع الصلاة المُسُوحا
حتى عرفنـا برِفْقٍ محمداً والمسيحا

...

ناد الحمامـــة نـادِ قد فاض نيل بلادي
وقــد أراها اطمأنت عندي ورامت ودادي
وقد دعوت وجــاءت من بعد طول العناد
ناد المليحة نادِ إني إليكم لصادِ
هـــل تسمعون ندائي من خلف بعـد البلاد
وإنّ صوتي رخيم بيا سُعَا يـا سعادي
أحبب إلي بإقبْا لِ غـُصْنِهــا الميّاد
أنت الثواب الذي قَـــدْ أعددته لجهادي

...

هذا الليل قد أشجاني صَوت القوم قد ناداني
كانت كأسي تسكر رأسي لكن كأسك ملءُ جناني

يا حسنـاء يا محبوبة
انت المُهْرَةُ المنسوبة
هـذا البين لا يسليني لا أسلوك يا رعبوبه
قـد دارت كاسات القوْمِ
حبك أسهرني من نومي
طال لعمري بَعْدك صَوْمي
ما في حبك لي من لوم
أنت النور
انت لعمري إحدى الحور
حبك عندي حتى يوم ينفخ في الصور
قلبي بك حقا معمور
انت البحر المسجور
يُغرِق هذا العَتْمُور[1]
وكيد اولئك مبهور
ومكر القوم يبور
والدائرات عليهم بإذن ربي تدور
ونحن عما قليل لواؤنا منصور

نادِ الحمامـة نادِ قد فاض نيل بلادي
وانت يا حلوة الخد واللمى ميعادي
وقد رأيتك برقا يلوح والقلب صادي
والغيث أنتِ وروضاتُك الحسان بـلادي

ألح حبها ...

---

(١) العتمور اسم الصحراء التي شرق النيل

ألح علينا حبها دُونَ غيْره وقد كان يَلوِي خطونا عند سيره
فمن كان يرجو العيش من غير حبها لِيُسْعِدَهُ فلينتظر عيش غيره
ألم ترني لما نأت مُتَفطِّرا فؤادي عليها طائراً كل طيره

يراها أمام العين من دون ما يرى
وضَنّ علينا الطيف بالوصل في الكرى
وقد كان إقبال الحبيب من القِرى
وكانت لعمري عندنا اجمل الورى

ذكرناك يا أم الغلامين فاذكري مودتنا إنا بحبك في الذّرى

وعيناك طاووسان والوجه زُخْرف
ومنك ومن عينيك نسقي ونغرف
وفي وجهك الحب الحقيقي نعرف
وعَنّا جميع الناس انجئت نصرف

واوشك هذا القلب يا مُشتهاته من الحزن المزوج بالحب يتلف

— الله الله

— وصلى إله العالمين وسلما على قرَشيٍّ فاقَ عيسى بنَ مريما

وقد كتمت أضلاعنا حُبّ تكتما
وكنتُ بها في سالِف الدهر مغرما

تَوسّلت بالهادِي الذي نور هَدْيه أنار لنا الكون الذي كان مظلما
لِيَنْصُرَني الله المهيمن إنني أجاهد حتى أصبح الأمر مبهما
ولا زلت جلدا صابرا متمسكا بأسبابه من حولي الجهل والعمى

•••

ألا يأيها القلب الذي حنّ إلى سعُدى
وقد أبصرتها في الطيف قد أبدت لك الخدا

وقالت أنا ذات الخال إذ انت أبو الطيِّبْ
ومِثلُ البكر في شِعْرٍ حبيبٍ وأنا الثيِّب

وعيناي غديران ومشكاة ومصباح
وعندي اللَّعَسُ المعسول والخَنْتَمُ والراح

وشعري الجثل قد يحسبه الجاهل «بَارُوكهْ»
ولا أكشف رأسي لا ولا أمضغ « بازوكه »

وفي خدي هل تُبصرها ظاهِرةً شامه
وفي ثغري وعندي يَجِدُ الشاعر إلهامه

وفي قلبي لك الحبُّ الذي زاد فلا تسألْ
وأحببْتُكَ مذ أنّي في رَيْعَانِيَ الأوّلْ

وناديتك فاسمعنِيَ بالهاتف من روحي
قريباً نلتقي فافرح وإنسانك ممدوحي

سبُّوحٌ قدُّوسٌ رب الملائكة والروح .

وقالوا سبُّوحاً قدّوساً ربَّ الملائكة والروح بالنصب . قال سيبويه إنه على تقدير : أذكر سبوحا قدوسا الخ ... وأعلم أن الخليل رحمه الله اختار لعلمه سيبويه . وفي الكتاب أسرار من علم الخليل كسل عنها الناس بعد زمان المازني والمبرد والزجاج.

ولقد ذكرتك يا نوار وربما خفق الفؤاد وأنت حبّ فؤادي

ولقـــد رأيتك بالخيال وعادني وجع الصبابة ساعة الميعاد

والله يعطيني الجلادة إنني فردٌ وحيدٌ ثم طـــال جهادي

ولقـــد ذكرتك يا هناة وبيننا موج الغيوب وراية الحساد

ولقد ضممتك بالقوى ولطالما أهدي إليك مع الرياح ودادي

عودي فإني ههنا مترقب منك الإياب وقـــد دنا إسعادي

— هآنذي ... أو هآنذا كما تقول بهجة حافظ أو هـل هي سواها في فيلم « ليت للبرّاق عيناً فترى » ...

— أنت ظريفة جداً يا سكسكة ، ودموعك مثل السكْسك

وأريج عطرك مثلُ البرتُك ... (أي البرتكان)

وهيا نبحث عن الكنز الضائع ...

وما الكنز إلا أن يعُودوا وأن أرى محياهم والعيش من غيرهم عَـــدَمْ

وأذرَت إلينا السكسكية دَمْعَهــا وما إن بها إلا التحية من ألَـم

كما كانت الشقراء تُذْري دموعها كأنْ ظبيَةٌ تعطو إلى وارق السّلَم

ألم ترني لما رأيت خيالها طربت وذَادَ الطيفُ عن روحي السأم

...

وأنت يا سكسكة حلوة جاءت إلينا وعليها العبير

لك التّجيلاتُ لدينا وما دَمْعُك هذا بمَتَاع حقير

لكنّ في قلبي فراغاً كبيراً وكُنْت بالود وكنا جديرا

والله في قلبي فراغ كبـير

وأنا بالود وأنتم جـــدير
وعندنا في القلب حب كثير
لكن هذا العيش أنى نسير
نلقى به القهر الذي قد يَضير

أما رأيت الصَّفْرَ أمسِ الذي قد كان شيئاً وهو لا شيءَ الآن
يحسبني أنسى انحداراته وما سما بعدُ وفيه الهوان
وقد تذكرت الفتاةَ التي مِلءُ فؤادي من هواهـــا بيان
وقد أرى في مقلتيها الرضا عني وأصناف الشكا والحنَان
وأنت يا سكسكةً حلوة من اللطاف المرحـات الحسان
لكن قلبي وَيْح قلبي الذي حبيبه البدر الذي عنــه بان

بها تغنيت وقلبي كسير
وقربها كالكوب فيه العصير
ومقلتاها أنا صادٍ ، غدير
وهي على الكون جميعاً أمير
وتركت عندي الفراغ الكبير
يوم تولت فبِمَن أستجير

وأنت يا سكسكة حلوة قد تعلمين الأمر مني الخطير
وحبــذا أنت ألا فاسلمي يا عذبةً في الطرف منها حبور
لكنني قد كنت جلدا صبورا وكنت بالود وكنا جـديرا

* * *

ألم تر أن الحب كنا نظنه أساطير شِعْرٍ لا يصح اعتبارها

فلما بلوناه بلونا حقيقة من العيش قِدْماً غاب عنا اختبارها

...

طربنا إلى ذكراك يا فخمة الكفل وفي شفتيك التمر والخمر والعَسل
وأعجبني مرأى ذراعيك إنني أحبك يا حسناء حباً بلا وجل
وشتان ما بين البريق الذي لدى زجاج كئوس الراح والراح في المُقل
وأنت أحب الناس عندي ومجلسٌ اليك من الزاد الذي يَفسَحُ الأجل

...

كأن محياهـــا صباح وروضة وليل بآفاق السموات مُقْمِرُ
تُحَرِّرني من كل قيْـدٍ بقربهـا وتُسكرني خمراً لها الخمرَ أهجُر

قال مؤيد الدين الطغرائي :

حُبُّ السلامة يثني هم صاحبه عن المعالي ويغري المرء بالكسل
فإن جَنحت إليه فاتخـذ نفقاً في الأرض او سلما في الجو واعتزل
ودع غمار العلى للمقدمـين على رُكوبهـا واقتنع منهن بالبلل

الطغرائي شاعر ... وفيه بعد تعبٌ لأنه رام شأو أبي الطيب . ورام أبو العلاء وهو من أقوى الأذكياء شأو أبي الطيب ثم أعرض عن ذلك . وديوان سقط الزند فيه صناعة جيدة وشخصية وشعور وذوق ألفاظ وجرس مطبوع . ومع ذلك فأبو العلاء في سقط الزند ليس بسلس سلاسة أبي عبـادة ولا مُسْحنفِرٍ مُشْمعلٍ كأبي تمام . ولا تقس بعدُ بأبي الطيب . أبو العلاء شيء بين ذي الرمة وابن الرومي . رام ذو الرمـة شأو جرير ورام ابن الرومي شأو حبيب .

أما ذو الرمة فرام محاكاة جرير في الرنة والحنة وأن يزيد عليه بتعمق الأخيلة والمعاني .

وقالوا تأثر مذهب الراعي . واللامية المجمهرة من شعر الراعي فيها نفس الفحول ، أعني كلمته :

ما بال دَفّك بالفراش مَذيلا أقذى بعينك ام أردت رحيلا

ولعله كان يقلد الشماخ وابنَ أحمر في أوائل شعره ، فأعجب هـــذا من طريقته ذا الرمة فألحّ عليه وتعصب للفرزدق ليخفي حقيقة تقليده جريرا . انظر هجاءه بني امرىء القيس حيث يقول :

ولكنها أصْل امرىء القيس معشر يحل لهم لحم الخنازير والخمر

وفي الأغاني أن ذا الرمة استرفد جريرا اول هجائه هشاما المرئي فرفده الأبيات :

يعـــد الناسبون إلى تميم بيوت المجد أربعة كبارا
يعدون الرِّباب وآل تيم وعَمْراً ثم حنظلة الخيارا
ويسقط بينها المرئي عفوا كما ألغيت في الدية الحُوارا

والحُوارُ هو الصغير من ولد الإبل ومنه قولنا في السودان لتلميذ القرآن حُوار ، وكان ذو الرمة صاحب ملكة . ولكنه لم يكن من شعراء الطبقة الأولى . وطلب بمجرد كدّ الذهن أن يبلغ تلك المرتبة ، فتأتت له الصناعات العجيبة من أمثال :

وتيهــاء يودي بين أسقاطها الندى عليها من الظلماء جــلٌ وخندق

والتأملات التي خلط فيها أوصاف الطبيعة بأوصاف الجمال ،

ذكرتك أن مرت بنا أم شادن أمـــام المطايا تشرئبّ وتسنح

من المؤلفات الرمل أدماء حُرّة   شُعاع الضحى في متنها يتوضح

لذي الرمة صوت ما من نغم ، ولكن العمل هناك .

وكان رحمه الله سراقاً من الشعراء قبله لا يكاد يفطن إلى ذاك من نفسه ، وهذا من مذهبه يُطلِعُ عليك مسروقاته في زي مبتكرات ثم إذا فحصتها بدا لك من بعد زيف السَّرَقِ ، فاستحسنت الصناعة والعرض ولم تعدُ ذلك. أحسب هذا تأويل قولهم ان شعره كبعر الآرام له رائحة زاكية أول أمره أرِجَةٌ ثم يصير إلى رائحة البعر بَعدُ . وينسب هذا القول أو نحو منه إلى أبي عمرو بن العلاء . ومن أمثلة سرقات ذي الرمة :

لها كفلٌ كالعانِكِ استنَّ فوقه   أهاضيب لبّدْنَ الهذَاليلَ نُضَّحِ

أي لها كفل كأنه قوز رمل عظيم أصابته أهاضيب المطر أي دفعاته فلبدت الطرائق المنتسجة فوقه . وفي هذه الصورة دقة نظر وتصوير. ولكنها بعد مسروقة من امرىء القيس :

كحقف النقا يمشي الوليدان فوقه   بما احتسبا من لين مس وتسهال

ثم ما شئت من طرفة والنابغة ، وروم منزلة الطبقة الأولى بالجهد وكد الذهن من شواهد ضعف الذكاء . ومع هذا فقد أفاد أصحاب الملكات الكبار من عناء غيلان . وقد انتفعَ به أيضاً أصحاب شواهد النحو والبلاغة كل انتفاع . ومحاولة التفوق بالجهد منعت ذا الرمة من أن ينطلق مع ملكة النغم وتذوق اللفظ كل الانطلاق. وحين يفعل شيئاً من ذلك تتأتى له الإجادة كما في داليته المشطورة : « هل تعرف المنزل بالوحيد » ولاميته المشطورة « ما هاج عينيك من الأطلال » وبعض مطالع وأبيات من قصائده مثل :

خليليّ عوجا من صدور الرواحل   بجمهور حُزْوَى فابكيا في المنازل

لعل انهمال الدمع يُعقِبُ راحة   من الوجد أو يشفي نجي البلابل

وابن الرومي رحمه الله اتعب نفسه ليفوق البحتري بطريقة أبي تمام — ليفوق البحتري بالجهد يجهده هو بتلك الطريقة والكد واللجاج واستقصاء ما عند ملكة نفسه غير القوية جدا . وصفاء البحتري ونقاء جرير من عطاء الله الذي لا يستطيعه البشر ... وجلال أبي تمام وجماله أيضاً .

هذا ولم يكن أبو العلاء المعري ممن يؤتى من ضعف الذكاء على أيما وجه ، ولكنه رحمه الله لم يكن من حيث حاقّ الشاعرية أريحي أعماق النفس وقد سلمت لأبي العلاء بقوة الملكة بدائع في كلماته « طربن للمع البارق المتعالي » و« نبي من الغربان ليس على شرع » واللامية التي لعلها أميرة شعره « مغاني اللوى من شخصك اليوم أطلال » ولكنه رحمه الله كان يعاني من القبض الحضاري والعُقد المزْوَرَّة (من الازورار لا التزوير) حتى حين ينفعل بحرارة من عواطف الشوق والوجد والحنين

وغنت لنا في دار سابور قينة ... من الورق مطراب الأصائل ميهال

رأت زهرا غضا فهاجت بزهر ... مثانيه أحشاء لطفن وأوصال

فقلت تغني كيف شئت فإنما ... غناؤك عندي يا حمامة إعوال

وتحسدك البيض الحوالي قِلادَةً ... بجيدك فيها من شذى المسك تمثال

هذه الالتفاتة الفكاهية والانصرافة لا تخلو من روح قبض وانعقاد

كذبن وبيت الله كم من قلائد ... تؤازرها سُورٌ لهن واحجال

فوالله ما تدري الحمائم بالضحى ... أأطواق حسن تلك أم تلك أغلال

وهنا هرب الشاعر من عاطفته كل الهرب ، وأسدل عليها ادعاء ساذجا ووقار فقهاء .

ورحم الله أبا الطيب حيث قال :

إذا كنت تخشى العارَ في كل خَلوَةٍ ... فلمْ تَتَصبّاكَ الحسان الخرائد

وقد لاحظ بعض النقاد ان أبا العـــلاء أشد انفعالاً لموت أمه في الرسالة المنثورة التي بعث بها إلى خـاله منه في الميمية التي رثاها بها في سقط الزند « سمعت نَعِيَّها صمِّي صَمامِ » . هذا وقد احتال أبو العلاء ليعالج انقباض نفسه بالحكايات والفكاهيات :

يقلن فُلانة ابنـــة خير قوم شفـــاءٌ للعيون إذا شَفَتْه

مكة أقوت من بني الدردبيس فما لِجنّيٍ بهـــا من حسيس

وكنت آلف من أتراب قرطبةٍ خَوْداً وبالصين أخرى بنت يغبورا

أزور تلك وهذي غير مكترث في ليلةٍ قبل أن أستوضح النورا

وذادني المرءُ نوح عن سفينته قَرْعاً إلى أن غدا الظنبوب مكسورا

وهذه أشياء منظور فيها إلى الجاحظ وأصناف من روى لهم من النوادر كالبهراني وعبيد بن أيوب العنبري وأبي الشمقمق وانظر مــا شئت من الحيوان والبيان .

تم بذكائه الخارق أضرَب عن الشعر واصطنع القيود . هـــذا خير من أفيون صموئيل تيلور كلردج .

وتأتت له من الفصاحة والجودة أصناف في اللزوميات نحو :

أُولو الفضل في أوطانهم غرباء تَشِذُّ وَتنأى عنهم القُرَباء

وما شاق قلبي بارقٌ نحو بارقٌ ولا هَزَّني شوقٌ لجارة هِزّان

لأن قضية الذكاء هي التي عَوَّل على إقامتهــا ، دون قضية الشعر ، في ديوانه لزوم ما لا يلزم ، وذكر ذلك صريحاً في المقدمة ، ويُسألُ بعدُ وهو الحصيف اللبيب ، فلماذا سلك بالمنظوم سبيلاً لا يجود عليها المنظوم ، أغفلةٌ ؟ فلم يك بالغافل ولا بالجاهل ولا بالذي للمستحيل محاولٌ .

وأنكر جماعة أنه قد كان فيلسوفاً . وليس إنكارهم بضائره . فقد كان عفا الله عنه من كبار المفكرين ونقـْدُهَ الأديانَ والمجتمعَ والسلطانَ كأنه شيء انفرد به .

أنا أعمى فكيف أُهْـــدى إلى المنهج والناس كلهم عميان

والعصا للضرير خيرٌ من القا ئد فيه الفجـــور والعصيان

قـــد ترامت إلى الفساد البرايا واستوت في الضلالة الأديان

ـ مراده أديان الكفرة يا سيدنا .

جائزٌ أن يكون آدم هذا قبله آدم على إثْـــرِ آدمْ

وبَصِيرُ الأقوام عندي أعمى فهلمُّوا في خندس نتصادَمْ

ـ قال تعالى: وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً.

لست أنفي عن قدرة الله أشبا ح ضياءٍ من غير لحم ولا دَمْ

ـ هؤلاء هم الملائكة ، يا سيدنا الرجل مؤمن .

ان الشرائع ألقت بيننـا إحنـاً وأورثتنـا أفانين العـــداوات

إحنا أي أحقاداً جمع إحنة بكسر الهمزة وسكون الحاء بعدها نون وتاء التأنيث .

وهل أبيحت نساء الروم عن عُرُضٍ للعُرْبِ إلا بأحكام النبوات

ـ الكفرة دماؤهم حلال ونساؤهم حلال . قال الفرزدق :

وذات حليل أنكحتنا رماحنا حلالاً لمن يَبْني بهـــا غير طالق

ـ يا سيدنا ولكن كلامه في الحج كيف الاعتذار منه .

يا مولانا حاكي الكفر ليس بكافر ، وأحسبك تعني قوله :

ما الركن في رأي قوم لست أذكرهم   إلا بقيـــة أوثان وأنصاب

والذين أنكروا انه فيلسوف ، من أصناف مقلدي الاستشراق ، يلزمهم أن ينكروا أن « رسيل Russel » فيلسوف وأن « هيـــوم » فيلسوف . قالوا ، الذين يقلدون ، لأن الفيلسوف لا بد له من فلسفة لها مَنْهج وطريقة متماسكة . وعلى هذا يكون الجنرال « سموطس » صاحب فلسفة « هولزم » ـ وهي مخرقة ـ فيلسوفاً ، ويكون أبو العلاء مجرد مفكر عربي شاعر ، من نوع أبي العتاهية كما قال مرغليوث .

وكان مرغليوث هـــذا في أعماق نفسه يفتخر بأنه بالنسبة الى الإسلام كافر ، لأن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، ولكن الكافر لا يلدغ ولو مرة واحدة . . . قه قه قه . رووا هــذا يقوله مرغليوث في مجلس أنس حضره أحد فضلاء العرب ، وباطنه الطعن في الاسلام كما لا يخفى. ولم ينفكّ تعصب مبشري النصـــارى بهم حتى أوشكوا أن ينكروا للعرب كل تبريز . وقد حرصوا على أن ينكروا عليهم الفلسفة جملة واحدة لا تصالها بعلم اللاهوت والعقيدة . وربّ زاعم منهم أن كل ما يقال انه فلسفة للعرب فمأخوذة من يونان . ويونان هــذا كأنه شيء مسيحي أوربي ، لأن رومـا وهي أوربية خالصة ، ورثت أثينا ، والكنيسة وهي مسيحية خالصة ، ورثت روما . والكرملين ضرب معكوس من الفاتيكان ، وبرهن على ذلك برتراند رسل في كثير مما كتب ، وإلى قريب من مذهبه ذهب تُوينْبي صاحب التاريخ . .

وأحسب ان أبا العلاء آثر سبيل النظم بلزوم ما لا يلزم بعد أن أجبره ذكاؤه على ترك محـاكاة أبي الطيب وطلب التفـوق عليه بأساليب الشعراء المعروفة ، وحمله حملاً على التماس النظم البحت . . . كما حمله حملا على التبتل وترك اللحم وصيام الدهر وقد قال :

ولم أعرض عن اللذات إلا   لأن خيارها عني خنسنه

وخيارها أن ينطلق كما ينطلق الشعراء، وأنّى له وهو رهين المحبسين، إرثِ الشافعية القضاة آبائه كابراً عن كابر، والحرص من جانبه هو الفخور في أعماق نفسه بهذا الإرث ألا يخرج عنه. قال تعالى: «ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، قالوا إن الله حرمهما على الكافرين» صدق الله العظيم.

ذلك بأنه عول على الفكر الحر إذ حيل بينه وبين أريحيات الوجدان ومطلق الشاعرية مع الذي تأتى له من ملكاتها والله على كل شيء قدير. وكان النظم أضبط في التسجيل وأحفظ للنادرة. من أمثال:

هفَتِ الحنيفة والنّصارى ما اهتدت ويهود حارت والمجُوس مضلله
اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دينٍ وآخر ديّن لا عقل له

ومثل:

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار
تناقض ما لنا إلا السكوت له وان نعوذ بمولانا من النار

قال أحد الفضلاء يعارضه:

عز الامانة أغلاها وأرخصها ذلّ الخيانة فافهم حكمة الباري

وقال أبو العلاء:

دين وكفر وأنباء تقص وقرآن ينص وتوراة وإنجيل
في كل جيلٍ أباطيل يُدانُ بها فهل تفرد يوماً بالهدى جيل

فعارضه أحد الفضلاء:

نعم محمد الهادي وأمته فهل سمعت بهذا يا دُجيْجيلُ

وشعر اللزوميات وسط ـ ذكر ذلك الذهبي .

والشعر أعذر للزنديق . إلا أن أبا العلاء لم يتخذه درعاً . وقد تزندق جماعة نثراً وشعراً ، وقل أديب قتل على الزندقة ، وكتب الأدب مشحونة بأخبار الملاحدة ورقاق الديانة . ويذكر أن صالح بن عبد القدوس قُتِلَ على الزندقة ، فليس في شعره الذي بأيدينا إلا الحكمة ، فلعل الزندقة التي قتل من أجلها كانت عملا سياسياً مثل زندقة الافشين مثلا فيما بعد . وما أشك أن بشاراً إنما قتل لحبه بني أمية ووقوعه في بني العباس مع فُحْشٍ في ذلك أحياناً ، وقريب من ذلك أسباب مقتل ابن المقفع والله أعلم .

والذي رامه أبو العلاء ، أن يقول بحرية زنديق ثم أن يستمرَّ يُعَدُّ في أهل الفضل وعسى أن يطمع ليُعدّ في طبقات الشافعية مع آبائه القضاة الكرام .

واللزوميات أفضت إلى رسالة الغفران . وفي رسالة الغفران جَوَّدَ أبو العلاء أسلوب حرية الفكر فألبسه التقية والسخرية . فاجتمعت له فضيلة ذلك مع ما في اللزوميات من النادرة وما يؤثر للحفظ . ونظر الأشياخ فبهرتهم الصناعة والبراعة .

ـ وهذه يا سيدنا قافية متكلفة .

واختار ابن الاثير أبياتاً من الهاء ليدل على التكلف والصنعة في مذهب أبي العلاء .

واستعار ابن الحريري ما شاء الله في المقامات .

وعفا الله عن أبي العلاء المعري . كان من أهل الفضل من بيت فضل .

ولكن ما قاله في اللزوميات وفي رسالة الغفران .

ـ الله أعلم به .

– ظاهره يا سيدنا فيه رائحة الكفر ... يا سيدنا الذهبي .

وكتب سيدنا الذهبي في أخبار سنة تسع وأربعين وأربعمائة في تذكرة الحفاظ (ص ١١٢٧) : « وفيها مات شيخ الأدب أبو العلاء بن سليمان المعري ، وشيخ الاسلام أبو عثمان الصابوني ، وأبو الحسن علي بن خلف بن بطال القرطبي صاحب شرح البخاري ، ومقرىء خراسان أبو عبدالله محمد ابن علي بن محمد النيسابوري الخبازي ، وشيخ الرفض أبو الفتح محمد بن علي الكراكجي ا. ﻫ » .

وهؤلاء جميعاً من الفضلاء ، وأولهم كما رأيت أبو العلاء ، وأدنى منازله أن يكون مثل شيخ الرفض ، وقد قَدَّمَ شيخنا الذهبي ذِكْرَهُ على شيخ الاسلام .

– والواو يا مولانا لا تفيد الترتيب ، ذكر في التسهيل أن ذلك هو الأرجح .

ومن يدري فلعلّ أبا العلاء قد كان من الاقطاب الصالحين ، منزله في عليين . ومالَهُ وللشعراء ؟ أم كان من الغاوين ؟

اما المرحوم أحمد شوقي فلم يسعفه الذكاء – أم أسعفه إذ ، لا ريب ، كان ذكيـاً – إذ رام شأو البصيري في البردة والهمزية «فقصرت عنه خطاه ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه» . وألف تَرَنُّمَةِ من أم كلثوم لن تصعد بِريم القاع من القاع الى سفح الجبل الاشم الذي رَيْدُهُ : أمن تذكير جيران بذي سلم ، وذروته :

محمد سيد الكونين والثقلين والفريقين من عرب ومن عجم .

والطغرائي والابيوردي والتهامي طبقة من تبـاع أبي الطيب المتأثرين بروحه . أما الشريف الرضي فقد قبض قبضة من أثر صاحب أبي الطيب وأخرج للناس عجلاً جسداً له خوار .

مهلاً أمير المؤمنين فإننّا في دوحة العلياء لا نتفرق
الا الخلافة ميزتك فإنني أنا عاطل منها وأنت مطوق

ويذكر عن أبي العلاء المعري أنه شبه شعر ابن هانيء لمـــا عرض عليه برحى تطحن قروناً ، فالله أعلم ماذا كان يرى في شعر الشريف . وقد قال يعني أخاه الشريف المرتضى :

وأصحاب الشريف ولا تساو كأصحاب ابن زرعة وابن سمح

وهذان كانا من أهل الجدل وشق الشعر . وإن كان قد صدق في قوله في الفائية :

أبقيت فينا كوكبين سناهما في الصبح والظلماء ليس بخاف
متأنقين وفي المكارم أرتعـــا مُتَألقـين بسؤدد وعفـــاف
قَـدَرَيْن في الإرداء بـــل مطرين في الإجداء بل قمرين في الاسداف
رُزِقا العلاء فأهـــل نجد كلما نطقا الفصاحَةَ مِثْلُ أهل دياف
ساوى الرضي المرتضى وتقاسما خطط العـــلا بتناصف وتصافي

فالرضي بمساواته للمرتضى ومساواة المرتضى له في كلا صنفي الفصاحة « وخطط العلى من طارف وتليد » داخل في حيز مشابهة ابن زرعة وابن سمح مع فضيلة شرفه وشرف أخيه ودينهما على هذين ، وذلك من التفوق في بلاغة الشعر بعيد كما ترى .

وقول المعري « مثل أهل دياف » فدياف من بلاد النبيط واليها تنسب الابل الديافية ، وبذلك يروى قول امرىء القيس :

على لا حب لا يهتدي بمنـــاره اذا سافه العَوْدُ الديافي جرجرا

وقال الفرزدق يهجو عمرو بن عفرا الضبي، وكان هذا كأنه قد حسد الفرزدق على عطاء أعطاه إياه أحد الأجواد، وقال له « ما يَصْنَعُ الفرزدق بهذا الذي أعطيته، إنما يكفي الفرزدق ثلاثون درهماً، يزني بعشرة منها ويأكل بعشرة منها ويشرب بعشرة منها» (الديوان، مصر تحقيق الصاوي/ ٥٠).

فقال الفرزدق :

ستعلم يا عمرو بن عفرا من الذي   يلام اذا ما الأمر غبت عواقبه

فلو كنت ضبيّاً صفحت ولو سرت   على قدمي حيّاتــه وعقاربـه

ولكن ديافيٌّ أبـــوه وأمـــه   بحوران يَعْصِرْنَ السليط أقاربه

والسليط الزيت، أي أمهاته إماء.

والخبر الذي يروى من أمر المرتضى بالمعري أن يسحب من رجله إهانةً له لما عرض ببيت ابي الطيب :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص   فهي الشهادة لي بأني كامل

فيه نظر ولعل المرتضى همَّ بذلك أو ذكره لبعض خواصه فبلغ أبا العلاء، وكان همّاً كفعل. وقد كان المرتضى فقيهاً ويعلم قول الله تبارك وتعالى : « ليس على الأعمى حرج ». وقد ذكروا أن علي بن عيسى الربعي لما قصده أبو العلاء قال « ليصعد الإسطبل » أي الأعمى فهذا كما ترى تعريض بنفي الحرج والله أعلم. وكان تَجَهَّمُ بعضِ الفضلاء ابا العـــلاء بعد ذلك، ممن يرغب الى آل الشريف أو يرهبهم، طرفاً من ذلك. ومن أدلة هذا الذي نذهب اليه — والله أعلم — ما شكاه أبو العلاء من الفقر في بغداد حيث قال:

أثارني عنكم أمرانِ والدة   لم ألقها وثراءٌ عاد مسفوتا

وقوله : وكم ماجدٍ في سيفِ دجلة لم أشِمْ   له بارقـــا والمرء كالمزن هطال

وقوله : رحلت لم أبغ قرواشاً أزاوله ولا المهذب أبغي النيل تقويتا
والموت أجمل بالنفس التي أَلِفَتْ عز القناعة من أن تسأل القوتا

وهذه المقالة فيها نوع من المحاربة لآل الشريف .

قال أبو منصور الثعالبي رحمه الله يعني الشريف الرضي : « ولست أدرى في شعراء العصر أحسن تصرفاً في المراثي منه » .

والمراثي من أضعف الشعر . ولم تترك الخنساء ومتمم ولبيد فيها مقالاً من بعد لقائل ، واذكُرْ مع هؤلاء « جَنُوبَ » أخت عمرو ذي الكلب وشعراء هذيل وهلم جرا . ثم لا تَنْسَيَنَّ أصلحك الله أن شعراء القرن الرابع بعد أبي الطيب صدًى منه .

وقال الشريف يرثي والدتَهُ :

أبكيك لو نقع الغليل بكائي	وأقول لو ذهب المقال بدائي
وأعوذ بالصبر الجميل تعزياً	لو كان في الصبر الجميل عزائي
طوْراً تكاثرني الدموع وتارةً	آوي الى اكرومتي وحيائي
كم عبرة موهتها بأناملي	وسترتها متجملاً بردائي
أُبْدي التجلد للعدوّ ولو درى	بتململي لقد اشتفى أعدائي

وقوله « لقد اشتفى أعدائي » فصيح أو متفاصح جداً ، والنظر الى أبي ذؤيب لا يخفى في قوله :

وتجلدي للشامتين أُريهم	أني لريب الدهر لا أتضعضع

ولامرىء القيس في قوله :

ففاضت دموع العين مني صبابة	على النحر حتى بلّ دمعي محملي

وليست دموع امرىء القيس بما يُنْظَرُ اليه في هذا الموضع ، واعجب كيف غاب هذا عن الشريف . وأحسبه رحمه الله أضلته طريقة أبي الطيب في رثائه أم سيف الدولة وأختيه . وقال في رثاء الصاحب بن عباد :

الشكُّ أبرد للحشى في مثـــله   يا ليت شكي فيه دام وطالا
جبــل تسنمت البــلاد هضابه   حتى اذا مـــلأ الأقالم زالا
يا طود كيف وأنت عاديُّ الذُرَى   ألقى بجـانبك الردى زِلْزالا
ما كنتَ أول كوكب ترك الدنى   وسمـا إلى نظرائـه فتعـــالى

وهذا ينظر من قريب إلى قول أبي الطيب .

ما كنت أحسب قبل دفنك في الثرى   أن الكواكب في التراب تغور

وَنفَسُ الشريف الرضي قريب من نفس شوقي حتى ليوشك روحاهما أن يكونا متناسخين .

والرضي أقعد في الفصاحة إذ هو ابن بحبوحتها . وقال الثعالبي بعد كلامه الذي ذكرنا آنفاً : « ولما رثى أبا منصور الشيرازي بهذه القصيدة في سنة ثلاث وثمانين ورثى أبا اسحاق الصابي في سنة أربع وثمـانين بالقصيدة التي أوردتها في بابه ، ثم لما حال الحول وتوفي الصاحب سنة خمس وثمانين وتعجب الناس من انقراض بلغـاء العصر الثلاثة على نسق في ثـلاث سنين رثاه أيضاً بقصيدة سأورد غررها في مراثي الصاحب ا. هـ.» قول الثعالبي بهذه القصيدة يشير إلى قول الرضي :

أي دموع عليك لم تصب   وأيُّ قلب عليك لم يجب

وقد أورد منها من قبل . وكأن هؤلاء الذين تتابعوا رحمهم الله إنما اتفق ذلك منهم لِتُتاح للشريف فرصة حُسن التصرف برثائهم ومـا أشدّ تشابه أنفاسه في الكامليات :

هيهات أصبح سمعه وعيانه في التُرْبِ قد حجبتها أقذاؤه
عسي ولينُ مهاده حصباؤه فيه ومؤنس ليله ظلمــاؤه
ان الذي كان النعيم ظلاله أمسى يُطنّبُ بالعراء خباؤه

تأمل الفصاحة العالية الصوت في عجز البيت .

قد خف عن ذاك الرواق حضُوره أبداً وعن ذاك الحمى ضوضــاؤه

وما أدري لماذا قال « أبداً » هنا ؟

من طاح في سُبُل الردى آباؤه فليسلكن طريقهم أبنــاؤه

هذا صدى قول الطائر المحكي :

نحن بنو الموتى فما بالنا نعاف ما لا بد من شُرْبه

وفي الدالية التي رثى بها الشريفُ أبا إسحاق الصابي :

جَبَلٌ هوى لو خرَّ في البحر اغتدى من وقعــه متتــابع الإزباد

والبحر متتابع الإزباد على كل حال يدلك على ذلك قول الآخر :

ما يضر البحر أضحى زاخراً أن رمى فيه غلام بحجر

ثم جاء الصدى :

ما كنت أعلم قبــل دفنك في الثرى أن الثرى يعــلو على الأطواد
لا ينفــد الدمع الذي يبكي بــه إن القلوب له من الأمــداد
كيف انمحى ذاك الجناب وعطّلت تلك الفجاج وضلَّ ذاك الهادي

وهذا مَنْحُوٌّ به نحو البُحْتري ، مثلاً قوله:

حين التوت تلك الأمور ورُجِّمَتْ تلك الظنون وماج ذاك الغيهب

وتجمعت بغداد ثم تفرقت شيعاً يشيّعها الضلال المصحب

وقال أحد فضلاء المعاصرين : « هـــذا وكان الأقدمون يعجبون بشعر الرضي ويؤثرون فيه الرثاء ... ولكننا اليوم نعجب بمجازيات الشريف أكثر من إعجابنا بمراثيه ا. هـ. »

فصيره لا شيء كما ترى لسلبناهُ الفضيلة التي ذكر الثعالبي . . . فصارت رحاه تطحن قرون الظباء :

يا ليلة السفح هلاّ عدت ثانيةً سقى زمانك هطّال من الديم
يا ظبية البـان ترعى في خمـائله ليهنك اليوم أن القلب مرعاك
يا جارة الوادي طربت وعادني مـا يشبه الأحـلام من ذكراك

اللهم غفراً ، هذا أحمد شوقي رحمه الله والأرواح جنود مجندة .

فــلولا أنني رجلٌ حرام ضممت قرونها ولثِمْتُ فاها

حرام .

ورحم الله أبا تمام : لا تُصَمِّمْهُ لا يُصَمِّمْ صداها .

ورحم الله النابغة :

حيـــاك ربي فإنّا لا يَحِلُّ لنا لَهْوُ النساء وإن الدين قد عزما

ورحم الله أبا الطيب كم قد عنى بعده من رجل طيّب :

فواهاً كيف تجمعنا الليالي وآهاً من تفرقنا وآها

هذا ضعيف وهو صدى للمطلع الذي تعلم :

أوه بديلٌ من قولتي آها لمن نأتْ والبديل ذكراها

واعلم أن الذي سماه ابو العلاء رحىً تطحن قروناً زعمه بعض المعاصرين

الفضلاء حدة لفظ وصور ومعان . وطحن الرحى القرونَ لا يحتمل بحـال ، والحِدّة شاهد حيوية ، ونحو :

فتكات لحظك أم سيوف أبيك   وكئوس خمر أم مراشف فيك

أجِلادُ مرهفةٍ وفتكُ محاجرٍ   مـا أنت راحمـة ولا أهلوكِ

يا بنت ذي البرد الطويل نجاده   أكـذا يكون الحكم في ناديـك

خطابه بقرون مطحونة ما في ذلك ريب . وقـد كان أبو العلاء دقيق حسّ الأذن ، فما وقف عنده شيخ الأدب نقف عنده إن شاء الله تعالى .

وذكروا أنه كان يعجبه شعر التهامي . وسكوت الثعالبي عن أبي العلاء المعري وتعميمه تفضيـل حُسنِ تصرف الشريف في المراثي حتى يُدخـل في ذلك مثلاً قول التهامي :

حُكم المنيـة في البرية جاري   ما هـذه الدنيا بدار قرار

يدعو إلى نظر . والراجح عندي أن أبا منصور قـد أدّى عند نفسه حقوق جميع هؤلاء بعد الذي كتب عن أبي الطيب . والتهامي بعد هِزَبْر الكوفة سِنوّرٌ حسنُ الهراش . وكان أبو العلاء يستحسن أن يسمعه ، وقد أنشده الرائية التي رثى بها ولده ولعله أنشده الرائية التي ذكر فيها الحاجّة (بتشديد الجيم) الحُلوة :

هيفاء فاترة الألحـاظ مقلتهـا   وأقتل اللّحظ للعشاق مـا فترا

إن كنت مِمّن له في نفسه أربٌ   فامنع جفونك يوم الموقف النظرا

مرّت بنا فيه أعرابية فتَنَتْ   بالحسن مَن حجّ بيت الله واعتمرا

وهذا البيت ضعيف لو كان استغنى عنه ما ضره ، إذ قد ذكر الموقف ،

وذكرُ الأعثار مع الموقف ضعيف وأوقعه في الخطأ تقليده مقالة أبي الطيب « مرّت بنا بين تِرْبَيْها » :

ترمي الحجيج فتُصميهم وبرشقها راميهم فيُولي سهمُهُ هَدَرا

— وهذا حجه فاسد يا سيدنا .

ولذلك قال أبو العلاء :

أنت خنساءُ مكة كالثريا

أي الثريا بنت علي التي رحل بها سُهَيْل بن عبد الرحمن وترك القلوب بمكة جَمْراً :

أنت خنساءُ مكة كالثريا وخلّت بالعواصم فرقديها[1]

ولو صلّت بمنزلها وصامت لكان البر أجمعه لديها

ولكن جاءت الجمرات ترمي وأبصار الغواةِ إلى يَدَيْها

كالتهامي وأصحابه ... ومات رحمه الله ميتة سِنَّور شجاع .

وهو بعد القائل :

حكم المنية في البرية جاري ما هذه الدنيا بدار قرار

طبعت على كدَرٍ وأنت تريدها صَفواً من الأقذاء والأكدار

وإذا رجوت المستحيل فإنما تبني الرجاء على شفير هار

فالعيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال ساري

واعلم أنه قد تتفق خواطر الشعراء إذ غير بعيد من هذا المعنى ما ذهب إليه وليم ورد زورث في كلمته عن الطفولة وخلود الروح :

---

(١) العواصم : ببلاد الشام مثل حلب . فرقديها : ولديها .

Our birth is but sleep and forgetting

The soul that rises with us, our life's star,

Hath elsewhere its setting

And cometh from afar.

فالعيش نومٌ والمنيـة يقظـة والمرء بينهما خيـال ساري

فاقضوا مآربكم عجـالاً إنمـا أعماركم سَفـَرٌ من الأسفار

ليس الزمان وإن حرصت مسالماً خُلـُقُ الزمان عداوة الأحرار

وههنا من أبي الطيب صدى .

وقال وهو في السجن بدار البنود والموت – موت الغيلة – بالمرصاد :

طرقت خيالاً بعد طول صدودها وَفرَتْ إليك السجن ليلة عيدها

أنى اهتدت لا التيه منشؤها ولا سَفحُ المقطم من مَجَرّ برودها

أسرت إليـه من وراء تهـامة وجفاه داني الدار غير بعيدها

مستوطنـاً دار البنـود وقلبـه للرعب يخفِقُ مثل خفق بنودها

وتأوهت عن زفرة لو صادفت حجراً جرى ماء لفرط وقودها

قوله لفرط وقودها لعل فيه ضعفاً . وهذه كتأوهة مدام رينال في سجن جوليان سوريل عند الكاتب المبدع هنري بيل .

وأصاب در الدمع لؤلؤ ثغرها

(هذا وما بعده صناعة لا بأس بها)

ثم استفاضَ فبَلّ دُرٌّ عقودها

فعففت ثُمَّ ولو هممت بضمها   منعت من استقصائه بنهودها

وهلم جرا . . . ورحم الله أبا الحسن التهامي من قتيلِ غبين، ولله الأمر من قبل ومن بعد وإلى الله تصير الأمور ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

(١٥)

قال إمام العارفين الشيخ عبد الرحيم البُرَعي :

فؤادي بربع الظاعنين أسير ... يقيم على آثارهم وأسير

ودمعي غزير السكب في عَرَصاتِهم ... فكيف أكفُّ الدمع وهو غزير

وإن تباريحي بهم وصبابتي ... لهن رواح في الحشى وبكور

أحِنّ إذا غنت حمائم شِعْبهم ... وينزع قلبي نحوهم ويطير

وأذكر من نجد فوارس بأسهم ... فتنجد أشواقي بهم وتغير

فيا ليت شعري عن محاجر حاجر ... وعن أثَلاتٍ روضهن نضير

وعن عَذبات البان يلعبن بالضحا ... عليهن كاساتُ النعيم تدور

ومن لي بأن أروي من الشعب شَربةً ... وأشهد تلك الأرض وهي مطير

وأسمع في سفح البشام عشية ... بُكاءَ حمامات لهنَّ هدير

أُحيباب قلبي هل سواكم لعلتي ... طبيبٌ بداء العاشقين خبير

فجودوا بوصل فالزمان مُفرِّقٌ ... وأكثر عمر العاشقين قصير

ولا تُغلِقوا الأبواب دوني لزلتي ... فأنتم كرام والكريم غفور

وإني لمستغن عن الكون دونكم ... وأما اليكم سادتي ففقير

وقد أثقلت ظهري الذنوب وإنما ... رجائي لغفّار الذنوب كبير

وجاهُ رسول الله أحمد نصرتي   إذا لم يكن لي في الخطوب نصير

صلى الله عليه وسلم تسليماً .

وكاسات البرعي من وجد الشوق إلى الذات البهية مترعات « رُدُمٌ »[1]. ورنات صبابته صافية من ضرب غناء البحتري .

هل العيش إلا ماء كرم مصفق   يرقرقه في الكأس ماء مدام

وعود بنان حين ساعف شدوه   على نغم الألحان ناي زنام

والناي هو القصب الأجش المهَزَّم الذي ذكره عنترة إذ قال :

بركت على جنب الرداع كأنما   بركت على قصبٍ أجشٌ مهزم

وكأنَّ رُبّاً أو كحيلاً معقدا   حَفَّ الوقود به جوانب قمقم

فالالتهاب والغليان ، هذا هو الشعور العاطفي المحتدم المنبعثُ عنه النَّغم والباعثه النغم في قلب سامعه ... تأمل هـذا الإبداع . والدف والناي والصوت السهل المندفع وهلم جرا ... هذه موسيقا العرب . وعندي أن لو تركوا محاكاة أوركسترا الإفرنج زياً وسمتاً ورفعاً وخفضاً للأصوات وتنويعاً لألوان الإيقاع على نحو متكلف متعمل متعب مكدود وانصَبُّوا على تجويد ما عندهم والتعويل عليه لبلغوا من الموسيقى مستوى أرفع ، وحَلُّوا عُقَدَ أنفسهم بالطرب الصادق الصحيح ، ومن لـك بكبح التقليد ، والمغلوب كما ذكر ابن خلدون رحمه الله أبداً مولع بمحاكاة الغالب .

هذا وما أحسب البرعي رحمه الله إلا قـد شرب مع الحبيب إذ شربه مولانا ابن الفارض رضي الله عنه على ذكرى الحبيب .

---

(١) أي ممتلئات ، جمع ردوم بوزن صبور .

وكلاهما سيدي وسندي ووسيلتي إلى الله تعالى بجاه المصطفى سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه الغر المحجلين كلهم أجمعين .

ومَدْحُ البوصيري صاحِبَ الخاتم وصفوةَ وَلَدِ آدم ، صَلْتٌ فَحْلٌ جَزْلٌ . وهو القائل :

حق لي فيك أن أساجل قَوْماً سلمت منهم لدلوي الدلاء

إن لي غيرة وقد زاحمتني في معاني مَديحِكَ الشعراء

ولقلبي فيك الغُلُوُّ وإني لبياني في مدحك الغُلَواءُ

فأثِبْ خاطري يَلَذُّ له مد حك علماً بأنه اللألاء

حاك من صنعة القريض بروداً لك لم تحك وَشْيَها صنعاء

أعجز الدر نظمه فاستوت فيه اليدان الصَّنَاعُ والخرقاء

فارْضَهُ أفْصحامرىءٍ نطقالضا د فقامت تغار منها الظاء

لأنه أيضاً أفصح من نطق الظاء . وقد تعلم أصلحك الله أن نطق الظاء والضاد وهذه والدال المفخمة كل أولئك صار يتداخل في صنوف أداء المتأخري العصر عن عهد تطقهن الجيِّد الأول . قال سيبويه : « ولولا الإطباق لصارت الطاء دالاً والصاد سيناً والظاء ذالاً ولخرجت الضاد من الكلام لأنه ليس شيء في موضعها غيرها » ا. هـ. وكل هذا علم الخليل على الأرجح، يدلك على ذلك أن باب مخارج العربية إنما جعله سيبويه تمهيداً لباب الإدغام وتعرض في أول هذا لِحَديثٍ مُتَّصلٍ بزِنَةِ الشعر ثم قال من بعد ، في معرض الحديث عن الهمزتين : « وكذلك قالته العرب وهو قول الخليل ويونس الخ » .

فارضه أفصح امرىء نطق الـ ضاد فقامت تغار منها الظاء
أبذكرى الآيات أوفِيكَ مدحا أين مني وأين منها الوفاء

أو أمارِي بهِـنَّ قوم نبي ... ساء ما ظَنّه بيَ الأغبياء

ولك الأمة التي غبطتها ... بك لما أتيتها الأنبياء

وحسدتها المبشرون والقسيسون والربانيون والأحبار .

لم تخف بعدك الضلال وفينا ... وارثو نور هديك العلماء

والإمام شرف الدين أبو عبدالله محمد البوصيري منهم ، رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا بجاهه عند رسوله ومجتباه ﷺ .

وفي البوصيري وثبات فروسية من روح أبي الطيب وملكة البوصيري يدها صناع . وذكره الخرقاء أدب وفضل وتواضع وصدق محبة . وعنده معادن من بلاغة أبي تمام .

ثم لا يخفى عليك بعد أن الدر النفيس ذا اللألاء يكون الأربَ الأولَ إحرازُه وإعزازه ولا يضير صاحبَه بَعْدُ على أي وجه من النظم يتأتّى إبرازُ ، لأن شعاعه الباهر يغمر رَصْفَ اتساقه ، ويملأ للطرف سماء آفاقه . ولذلك أضاءت لآمنة قصور بُصْرَى ، وخَرّ إيوان كسرى « وغاضت بُحَيْرَةُ ساوة ، وفاض وادي سماوه ، وانجلت عن العيون الغشاوة » « ورضي الله وفرحت الأملاك ، وظهرت أسرار لولاك لولاك » . « بلغ اللهم روحه الشريفة ، صلوات الله طيبة منيفة ، اللهم صل وسلم وبارك عليه » .

حبّذا عقد سؤدد وفخار ... أنت فيه اليتيمة العصماء

ومحيا كالشمس منك مضيء ... أسفرت عنه ليلة غراء

ليلة المولد الذي كان للدين سُرور بيَوْمِه وازدهاء

وتوالت بشرى الهواتف أن قد ... وُلِدَ المصطفى وحق الهناء

وتداعى إيوان كسرى ولولا ... آية منك ما تداعى البناء

مولد كان منه في طالع الكفـ ـر وبـــالٌ عليهم ووباء

فهنيئـاً بـــه لآمنـة الفضـ ـل الذي شرفت بـه حواء

يوم نالت بوضعه ابْنَةُ وهب من فخار مــا لم تنله النساء

وأتت قومهـا بأفضل ممـــا حملت قبـل مريم العـذراء

شمته الأمـــلاك إذ وضعته وشفتنا بقولهـــا الشـّفـّاءُ

رافعــاً رأسَهُ وفي ذلك الرفـ ـع الى كل سُؤْدَد إيمـــاء

ومقدرة البوصيري على النظم شاهد ملكته الصناع .

وَنفَسُهُ ذو حرارة فَحلٌ .

وله اندفاع تـيَّار في عَيْلَمِ علمه الزخار[1] .

وهو بعد القائل :

آل بيت النبي طبتم وطاب الـ ـمدح لي فيكم وطاب الرثــاء

أنا حسان مدحكم فاذا نُحْـ ـتُ عليكـم فإنني الخنســاء

وحَمْلُ الأعلام على تفعيلات القريض مما تُختَبَر به الملكات اختبارا . وافتنَّ حبيبٌ في أسماء العباد والبلاد أعجميات وعربيات. وقد مر بك قوله:

نوح بن عمرو بن حوى بـن عمرو بن حوى بـن الفتى مانع

مناسب تُحْسَب مـــن ضوئهــا منــازلاً للقمر الطالــع

وقال في أبي سعيد الثغري :

لولا جـلاد أبي سعيـد لم يزل للثغر صدر مـا عليـه صدار

(١) العيلم هو البحر وهي كلمات شوقي رحمه الله .

قدت الجياد كأنهن أجادل بقُرى دَرَوْلِيَةٍ لها أوكار

أي صقور :

حتى التوى من نَقْع قَسْطَلِها على حيطان قُسْطَنْطِينيَةٍ إعصار
لما لقوك تواعدوك وأعذروا هرباً فلم ينفعهم الإعذار
خشعوا لصولتك التي هي عندهم كالموت يأتي ليس فيه عار
علموا بأن الغزو كان كمثله غَزْواً وأن الغزو منك بوار
فالمَشْيُ هَمْسٌ والنداء إشارةٌ خَوْفَ انتقامك والحديث سِرَار
إلاَّ تَنَلْ مَنْوِيلَ أطرافُ القنا أو تُثْنَ عنه البيض وهي حرار
فلقد تمنى أن كلّ مدينة جبل أشَمُّ وكل حصن غار

وقال البحتري :

قد سقاني ولم يصرد أبو الغوث على العسكرين شربة خلس
والمنايا مواثل وأنوشر وان يزجي الصفوف تحت الدرفس
مغلق بابه على جبل القبـ ـق إلى دارتي خلاط ومكس
فتوهمت أن كسرى أبرويز مُعَاطِيَّ والبَلَهْبَذ أُنْسِي

وأغرب أبو الطيب حين قهر اسم « دِلِّير » الأمير على تفعيلة الضرب الأول من البحر الطويل :

ذريني أنل ما لا ينال من العلى
فصعب العلى في الصعب والسهل في السهل
تريدين لقيان المعالي رخيصةً ولا بد دون الشهد من إبر النحل
حذرت علينا الموت والخيل تلتقي ولم تَعْلَمي عن أيّ عاقبة تُجْلي

ولست غبيـــناً لو شرَيْتُ منيتي   بإكرام دِلـّيرِ بن لـَشْكـَرَوزٍّ لي

ولقد شرى منيته بعد ذلك بنحو عام عليه رحمه المليك العلام .

وقد نظم الإمام شرف الدين البوصيري أسماء المستهزئين الخمسة ثم أردفها بأسماء الذين نقضوا الصحيفة :

يا لأمر أتاه بعـــد هشام   زمعة إنه الفتى الأتـّـــاءُ

وزهير والمطعم بن عدي   وأبو البَخْتَرِيِّ من حيث شاءوا

نقضوا مبرم الصحيفة إذ شُدت عليهم من العدا الأنـــداء

أذكرتنا بأكلها أكل منسا   ة سليمان الارَضَةُ الخرساء

وانقل حركة همزة الأرضة إلى اللام قبلها فذلك أجود ، وفي موسيقا النغم الديني المهذب أقعَدُ . والارضة فاعل أذكرتنا ، وفي المستهزئين قال الإمام شرف الدين :

وكفاه المستهزئين وكم سا   ء نبياً من قومـــه استهزاء

ورماهم بدعوة من فناء الـ   بيت فيهـا للظالمين فناءُ

خمسة كلهم أصيبوا بداءٍ   والردى من جنوده الأدواء

فدهى الأسود بن مُطـَّلب أيُّ عَمًى ميّتٌ به الأحياء

وهو عمى البصيرة والبصر ، شأن كل من تولىّ وكفر .

ودهى الأسود بن عبد يغوثٍ   أن سقاه كأسَ الردى استسقاءُ

وأصـــاب الوليد خدشة سهم   قصرت عنها الحية الرقطــاء

وقضت شوكة على مهجة العا   صِ فلله النـَّقـْعَةُ الشوكاء

وعلى الحارث القـُيُوحُ وقد سا   ل بها رأسه وساءَ الوِعَـــاء

خمســـة طهرت بقطعهم الأر   ض فكف الأذى بهم شلاء
فُديت خمسة الصحيفـــة بالخمسة إن كان للكرام فـــداء
فِتيَة بَيّتُوا على فِعْل خيرٍ   حمـــد الصبـــح فعلهم والمساء

ثم أخذ في عد أسمائهم وقد مرت بك الأبيات .

وطريقة البوصيري قد استحث رَوْمُ محاكاتها جماعةً من أهل الفضل . فمن غلبت عليهم المحبة وطلب البركة خمّسوا وسبعوا وتسعوا .

ونظم الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله ألفية ضمنها النسب الشريف إلى آدم واختصره بين عدنان وإبراهيم .

مُضَر الخير وابنه الياس والمدْرك من كل رفعة ما يشاء
وخُزَيم كنانة النضر والمالكُ فِهْرٌ وغالب واللـــواء

فجزاه الله خيراً فإنما رام التبرك فله إن شاء الله أجرُ الاجتهاد .

وقد خارَ الباروديُّ رحمه الله في مضمار البردة لأنه إنما أوتي ملكة شاعر مطبوع بنغم غنـــاء واحد يسمو فيه إلى الذروة من الجزالة ، ثم متى رام النظم والصناعة أعياه ذلك . والراجح أن أجود الشعر ما عانقت فيه صناعة التجويد ملكة الطبع الرشيد. ذلك بأن الإتقان يلزم معه نقد المرء ما يصنعه ولا بد له من الروية حتى حين تساعفه البديهة . ولله درُّ حبيب إذ يقول :

ويسيء بالإحسان ظناً لا كمَنْ   هـو بابنه وبشعره مفتـون

وقال عدي بن الرقاع :

وقصيدة قد بتّ أجمع شملَها   حتى أقوّم ميلها وسِنادَها
نظر المثقف في كعوب قناته   حتى يقيم ثقـافه منـآدها

وصناعة صاحب الملكة بغرض التجويد من شأنها أن يستكن الجهد الذي بُذِلَ فيها فيلوح الكلام كأنه كله جاء عفواً ، ما كان منه عن بديهة وما كان عن روية . هكذا كان دأب امرىء القيس وأكثر فحول الجاهلية على الأرجح والله تعالى أعلم .

وقال البوصيري :

يا خيرَ من يمم العافون ساحته	سعياً وفوق متون الأينق الرُّسُم
ومن هو الآيــة الكبرى لمعتـبر	ومن هو النعمة العظمى لمُغْتَنِم
سَرَيْت من حرمٍ ليلاً إلى حرم	كما سرى البدرُ في داجٍ من الظلم
وبتّ ترقى إلى أن نِلتَ منزلة	من قاب قوسين لم تُدركْ ولم تُرم
وقدَّمتْكَ جميعُ الأنبياءِ بهـا	والرسل تقديمَ مخدوم على خدم
وأنت تخترق السَّبعَ الطِّباق بهم	في موكب كنتَ فيه صاحب العلم
حتى إذا لم تدع شأواً لمُسْتَبِقٍ	من الدُّنو ولا مَرقَّى لمُسْتَنِم
خفضت كلَّ مقام بالإضافة إذ	نُوديت بالرفع مثل المفرد العلم
كيما تفوز بوصلٍ أي مُستَتِرٍ	عن العـيون وسرٍّ أيَّ مكتتم
فحُزْتَ كل فخارٍ غير مشترك	وجُزْتَ كل مقامٍ غير مزدحم
وجل مقدار ما وُلِّيتَ من رُتبٍ	وعزَّ إدراك ما أوليتَ من نِعَم
بُشرى لنا معشر الإسلام إن لنا	من العناية رُكْناً غير منهدم
لما دعا الله داعينـا لطاعتـه	بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم

وذلك قوله تعالى : « كنتم خير أمّةٍ أُخْرِجَت للناس » .

وقال الشيخ محمد المجذوب رضي الله عنه :

بجاهك نلنا ما بكُنْتُمْ فيا لها   وذلك فضلُ الله والفضل ظاهر

تأمل قول البوصيري :

خفضت كل مقام بالإضافة إذ   نوديت بالرفع مثل المفرد العلم

ما فيه من دقة صنعته ، وذلك بعدُ مندرج في طي المعنى غير ناب عنه ولا مفتات عليه بجساوة نادرة ذكاء . وقـــد فطنت قبل إلى قوله رضي الله عنه :

فأثِبْ خاطري يلذّ له مدْ   حك علماً بأنه الـلالاء

وقد نظر فيه إلى قول أبي الطيب :

أجِزْني إذا أنشدت شعراً فإنما   بشعري أتاك المادحون مُرددا
ودع كل صوت غير صوتي فإنني   أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

واللألاء نور . والنور من عطاء الله الحكيم الحميد . والصدى أكثر مـا يكون عناء من حركة ، قليل الجدوى ضعيف البركة . ومن البراعة وفي أوج الصناعة ، مع النفس الساخن ، والقلب الذي بسكينة الإيمان واكِن ، ولحضرة الذات المحمدية معاين ، ما انبرى به لأهل الكتابين .

خبّرونا أهل الكتابين من أين أتاكم تثليثكم والبداء
مـا أتى بالعقيدتين كتـابٌ   واعتقادٌ لا نصَّ فيه ادعـاء
والدعاوى ما لم تقيموا عليها   بيّنات أبناؤها أدعيـــاء

وأحسب ان القسيس أسين صاحب كتاب الإسلام والكوميديا الإلهية (ترجمته الإنجليزية Islam and the Divine Comedy) قد أخذ عبارته في

آخر كتابه التي[1] يتهم فيهـــا الإسلام بأنه ابنٌ غير شرعي للمسيحية والنصرانية من ههنا . وعبارته قبيحة ومثلها من مثله عجب . وفي كتابه هذا أن كوميديا دانتي أصولها إسلامية في حديث المعراج ورسالة الغفران وقدسيات ابن عربي . وماخلا «أسين» في هذا الذي ادعاه على «دانتي» من نوع تعصب إسباني ، لأن « دانتي » إيطالي . وهذا الذي اتهم به الإسلام كأنما هو عذر اعتذر بـه عن تعصبه القومي على « دانتي » . وليس بعاذره وليس بضائر الإسلام شيئاً ، وقد وعد الله القوي الجليل أن يظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً .

هــــذا وتأمل بعد أصلحك الله حجة العالم الشاعر الإمام البوصيري إذ يظهر ضعف مقالة يهـود في الذي أنكروه على رسول الله ﷺ حين حولت القبلة، ودار الصف بقباء ليستقبل مكة بعد إيلياء : « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام . » ... صدق الله الملك القدوس السلام .

وإنكار يهود النسخ لا يستقيم بعد الذي ثبت في كتبهم من تجويز المسخ أما مقالتهم في البداء فمما غضب الله به عليهم ، وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت . وقرأ حمزة : عبُد الطاغوت بضم الباء أي عباد الطاغوت ، وقال الآخر :

أبني غدانة إن أمكمو أمةٌ وإن أباكمو عَبُدُ

ولم يجعله الطبري رحمه الله من هذا .

قال الإمام البوصيري :

مثل ما قالت اليهود وكُلٌّ لزمتـــه مقـالة شنعـــاء

---

(١) التي صفة عبارته .

إذ هم استقرأوا البَدَاء وكم سا قَ وبالاً عليهم استقراء

وأراهم لم يجعلوا الواحد القهار في الخَلْقِ فاعلاً ما يشاء

جوّزوا النسخ مثلما جوزوا المسخ عليهم لو أنهم فقهاء

ولكنهم ليسوا بفقهاء . ولكنهم أصحاب دعاوي أبناؤها أدعياء . « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » .

وما أحسب البوصيري لو كان حياً في زماننا هذا كان يسمي اليهود الصهاينة أو الصهيونيين ، لأن كِلتا هاتين اللفظتين فيهما إشعار بنسبتهم الى بيت المقدس ، وبيت المقدس لله يجعله لصالحي عباده . وقد أمر اليهود بانتزاعه من الكفرة فقالوا لنبيهم « اذهب أنت وربك فقاتلا » فكفروا ثم تاب الله عليهم ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا ...

إن الدين عند الله الإسلام فليس لسوى الإسلام في بيت المقدس لأحد من نصيب إلاّ على وجه المجاملة وحسن المعاملة كالذي صنع الخلفاء الأولون مع أهل الذمة من أهل الكتاب .

واعلم أن قول اليهود إنهم صهيونيون محاولة ادعاء قدسيه فيهم ينبغي علينا أن لا نقبلها لما في ذلك من حقيقة المدح وإن ظنه بعض جهلائنا وهم كثيرون سبّاً قبيحاً . والعاقل لا يمدح اعداءه . وما كانوا لمجد عُمَرَ وما كان من مَشْعَرٍ بإيلياء أولياءه إن أولياءه إلا المتقون .

قتلوا الأنبياء واتخذوا العجل ألا إنهم هم السفهاء

أي أنبياء بني اسرائيل مثل سيدنا زكريا وسيدنا يحيى عليهما السلام .

وسفيه من ساءه المنُّ والسلوى وأرضاه الفوم والقثاء

النبي الأميُّ أعلم من أسند عنـــه الرواة والحكماء

عليه أفضل الصلاة والتسليم من الله العلي العظيم .

وترك شوقي أن يصنع نهج الهمزية وصنع كامليته :

ولد الهدى فالكائنات ضياء   وفم الزمـان تبسم وثـَنـَاء

وكان الرجل مثقفاً مُجَوِّداً فصيحاً منشئاً وله أريحيات نَغَم شاعر تهتز بها أوتار نفسه طرباً أحياناً كثيرة .

حكايـــةُ الصياد والعصفورة   صارت لبعض الزاهدين صورة

ألقى غُـــلامٌ شركا يصطاد   وكلٌّ من فـــوق الثرى صياد

لا حاجة بشوقي رحمه الله إلى هذا :

فانحـدرت عصفورة من الشجر   لم ينهها النَّهْيُ ولا الحزم زجر

ولا حاجة به إلى هذا أيضاً — وكان حسبه إذ هو عصري مُجَدِّدِيٌّ(1) لو قـــال :

حكايـة الصيـــاد والعصفورة

ألقى غـــلام ، شَركاً يصطادُ

فانحـــدرت عصفورة من الشجرْ

وإذَنْ لسد الطريق على عبد الرحمن شكري وعلى كثير غيره ... يحمل هذا كالعنوان ثم يندفع طرباً في ما اندفع فيه بعد :

---

(1) نسبة الى مجدد كقول الراجز :   والدهـــر بالأنـــام دواري

قالت سلام أيهـــا الغلام قال على العُصْفُورة السَّلام

قالتَ صبي مُنْحَني القناةِ . . . . .

قوله « منحني القناة » فيه عناءٌ ويحتمل إن شاء الله بنوع من إغضاء

. . . . قال حنتها كثرة الصلاة

قالث أراك بادِيَ العظام قال بَرَتْها كثرة الصيام

— جَيِّدٌ —

قالت فما يكون هذا الصُّوف قال لبـاس الزاهد الموصوف

سلي إذا جهلت عارفيـــه فإبن عبيد والفضيل فيــه

— هذا يحتمل وكان عنه غنياً —

قالت فما هذي العصا الطويلة قـــال لهاتيك العصا سليلة

— فيه تقصير ويحتمل إذ قد يعتذر له بالظرف وحسن النادرة —

أهش في المرعى بها وأتكي ولا أرد الناس عن تَبَرُّك

قالت أرى فوق التراب حَبّـــا ممّا اشتهى الطير وما أحبا

— جيّد وحلو —

قــال تشبهت بأهـــل الخير وقلت أقْرِي بائسات الطير

فإن هدى الله إليه جائعا لم يَكُ قرباني القليلُ ضائعا

قالت فجُدْ لي يا أخا التَنَسُّكِ قال القُطِيه بارك الله لـــك

فَصَلِيَتْ في الفخ نار القاري ومصرع العصفور في المنقـــار

ثم قال ولم تكن به اليه حاجة ، وكانت الحكمة عنده من لوازم الديباجة:

وهتفت تقول للأغرار مقالة العارف بالأسرار
إياك أن تغتر بالزهاد كم تحت ثوب الزهد من صياد

وقد عرفت العربية كثيراً من هذا الضرب كالذي صنع ابن الهبارية في الصادح والباغم ، غير أن شوقياً رحمه الله لم يخل من تأثير « لافونتين » وغارَ على العربية ألاّ يكون فيها كَلامٌ يباريه ويَرُدُّ حُجّةَ المفتخر به .

وفضل شوقي وغيرته واعتزازه بعصرية خديويّتِه ومَجْد تُرْكِه وسلاطينه ، ومحبته لقوميته ودينه ، وافتخار نفسه بما اكتشف علماء الآثار من عجائب برابيّهِ وموميات فراعينه ، كلُّ أولئك مما استخفه أحياناً كثيرة فأضاف إلى أوتار شعره الصالحات خُيُوطاً من صناعة الإنشاء وما أُوتيَهُ بفضل الاطلاع والثقافة من ملكة الفصاحة والرغبة إلى أن يجول حقاً في مجالها ويخلده التاريخ بين أفذاذ رجالها ، فخالطت هُجْنة الخيوط رَنّةَ الأوتار ، فكان ذلك من عيوبه رحمه الله ، والكمال لله وحده . فعلى هذا التأويل يصح قول أحد المعاصرين الفضلاء « إنه » أي شوقياً « أغلق بكلتا يديه أبواب الشعر الغنائي العربي » أ. هـ. وأما أن نَظُنَّ أنه بلغ به الذروة وأن في طبيعة « غنائية » الشعر العربي تقصيراً فأمر لا يقول به أحد إلا من اغتر بما ذكرنا من فتنة المبشرين ومحاولتهم سلب العرب كل فضيلة . وفي الموسوعة البريطانية أن ذروة الشعر الغنائي قد بلغتها يهود في العهد القديم ، وذلك جميعه كما تعلم حيز إلى تراث المسيحية في روما وأثينا ، والفكر العربي — (أي الإسلام إذ هذا هو مرادهم) — محدود ، محدود في الفلسفة ، محدود في الشعر ، محدود محدود محدود محدود . . . فتأمل ! !

واعلم أن الشعر كله غناء . فبعض ذلك حوار وبعض ذلك قصص . والقصيدة ذروة الشعر لما فيها من عنصر المكافحة وجزالة الصدق الفارس .

أنا السابق الهادي إلى ما أقوله إذ القول قبل القائلين مقول

أعادي على ما يوجب الحب للفتى وأهــدأ والأفكار فيّ تجول

يهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنــا وعقول

ولأمر ما تعلق بلغاء الانجليز بخطب أشخاص شكسبير وفيهــا الحكمة ومذهب القول المباشر :

Our legions are brim full, our cause is ripe;

The enemy increaseth every day;

We at the height, are ready to decline

There is a tide in the affairs of men,

Which, taken at the flood, leads on to fortune,

Omitted, all the voyage of their life

Is bound in shallows and miseries.

كتائبنا صارت مِلاءً كئوسُها وقد بلغ النُّضج الذي نحن نطلب

ويزداد يوماً بعد يوم عــدونا ونحن بلغنا الأوْجَ ثم سنرسب

وإن حظوظ الناس فاعلم لها مَدًى من المدّ للعليا به الفُلْكُ تُرْكَب

فإن فات صارت رحلةُ العيش كلها

لدى مَحْبس الضَّحْضاحِ تُلفَى تُعَذَّب

(يوليوس قيصر — ٤ — ٣ — من خطبة لبروتوس) .

فلعل أمر المسرح ما كان إلا احتيالاً على حرية القول بضربٍ من تزوين

التسلية وضرب المثل . وفي الرُّوم المكر والبـأس والتدبير . وقد نبّه إلى ذلك أرباب الحديث والشيخ الجهبذ الحصيف ابن خلدون .

ولقد راودت شوقياً شيـاطين الإنس من نفسه أن يسلك رَوِيّ الهمزية وبحرها في غير مدح الرسول (عليه الصلاة والسلام) إذ شأو الإمام البوصيري في ذلك بعيد لا يدرك ، فمن الحكمة أن يُترك . وليت شوقياً لم ينظم :

همَّت الفلك واحتواها الماء

أم حسناً فعَلَ إذ فعل . فالرجل بفضله قد نبّه على علمٍ كثيرٍ ثم قد نوّه ببلاغة الهمزية والبردة وكان أمرهما محصوراً في الزوايا والمساجد، وهذه كانت حصون الخير والبر والتعليم حقاً. ولكنّ بني العصر قد جعلت تنفر من ذلك نفوراً شديداً. ولعلّ شوقياً لم يخل من رغبة أن يُجيد حيث عجز البارودي فقد كان على فوته حريصاً لو قدر . وكل ذلك بإذن الله نافع غير ضار ولا يلحقه منه رحمة الله ، عار أو غبار .

أرى شجراً في السماء احتجبْ وشقّ العنـــان بمرأىً عَجَبْ
مآذنُ قامت هنا أو هنـــاك ظواهرهـــا دَرَجٌ من شَذَبْ
وليس يؤذن فيها الرجال ولكن تصيح عليهـــا الغُرُبْ

بضم الغين والراء جمع غراب .

وباسقة من بنـات الرمـــال نمَتْ وربَتْ في ظلال الكُثُبْ [1]

قال أبو الطيب واليه نظر شوقي كما لا يخفى .

بُستَيْطةُ مَهلاً سقيت القطارا تركت عيونَ عبيدي حيارى
فظنّوا النعـام عليك النّخيل وظنوا الصّوار عليك المنارا [2]

(١) بضم الكاف والثاء جمع كثيب
(٢) الصوار : بقر الوحش

وقال رحمه الله في كلمة أخرى:

أرى ذلك القرب صار ازورارا وصار طويل الكلام اختصارا

ولي فيك مـــا لم يقل قـــائل ومـــا لم يسر قمر حيث سارا

وقال مهدي الجواهري في تأبين شوقي رحمه الله:

كأن عيون القوافي الحسا ن من قبل كانت له تُدَّخرْ

وإن أصدُقَنَّ فشوقي له عيون من الشعر فيهـــا حَوَرْ

تعَرَّضهُ من طلاء البيــــا ن ومن زبرجِ القول دربٌ خطر

ولو خاف مثل سواه العبور لخــــاب وزل ولكن عـــبر

وكذلك عبر الجواهري :

وقد يتشابه الوصفان جداً وموصوفاهما متباعدان

قال شوقي رحمه الله يخاطب حصان محجوب ثابت رحمه الله :

ولا والله ما كلفت محجوباً ولا بارةْ

وقد تشبع يا بن الليل من رنة قيثارة

عسى الله الذي ساق إلى يوسف سيّارة

يهيى لك هوّاراً كريماً وابنَ هوّارة

فإن الحظ جوّالٌ وإن الأرض دوّارة

فهذا حيث عبر أحمد شوقي رحمه الله تعالى في يسر وبلا عسر .

وقال أستاذنا الشيخ محمد مجذوب بن محمد بن أحمد بن جلال الدين حفظه الله وأطال بقاءه ، يُشطر كلام الشيخ محمد مجذوب رضي الله عنه :

وصلّ إله العــالمين وَسلِّمَنْ	(صلاة توالى ما تبلج طالع)
(وأزكى تحيات من الله تنثني)	على أحمد والآل والصَّحب تابع
محمد مجذوب يـــقول مديحه	(لمن هو للمُدَّاح في الخلد رافع)
(وها هو مجذوب يُشطّـِر قائلا)	ولي فيه مثل العـــالمين مطامع
أراك حزيناً منك فاضت مدامع	أمن نسمه هبّت أم النور لامع
ومالك مهما إن تذكرت حيرة	(قلوب الورى طُرّاً اليهم نوازع)
(ومهما حَدا الحادي بذكر منازل)	بشِعْب بني سعد جفتك المضاجع
فقل لي فعهد الكتم عندي مؤكد	(وما سرّنا أهلَ المحبة ذائع)
(فقولك منسيّ بوقت حديثنا)	وسرك مـني لا تعيـه المسامع
ولكن دمع العين عنك مترجم	(ومفش لسر كنت فيه تنازع)
(إذا انضم هذا للنحولِ تقاسما)	بأنك في حب الرسول لبـــارع

والذي بين الأقواس هو تشطير الشيخ محمد مجذوب والذي بلا أقواس هو كلام الشيخ والبيت « أراك حزينــاً » مطلع قصيــدة الشيخ أثبتناه كله . ودخول اللام في خبر ان المفتوحة ربما جاز إذ أبعد منه مجيئها في خبر لكن، قال الآخر :

ولكنني في حبها لعميد

وهو من شواهد شراح الألفية ؛ والله تعالى أعلم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

(١٦)

دعوت بها ذات الدلال المخضب فآبت وقلبي عندها بالمحصب
وقلنا لها أهلا وسهلا ومرحبا بقربك فارتاحت لأهل ومرحب
ألم تر أن الليـــل ألقى جرانه وكَلْكَلَهُ ما فيه ومضة كوكب
وقد عميت أبصار عُمي بصائر فلم تر إلا هوّةً فوق مرقب
تدهدوا وما إن يشعرون وحلقت عصائبُ طير يوم نحس عصبْصب
ولو شاء رب العرش أرسل سهمه فأصمى وشقَّ الفجرُ أثباج غيهب
وان كتاب الله لما تلوتـه أراني إشراق الحبيب المكوكب
كأن الجبين الصلتَ أقبل وجهُ بمقلة غضبـان الطريقـة أغلب
وما زال يغشى الجيدَ ظلٌ ذؤابة يَرِفُّ على سلساله المتلهب
وإن يك هذا الحب نشوة شارب فغرد على كاساته الشعرَ واشرب
ألم ترنا لما ذكرنا جمـالها تكشف عنـا كل هم بمهـرب
بديعة لون الحسن وهي شهيّةٌ اليك وتبغي عندها كل مطلب
سلام على الزهر الذي هو خدكم ومشهدكم بـدر له البدر يجتبي
وأنتم أحبـاء الفؤاد وعهدكم أكيد وهذا الدهر جَمٌّ التوثب
ونحن نروم الوصل منكم وربما نفوز به رغم العدا والتقلب

نظمنا عقود المدح فيكم وشوقنا لرؤياكم يزداد والذوق مذهبي
وأفرحني أن اللقاء كأنه غداً وبدا الآيات للمترقب

كنت في الصبا تنشد بردة المديح تستعين بها على المطالب .

ولقد قرأتها والشيخ في مرض الموت . وكان قد سمعك من قبل تمدح بانت سعاد :

حرفٌ أبوها أخوها من مهجنة وعمها خالها قوداء شمليل

فتوسَّل بها الآن بردة المديح ، فكم بها أحرزت مآرب ونيلت مكاسب وأنت إلى ربك راغب ...

قال الإمام البوصيري رضي الله عنه :

أمن تذكر جيران بذي سَلمٍ مزجت دمعاً جرى من مُقلةٍ بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من إضم
فما لعينيك إن قلت اكففا همتا وما لقلبك إن قلت استفق يَهِم

قال مقدمو البردة في الطبعة الشعبية إن أحد الأئمة كان يقرأها كل ليلة ليرى النبي ﷺ فلم تتيسر له الرؤيا ، فقيل له إن لها شرطاً وهو أن يقرأ بعد كل بيت :

مولاي صل وسلم دائماً أبداً على حبيبك خير الخلق كلهم

وذلك أن الإمام البوصيري أنشد النبي ﷺ بردته في منامه فلما بلغ قوله فيها :

فمبلغ العلم فيه انه بشر

وأرتج عليه فلم يستطع إكمال البيت قال له النبي ﷺ :

وانه خير خلق الله كلهم

فهذا لعله يدخل في باب الالهام .

وليس قوله : « مولاي صل وسلم دائماً أبداً» من ضرب صياغة البوصيري ولا نفسه إلا أنه سهل ٌ عفويّ عسى أن يكون قد هزج به بعض محبيه فاستحسنه أو أضيف بعد زمان الإمام البوصيري بدهر والله أعلم . وكذلك من قولهم :

ثم الرضا عن أبي بكر وعن عمر   وعن علي وعن عثمان ذي الكرم

والواو لا تفيد ترتيباً. وسردُ أسماء الخلفاء الأربعة حسن ولا يخلو صاحب هذا البيت من طلب بعض الاستدراك بنية طيبة حسنة على الإمام البوصيري. وغفل المستدرك رحمه الله عن أن إفراد النبي ﷺ أدخل ههنا في حاقّ المدح والتبرك لأن الرحمة المنهلة عليه صلوات الله وسلامه عليه وهو نبي الرحمة تشمل أمته جميعاً وفي الأبيات السبعة التي أولها هذا البيت ُبعدُ سماحة ونور تغمر بعض ضروراتها النظمية مثل تكرار الكرم في قوله :

والآل والصحب ثم التابعين فهم   أهل التقى والنقا والحلم والكرم

أي النقاء ولك كتابتها بالياء مراعاة لرسم التقى قبلها والألف أجود لأنها مقصورة من ممدود وهو جائز مقبول فصيح .

ثم في البيت الثالث :

يا رب بالمصطفى بلغ مقاصدنا   واغفر لنا ما مضى يا واسع الكرم

فهذه ثلاثة في نسق . ثم جيء بواسع الكرم في آخر أبيات الدعاء حيث ذكر عدد أبيات البردة .

وهذا كما ترى منهج المسبعين والمخمسين والمتسمين رضوان الله عنهم .

والبيت الرابع :

واغفر إلهي لكل المسلمين بما   يتلوه في المسجد الأقصى وفي الحرم

والمراد « يتلونه » ولعل من الرواية « يتلون » وبها يستقيم الوزن، ولكن حذف النون أشبه بروح العبادة في هذا الموضع وعفوية التواضع المخبت إلى ربه تعالى ، وقد جاء في القراءات السبعية حذف النون للتخفيف : « قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون . - (نافع) وسوغه هنا توالي نونين ، فرغب نافع عن تكرارهما أو تشديدهما في الذي رواه من القراءة إلى الذي عليه أداؤه وهو جزل نفيس .

والبيت الخامس :

بجاه من بيته في طيبة حرم   وإسمُه قسم من أعظم القسم

ويجوز قطع همزة الوصل أحياناً .

وهذة بردة المختار قد ختمت   والحمد لله في بدء وفي ختم

أبياتها قد أتت ستون مع مائة   فرج بها كربنا يا واسع الكرم

وهذا كلام من يختمها ويدعو بها . وأبيات البردة مائة وستون كما قال رحمه الله تعالى وآخرها قوله :

والطف بعبدك في الدارين إن له   صبراً متى تدعه الأهوال ينهزم

وأذَنْ لسحب صلاة منك دائمة   على النبي بمنهل ومنسجم

ما رنّحت عذبات البان ريح صبا   وأطربَ العيس حادي العيس بالنغم

قال الإمام الفيومي في الكواكب الدرية شملته عنايات الحضرة السنية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

لم تبصر النفس رشداً من عمايتها   ولا استقامت لنهج من هدايتها
كأنما منتهاها في بدايتها

« من لي برد جماح من غوايتها   كما يُرَدُّ جماح الخيل باللجُم »

خذلانها عن هواها عينُ نصرتها
ومنعها من نهاها نيل رتبتها
وتركها مشتهاها تركُ حسرتها

« فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها   إن الطعام يقوي شهوة النَّهِـم »

لها الزهادة في الدنيا أجل حُلى
وبالعبـادة تلقى رفعـةً وعُلى
فلا تدعها لما اعتادت به وَحلا

« والنفس كالطفل أن تهمله شب على   حبّ الرضاع وان تفطمه ينفطم »

فكن بإغضابها لله مُرْضِيَهُ
وحظها إن تمته كنت مُحْيِيَهُ
وإن ترد قدرها الواهي لتُعْلِيَهُ

«فاصرف هواها وحاذر أن تولـيّهُ   إن الهوى ما تولى يُصْم أو يَصِم »

أي أن الهوى أن يصر عليك والياً متصرفاً فإنه يصميك أي يقتلك أو يصمك أي يعيبك من الوصمة .

وقال الشيخ البيضاوي يُسبِّع :

الله يشهد ان الصب منكظم   من الغرام وفي أحشـائه ألم
كأن فاه من الكتمان ملتحم   ودمع عينيه من جفنيه منسجم
من حر نار لها في قلبه ضرم

« أيحسب الصب أن الحب منكتم ما بين منسجم منه ومضطرم »
الله يذهب ما بالقلب من علل ومن سقام حشا الأحشاء من غلل
ومن دموع جرحن الخدّ من بلل بزورة لفريد حلّ في حلل
إن حلها مذنب أخلته من خلل
« لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل
ولا أرقت لذكر البان والعلم »

وهذا دون منهج الشيخ الفيومي كما لا يخفى .

والقصد من التخميس والتسبيع والتتسيع مع خدمة البردة ومدح الرسول ﷺ بتوضيح معانيها ، التعطر أيضاً بروح نفسها والتغني بنغم ألحانها . والتشطير يدخل في هذا المجرى ، إلا أن محاولته مع البردة خطأ لالتحام قسيميها التحاماً لا يدع لحشو مكان حاشية أو تعليق ، لشدة أسر نظم البوصيري رحمه الله .

ونموذج البردة الأول الذي حذا عليه الحاذون من بعد هو كلمة كعب بن زهير رضي الله عنه :

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبول متيّم إثرها لم يُفدَ مكبول
إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

وروى ابن رشيق له :

تحمله الناقة الأدماء معتجرا بالبرد كالبدر جلّى ليلة الظلم
وفي عطافيه أو أثناء ريطته ما يعلم الله من دين ومن كرم

وهذا ليس بنفس من الطراز الأول، بله نفس كعب بن زهير . وقال

ابن رشيق في العمدة « والجهال يروون البيت الأول لأبي دهبل » كأنه ينكر عليهم ذلك ويصحح نسبتهما كليهما إلى كعب . وقد يكون الأمر كما ذكر من حيث ظاهر قوة السند والرواية . أما من حيث الأسلوب فكلا أبي دهبل وكعب أجزل من هذين البيتين وأشد أسراً . ولعلهما — بل هو الأرجح إن شاء الله — من صنع متأخري الرواة .

ويدلك على نظر البوصيري الى كعب قوله :

ومنذ ألزمت أفكاري مدائحه   وجدته لخلاصي خيرَ مُلتزَم

ولن يفوت الغنى منه يداً تَرِبت   إن الحيا يُنبتُ الأزهار في الأكم

ولم أُرد زهرة الدنيا التي اقتطفت   يدا زهير بما أثنى على هرم

ومعدن كعب من جوهر أبيه وهو القائل :

قف بالديار التي لم يعفها القدم   بلى وغيَّرها الأرواح والديم

وروي الميم المرفوعة من المخفوضة غير جد بعيد — وكلا هذين عند أبي الطيب :

واحرَّ قلباه ممن قلبه شبم   ومن لجسمي وحالي عنده سقم

ضيف ألم برأسي غير محتشم   والسيف أحسن صُنعاً منه باللمم

حتام نحن نساري النجم في الظلم   وما سراه على خف ولا قدم

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم   ماذا يفيدك في إقدامك القسم

وكلهن جياد . واليهن جميعاً نظر البوصيري رحمه الله بعين الآخذ الحاذق مضمنا ومولـّداً ومبتكراً . قوله مثلاً :

والحبُّ يعترض اللذات بالألم

وقول أبي الطيب:

سبحان خالق نفسي كيف لذتها فيما النفوس تراه غـــاية الألم

وقوله :

ولا أعدّت من الفعل الجميل قرى ضيفٍ ألم برأسي غـير محتشم

وقول أبي الطيب :

ضيف ألمّ برأسي غير محتشم

وقد نظر أبو الطيب في ميمياته نظراً شديداً إلى أبي تمام مثلا :

بكل منصلت ما زال مُنتظري حتى أدلت له من دولة الخـدم

وقال أبي تمام :

حتى استوى الملك واهتزت مضاربه
في دولة الأسد لا في دولة الخـــدم

وقال أبو الطيب :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحرم

وقال أبو تمام :

بيضاء كان لها من غيرنا حَرَمٌ ولم تكن نستحلُّ الصيد في الحرم

هذا جيد .

وميمية أبي تمام هذه ، والبردة من بحرها ورويها ، قد نظر اليهـــا البوصيري رحمه الله نظراً شديداً . ومطلعها :

سلتم على الربع من سلمى بذي سلم عليه وشمٌ من الأيام والقدم

وفيها البيت المشهور :

زار الخيالُ لها لا بل أزاركه ... فِكرٌ إذا نام فكرُ الخلق لم ينم

وأحسب أن معاصريه كانوا يستحسنون قوله :

كانت لنا صنماً نحنو عليه ولم ... نسجد كما سجد الأفشين للصنم

ومن قوافيها الظاهرة الموضع في قوافي البردة :

عهدٌ بمغناك حُسّان المعالم من ... حُسّانه الجيد والبرديّ والعَنَم

ولم يخل البوصيري من نظر إلى طريقة نظم العبارات نفسها عند أبي تمام مثل :

« في دولة الأسد لا في دولة الخدم » «سوداً من العار لا سوداً من الحمم » وهذا ونحوه من أسلوب أبي تمام معهود « بيض الصفائح لا سود الصحائف في الخ » .

وقال البوصيري :

كأنهم في ظهور الخيل نبت ربا ... من شدّة الحزم لا من شدّة الحُزُم

هذا حبيبي السِّنْخ جداً [1] .

ومن إغراب أبي تمام الحسن في هذه الميمية:

لا تجعلو البغيَ ظهراً إنه جمل ... من القطيعة يرعى واديَ النّقم

نظرت في السير اللاتي خلت فإذا ... أيامــه أكلت باكورة الأمم

ومثل هذا البيت لو ظفر به « جون دون » لعدّه مغنماً . وكذلك من سِنخِ مذهبه قوله في الطيف .

ظبي تقنّصتُه لما نصبْتُ له ... في آخر الليل أشراكاً من الحلم

(١) حبيبي : نسبة الى حبيب والسنخ : المعدن والأصل .

هذا وللبوصيري لامية من البسيط وروي « بانت سعاد » جادل بها أهل الكتاب . ولكن هذا لا يمنع ما قدمناه من أن « بانت سعاد » كانت قدوته الأولى في البردة التي صنع لأنه التجأ ووجد القبول كما فعل كعب بن زهير رضي الله عنه ولذلك صح على ميميته اسم البردة إذ البردة كما تعلم كانت من جائزة رسول الله ﷺ لكعب ومن دلائل قبوله .

هذا والتوليد منهج البلغاء . وأبو الطيب وأبو تمام وامرؤ القيس وزهير والفحول أولئك بحر العربية من شاء منه وهو قادر اغترف . ويعجبني تقسيم البوصيري :

كالزهر في ترفٍ والبدر في شرفٍ والبحر في كرمٍ والدهر في همم

ونظره إلى طريقة تقسيم أبي الطيب :

فنحن في جذلٍ والروم في وَجَلٍ والبر في شُغلٍ والبحر في خجل

لا يخفى ونفسه كما ترى مستقلٌ نبيل .

واعلم أصلحك الله أن الغرف المطيّ إنما يكون بالمودة والعطف والأريحية والإقدام ، وكل أولئك عند البوصيري . فما بخل عليه أن يأخذ منه من فحول العربية أحد . كما لم يبخل أبو تمام أن يأخذ منه أبو الطيب وأبو نواس ومسلم أن يأخذ منهما أبو تمام .

وتلك هي الذروة التي تميز أصحاب الطبقة الأولى من غيرهم .

والميميات التي جوريت بها البردة بحر واسع . واختص بعضها بزخرف البديع مثل كلمة ابن حجّة :

لي في ابتدا مدحكم يا عرب ذي سلم براعة تستهل الدمع في العلم

وكلمة الباعونية وبابن حجة تأثرت:

في حسن مطلع أقماري بذي سلم   أصبحت في زمرة العشاق كالعلم

ثم قالت في الشرح الذي شرحت به كلمتها هذه (وهو مطبوع بهامش خزانة الأدب لابن حجة طبعة مصر ١٣٠٤ هـ تصوير بيروت ص ٣١٢) « ويتعين في غزل المديح النبوي أن يحتشم فيه ويتشبَّب بذكر الجهات الحجازية من سلع ورامة والبان والعلم وذي سلم وما في معناها ويطرح ذكر التغزل في الردف والخصر والقد والخد ونحو ذلك فإن سلوك هذا الطريق في المدح النبوي مشعر بقلة الأدب، وحسب العاقل قول الله تعالى ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ا. هـ. . .» وكأن حرمات الله على هذا التأويل ما أريد بها إلا النساء. ويُرَدُّ على السيدة الجليلة بقول كعب:

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا   إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة   لا يشتكى قصر منها ولا طول
تجلو عوارض ذي ظَلمٍ إذا ابتسمت   كأنه منهل بالراح معلول

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

همُّها العطر والفراش ويعلو   ها لُجَين ولؤلؤ منظوم
لو يدبُّ الحَوليُّ من ولد الذّر   عليها لأندبتها الكلوم
لم تفتها شمس النهار بشيء   غير أن الشباب ليس يدوم

فهذا كما ترى.

وقال عنترة بن شداد:

ألا هل أتاها أن يوم عراعر   شفا حزناً لو كانت النفس تشتفي
فإن يك عزّ في قضاعة ثابتٌ   فإنّ لنا برحرحان وأسقف

كتائبَ شهْباً فوق كل كتيبة   لواءٌ كظل الطائر المتصرف

وفي هذه القصيدة وصف السهام :

أبينا فلا نعطي السّواء عدونا   قِياماً بأعضادِ السّراءِ المعطف[1]

وكان عنترة حسن الرمي يدلك على ذلك قوله :

ألم يعلم ُجريّة أن نبلي   يكون جفيرَها البطلُ النجيد

« والفلاتة » قوم السلطان محمد بلو أكبر سلاحهم النشاب . وأحسب أن السلطان محمد بلو لم يخل من استشعار هذا المعنى في نفسه والله أعلم حين نظر إلى كلمة عنترة الفائية هذه وحذا على مطلعها قوله :

ألا هل أتاها أن غزوة فافرا   شفا حزَناً في النفس من حين أخبرا

أي الذي جاء بالخبر شفى حزن النفس .

وللسلطان محمد بلو جرس حسن ونوع من إسماح حين يستقيم له بيان النظم . وهو يقلد طريقة عمه الوزير عبد الله بن فودي وهذا قد تكون أوائل شعره أحياناً جيدة ذات نفس من جزالة مثل قوله :

طربت وأشجاني الطيور الكوابح   وفرّحني منها الغيوث الروائح

وقوله :

تذكرت والذكرى ُتثير لذي النوى   هموماً وفي الذكرى تهُب صبا الهوى
أخلاي ماتوا في الجهاد وغيره   وُبعدِيَ عن شيخي فأرقّني الجوى

وكان في بلاد السودان الغربي علم كثير . وكانت تمبكتو من كبريات

(١) السراء ضرب من الشجر تصنع منه الأقواس .

مدن العلم في دار الاسلام . وقد خربها ملك المغرب لما طمع في الذهب والفتح وأحسب أن الذي صنعه لم يخل من كيد صليبي خفي ، كالذي صنع محمد علي باشا حين خرب ملك سنار وهو يظن انه يتوسع بسلطان نفسه وإنما كان يمهّد للتبشير والاستعمار .

ولما خربت تمبكتو خرب من معاقل الاسلام ركن كبير.

ثم ازدهر العلم ببلاد هَوْسا على عهد شيخو عثمان والوزير عبد الله والسلطان محمد بلو وعمر والي والكانمي .

ثم جاء التبشير والاستعمار.

واستدارت المحنة على دار الإسلام بإفريقية من كل جانب .

واجتهد بعض العرب أن يصيروا بنوع من الطيش والهراء ضرباً من الافرنج الأجانب « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ». وكان الحاج آدم كلفاً بالمعلقات وكأنك تراه الآن وهو ينظر في شرح قول امرىء القيس :

ضليع إذا استدبرته سدّ فرجه بضافٍ فويق الأرض ليس بأعزل

وقد كان عندك أن حصان عنترة أجود .

واقبل شيبوب كالريح الهبوب .

ولم يكن مثل عنترة فارس — دع عنك عمرو بن معد يكرب وبسطام بن قيس . ولم يكن مثل عنترة ربيعة بن مكدم الغيور . . . وفي سيرته أنه خنق الاسود الأدغم وهذا مأخوذ من خبر شمشون وخبر شمشون مأخوذ من أساطير أقدم ، من مصر أو من بابل ، وربك تعالى أعلم. وقتال شمشون بحنك الحمار أقرب الى الصدق وأروع في حق فلاح بدوي مثله . . ولا يخلو خبر خنق الاسد من سماجة غلوٍّ . . وما كان أجمل « هيدي لامار » وهي تنظر الى جميع ذلك مع نوع من تصنع تمثيل . وسمجٌ جداً خنقُ أوثيلو

دِزْدَمُونة كالثوب الخلق . . وقصة أوثيلو كلها سمجة عنصرية مثل قصة تاجر البندقية ، وأنطونيو وباسانيو باهتان جداً . . ولقد حزنت جداً للأمير المغربي وقول بورشيا :

A gentle riddance. Draw the curtains, go

Let all of his complexion choose me so.

وهي بعدُ لها في هذا نوع من رقة .

واختلطت سيرة عنترة بالأساطير قبيل الاسلام ولقد يروى أنه لما أنشِدَ رسول الله ﷺ قوله :

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل

ودّ لو رآه.

وكان قصاص الجيوش أوائل بني أمية يروون من سيرة عنترة ليشجعوا بها الناس قبل التحام القتال . ويُذكر أنه لما كان عتاب بن ورقاء الرياحي بإزاء الخوارج في بعض قتاله لهم سأل من يروي للناس سيرة عنترة فلما لم يجبه أحد علم انه مخذول ، وفر الناس عنه وقاتل وحده فقتل.

وما كان عنترة شخصاً أسطورياً ولكن من لحم ودم يدلك على ذلك أنه هجين وما كان بالعرب حاجة لو قد كان أسطورياً لأن يجعلوه هجيناً أسود . وقد كانوا يضنُّون بخيلهم على الهجنة فكيف بفرسانها ؟

ثم شعره يدل على روح من لحم ودم .

ومعلقته فيها الحزن والطرب والأناة وقبول قضاء الله واحتمال ظلم الناس ثم مع ذلك ثقة القلب بالتبريز مع الصدق العزيز . . . . هذه مادة البطولة الخارقة .

ثم قتاله الخارق بالرمح والسيف والسهم كان صورتها ، وقد جاء في سيرته أنه خرج وهو شيخ كبير بين شرجٍ وناظرة فرُميَ بسهم فمات ، فجعل قتاله مكافحةً لا يُطاق حتى حين هو شيخ كبير.

إن المنيـــة لو تمثل مُثلت مثلي إذا نزلوا بضنك المـــنزل
بكرت تخوفني الحتوف كأنني أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

وقد كان العرب حذاقاً بأداة الحرب وادخار الجيد من السلاح .

علينا كل سابغةٍ دلاص تخال لها جلود القوم جونا
كأن متونهن متون غدر تصفقها الرياح إذا جرينا
كأن سيوفنا منا ومنهم مخاريق بأيدي لاعبينـا

وقال قيس بن الخطيم :

أقـاتلهم يوم الحديقة حاسراً كأن يدي بالسيف مخراق لاعب

وسأل رسول الله ﷺ الخزرج أعداء رهط قيس في الجاهلية أكان صادقاً في الذي زعم فقالوا نعم.وكان قيس بن الخطيم جميلاً فاتناً لقلوب النساء حاذقاً بالسيف وأداة الحرب ، فأمثاله كانوا يصادمون عنترة ..

ومدجج كره الكمـــاة نزاله لا ممعن هربـــاً ولا مستسلم
بطل كأن ثيابه في سرحةٍ يُحذى نعال السِّبتِ ليس بتوأم

وفي آخر المعلقة :

لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذامرون كررت غير مذمم
يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم
ما زلت أرميهم بثغرة نحره ولبـــانه حتى تسربل بالدم
فازورّ من وقع القنـا بلبانه وشكا إلي بعبرة وتحمحـــم
لوكان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي
والخيل تقتحم الخبار عوابساً ما بين شيظمة وأجرد شيظم

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

وإنما كان سقم نفسه من سوء خلق الناس أولهم عمه الذي استعبده . . . أم لم يكن عمّه ولا أباه وعلى ذلك تصح الأبيات :

تجللتني إذ أهوى العصا قبلي كأنها صنم يعتاد معكوف
المـــال مالكم والعبد عبدكم فهل عذابك عني اليوم مصروف

حتى إذا احتاج اليه قال له كُرَّ :

ـ العبد لا يحسن الكرّ ولكن يحسن الحِلابَ والصّر .

ـ كُرَّ وأنت حر .

أي كر على أية حال وإن كنت تريد العتق فقد أعتقناك واستلحقناك لو قد يجعلك هذا حراً كالذي ذكر « ستندهال »[1] من أن النبيل كره أن يقال بارز ابن الاسكاف ـ أي النجار :

لم يبق إلا منطق وأطراف
وريطتان وقميص هفهاف
وشعبتا ميس براها الإسكاف

فانتحل له نسباً الى أحد الأشراف ليكر وهو حر وهذا هو السقم الذي لا يبرأ ، وذكر ابن قتيبة أنـــه سب عنترة رجل من قومه فعيره سواده وسواد أمه وأنه رجل عيي لا يقول الشعر . قالوا وكان عنترة قبـل ذلك يقول البيت والبيتين . فأحفظه كلام الرجل فصنع المعلقة . . . وإنما انطق عنترة نبل النفس وحسن البلاء ، فذلك من كل سقم برء كبير :

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدِم
ذلل ركابي حيث شئت مشايعي لُبي وأحفـــزه بأمر مـــبرم

(١) هو الكاتب الفرنسي « ستندال » لا ينطقون الهاء ويكتبونها واسمه الأصلي « هنري بيل » ولد أيام الثورة وصحب نابليون ومات من بعد ذلك .

هلا سألت الخيل يا بنة مالك إن كنت جـاهلة بما لم تعلمي
يخبرك من شهد الوقيعـة انني أغشى الوغى وأعف عنـد المغنم
وحليل غانية تركت مُجَدّلاً تمكو فريصتـه كشِدْقِ الأعلم
ومدجج كره الكماة نزالـه لامِمعنٍ هـرباً ولا مستسلـم
لما رآني قـد نزلت أريـده أبـدى نواجـذه لغير تبسم
فطعنته بالرمح ثم علوتـه بمهَنَّدٍ صافي الحديـدة مخـذم
عهدي به مدّ النهـار كأنما خُضِبِ البنان ورأسه بالعظلم

نغم عنترة مرهف الإحساس بعيد أغوار الشجى رنان ولعل هذه جاءه من أخواله السودان فانه يغلب على موسيقاهم إيثار الغناء الصادح الجهير من جوف قصب الصدر ، ولا يجنحون الى تصنيع الغنن بالخيشوم والحنجرة .

وكأنما وصف عنترة صوت نفسه إذ نعت ناقته فقال :

بركت على جنب الرداع كأنما بركت على قصب أجشَّ مهزم
وكأن رُبّاً أو كحيلاً معقداً حشَّ الوقود به جوانب قمقم

وكان للسودان بجزيرة العرب غناء ولعب ودفوف .

وأنت تعلم خبر أنجشة مولى رسول الله ﷺ وسماع أم المؤمنين عائشة رضوان الله عنها غناء الحبشة .

واعلم أصلحك الله ان الغناء من خير ما يستعان به على ضرّاء الزمان وربما جاد حينئذ وصفا .

وفي سوداننا والسودان الغربي وبلاد هوسا وأعماق أفريقيه الى ساحل المحيط أصوات طرب رِواءٌ من شجنٍ وحزن وحنان .

وكانت فتيات الطحين يتنازعن من هذا الضرب عندنا ، أصناف ألحان حسان .

وكان المرحوم حامد العربي عطر الله ثراه يروي من ذلك أمثالاً :

زولاً سرب سربهْ
خلّى الديار غربه
أدُّوني انا شربه
خلوني اقص دربه
أبْ لوناً سمري
وأب حديثاً تمري

وندّ عن الذاكرة سائر الأبيات . وذكر أن المرحوم العباسي جارى هذا القِرّى في كلمته :

اللون لون الذهب
والطعم طعم العنب
لي أرب في ذا الرشا
يا رب حقق أربي

وكان العباسي رحمه الله على جودته ربما تكلف أحياناً وهو في نحو هذا معذور إذ لعله لم يعد أنه أراد تسجيل إعجابه بالرجز الدارج البدوي الذي سمعه ، والله أعلم ، ولله وحده الكمال .

هذا ويعجبني ما ينسب إلى أم السليك بن السلكة حيث قالت ترثيه :

طاف يبغي نجوة من هلاك فهلك
ليت شعري ضلّة أي شيء قتلك
غاله ما غال من قبل في الدهر السُّلَك
والمنايا رَصَدٌ للفتى حيث سلك

كل شيء قاتــلٌ حين تلقى أجلك

وأم السليك هذه كانت حبشية سوداء وكان السليك بن السلكة السُلَمي من أغربة العرب . وبنو سليم رَهْطُ الخنساء الشاعرة صاحبة الرثاء . وهذه الأبيات من نوع ما تنوح به الثكلى بعد مرور زمان .

وكان خُفافُ بن ندبة السلمي من أغربة العرب أيضاً شاعراً فارساً وهو القائل لما قتل معاوية أخو الخنساء وكان صميم الخيل فثأر به :

فإن تك خيلي قد أُصيب صميمها فعمداً على عيني تيممت مالكا
أقول له والرمح يأطر مَتْنَــهُ تأمَّلْ خُفافــاً إنني أنا ذلكا

أي ذلك العبد الأسود الذي خبرت عنه .

وكان خفاف بن ندبة سيد قومه والى ذلك أشار المعري في قوله :

مثـــل خفاف ساد في قومه على اجتياب الحَسَبِ المظلم

وكان صاحب راية رسول الله ﷺ على بني سليم يوم حنين وهؤلاء أبلوا بلاء حسناً رضي الله عنهم أجمعين .

وقد قدمنا لك نظر السلطان بلّو الى كلمة عنترة « ألا هل أتاها أن يوم عراعر » في رائيته :

ألا هل أتاها أن غزوة فافرا شفا حزنا للنفس من حين أخبرا
شفا النفس إدبار التوارك يَوْمها فخابت ظُنون عَنْبَلٍ ثم أدبرا
تَصيحُ الردينيات في حجباتهم وتسقيهم كـأس المنايا الحمرا

وقد نظر عمه الوزير الى الكلمة الحائية المنسوبة الى عنترة :

طربت وهاجتك الظباء السوانحُ غداة غدت منهـــا سنيح وبارح

في كلمته :

طربت فأشجاني الطيور الكوابح وأفرحني منها الغيوث الروائح

وما أشبه أنهما كانا يترنمان ويترنمُ لهما وفي أنفسهما الى إحسان عنترة زهو وارتياح . ولو قد شهد عنترة زمان الرسول عليه الصلاة والسلام كما شهده خُفاف فلعله كان يكون سيد بني عبس .

وزعم بعض الرواة أن عنترة كان مشقوق الشفة وأنه كان يقال له عنترة الفلحاء ... وكأنّ هذا ضمنوه سباً لغلظ شفتيه كما تغلظ شفاه السودان . وكأنهم كرهوا أن يجمعوا اليه مع الشجاعة والبلاغة حسن الصورة .

ومـا خلا بعض الرواة وأهل علوم الأدب من نوع عُصبية على سودان العرب ... فجعلوا عراراً دميماً أو شيئاً تقتحمه العين ونعْتُ أبيه إياه يدلُّ على أنه كان حسن الصورة معتدل الخلق :

أرادت عراراً بالهوان ومن يُرِد عراراً لعمري بالهوان فقد ظَلَمْ

وإن عراراً إن يكون غير واضح
فإني أحب الجَوْنَ ذا المنكب العَمَمْ

وجعلوا الجاحظ كأنه شيطان وإنما كان جاحظاً ليس إلا ...

ولا حاجة بنا للدفاع عن الجاحظ فقد كان على الذود عن نفسه قديراً .

وأذكر أن قرأت لبعض المعاصرين أن الجاحظ ضَحْلٌ بالقياس إلى موليير وبخلاءُ الجاحظ كتابُ موليير فيه قَطْرة(١) .

(١) فيه : أي بالنسبة اليه .

وأحمـــد أمين رحمه الله من أفعل كتاب تاريخ الأدب لهذا الضرب من الجـَور على القدماء بصنف من شعوبية غير مقصودة إن شاء الله — وقد أحس صاحبُ مقدمة طبعة كتاب الملل والنحل للشهرستاني بهذا الضعف المُسِفّ فيه فنبّه على بعض أخطائه وأحسن إذ فعل .

وليس في شعر عنترة ما يشعرك بعقدة دمامة ، بل شعره مشرق وقد كان يخيل إليّ حينا أنه ربما كان في قوله :

وحليل غانية تركت مجـدلا تمكو فريصته كشدق الاعلم

نوع إشارة إلى معنى قولهم عنترة الفلحاء . ثم بعد التأمل استبعدت هذا الوجه لدقة الوصف ههنا . ولعلّ الاعلم هو ذلك الذي سب عنترة فذكر سواده وسواد أمه ... فقبُّحُ طريقة كلامه كأنّ قد كان انشقاقاً في شفته أو قلَحاً في ثناياه . أو لعله كان كذلك أو ذا عاهة من ذلـك القبيل والله تعالى أعلم .

ويغلب على ظني أن عنترة كان حسن الصورة لأريحية نفسه في المعلقة وفيما صح لنا من شعره . بل حتى المنحول على طريقته يحمِلُ كثيرٌ منه مَشابِهَ من رنّات نغمه كالحائية التي جاراها ابن فودي مثلاً :

طربت وهاجتك الظباء السوانح غداة غدت منهـا سنيح وبارح

وينسب إلى عنترة أنه قال :

وأنا ابن سوداء الجبين كأنها ضبع ترعرع في رسوم المنزل
الساق منها مثل ساق نعامة والشعر منها مثل حب الفلفل

والفكاهة هنا لا تخفى ... إذ كما جعل علقمة صاحبته :

صفر الوشاحين ملء الدرع خرعبة كأنهـا رشأٌ في البيت ملزوم

ـ (وعنترة كثير النظر الى علقمة ، تأمل روضته وحديقة علقمة مثلا) ـ
جعل عنترة أمه ضبُعاً أليفاً .

وساق النعامة آية جمال لأنه ممتلىء عبل ، هكذا خبرنا شيخنـــا الفقيه عبدالله النقر رحمه الله .

ذلك زمان الصبا إذ كنت تنشد البردة واللامية :

حكم سيوفك في رقاب العذّل ‏   واذا نزلت بدار ذل فارحل

وتقرأ سيرة عنترة . وكان بالخلوة أصحـــاب الألواح من مبدىء ومعيد ذلك زمان بعيد. ولعل عنترة لو شهد المهدية كان يخمل بفروسيته ذكر كثير ممن ذكروا ... على رغم المدافع والبنادق والبارود .

أم هذه لا يقوم لها شيء .

وما فتئت أساطير العرب تحاول لعنترة أصناف الخلود .

من ذلك مثلا ما أضيف على سيرته من أساطير .

وما ألحق به من بنيه وبني زبيبة أمه .

ثم ما كرر من صورة شخصية بطولته هو وخلع على آخرين بعده ... من ذلك مثلا عبدالله بن خازم السلمي أمير خراسان وكان أسود وقالوا كان أحد فرسان الإسلام الأربعة كما كان عنترة أحد فرسان الجاهلية الأربعة . قالوا ولما اعتلاه الأعداء يحتزون أوداجه بصق في وجه ذابحه بريق غض. ومن ذلك أبو زيدالهلالي وكان أسود ولذلك لقّب «أزرق سلامة» قولهم سلامة إشارة إلى أنه كان مشئوماً على من يصحبه. ولم يجعلوا له عبلة كما لعنترة عبلة وكانت امرأته « شيحَةَ » حمقاء ، وكونه لا عبلة له كأنه هو الذي جعله مشئوماً . قالوا قال لما هَمّ بالسفر إلى تونس « عَيٌّ الطريق قبل الرفيق » فعكس المثل فما

صحبه أحد إلا هلك . ولذلك تلف بنو أخته كلهم لما رافقوه . وشخصية دياب كأنها رمز لحسَدِ البيضانِ السودانَ .

وأسطورة أوثيلو لشكسبير كأنهـــا منقولة عن خبر عنترة وعبلة ولو أسقطت النون من عنترة ما كان تحريف أوثيلو منها شيئاً بعيداً . وزعم بعضهم أنـــه تحريف «عطا الله» وعسى ذلك. وشخصية عبلة في شعر عنترة شديدة الشبه بدزدمونة .

هــــلا سألت الخيل يا بنة مالك ... إن كنت جاهـــلة بما لم تعلمي
يخبرك من شهد الوقيعـــة أنني ... أغشَى الوغي وأعِفُّ عند المغنم

فهو هنا يريد خِلابَة قلبها بقصص بطولته كما ترى .

She loved me for the dangers I had passd ,

And I loved her that she did pity them ,

This is the only witchcraft I have used ,

وأهل السودان متهمون منذ الدهر القديم بالأسحار والعروق .

وكانت أيام الحرب وجاءَ وافِدٌ يقال له « أبو نقونا » زعم أنـــه من ساحل أفريقية الغربي ولعله لم يكن من هنـــاك . وكان طويلاً جسيماً ومعه صاحب من «اليروبا» له شلوخ[1] » ضئيل الجرم بالنسبة اليه . وكان يتطبّبُ ويقرأ الكف وإذا بلغتَ الخمسين مرضت جدّاً ثم شفيت . وزوجتك الثانية أبخَتُ من الأولى . لا الأولى أبخت من الثانيـــة . وتتزوج وعمرك سبع وعشرون . وكان لاعبو الكرة حفاة ثم ابتدأ بعضهم يلبس الحذاء . وخبرك الاستاذ أن الوافدين من الأفندية للسحر واستخراج العمل والعروق كثير .

(١) اليروبا من شعوب غرب افريقية . شلوخ : علامات من جرح يخط في الوجه .

وكان السودان آنئذ يتنقل في ما بين بطء وسرعة من حال البداوة إلى محاولة التمدن . وصنع بعض الباعة المرَبّى من البنضورة ، وافتتح دكان سندوتش . وتحدث بعضهم عن «أيسكريم صودا شوكوليت» وما سَفَرت البناتُ بعدُ.

وكان لأبينقونـــا فيُولين أو قيثار يترنم به ، ويبدو وأنه كان يتغنى الجاز ويذهب إلى الكابريه وأحيا ليلة غنائية بنادي الخريجين .

وحدث بينه وبين قوم خلاف في بعض المال . فكان يترنم بقيثارته والحر شديدٌ بلهجة أمريكية .

And I did not expect a Sudanese to do so

قيثارته أو فيولينه كأنها رباب .

ونبرات صوته فيها شيء من شجى إلا أنها أفرنجية الطابع جداً ...

And I did not expect a Sudanese

to do so ... to do so

أو شيئاً من هذا المجرى .

ــ أذَى أذَى أذى أذَي ...

وما كنت انتظر سودانياً يعاملني هكذا...

ذلك أيضاً زمان بعيد .

« وكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .

وكامليات البحتري متأثرة بعنترة .

وكامليات أبي تمام لبيديات .

وأبو الطيب لِنَقَراتِهِ من عنترة روح وقد كان مثله فارساً :

لو كان يمكنني سفرت عن الصبا فالشيب من قبـل الأوان تلثم
راعتــك رائعة البياض بمفرقي ولو انّها الأولى لراع الاسحم
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبـــه الدم

قال الشعوبي الوقح هذا البيت بربري وحشي متأخر يعوق تقدم المرأة :
إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

* * *

حبّذا أنت والجبين الأغرُّ والوريد الذي عليه يدِرُّ
قد ذكرناك ياهَنَاةُ على البعد الذي دونـه الزعازع قُرُّ
ووجدنا العطر الذي عند كفيك وكنّا لك الغرامَ نُسِر
وحفظنا هواك في شُعَب القلب التي عن سواه ليست تُقَر
حبذا أنت واسلمي وتباركت وبوركت والهوى لـــك غِر
والقناديل في محيّـــاك والفتنة عيناك والرمـــاح تُجر

* * *

عجباً يا أخي وطال انتظاري وعن المشتهاة كيف اصطباري
وإليها تنَفّس القلب في الصحرا ءِ بالذكريات والأوطـــار
مدح الكتمَ معشر جهلوا أنّ صفـــاءَ القلوب في الإظهار
والهوى يُذْهِـــلُ الحليمَ ويستجهـل مـــا عنـده من الأفـكار
إننـــا نحن أريحيون صوفيّون ذكّارهـــا مـع الذكار
شاكرو نِعمة المهيمن إذ أبدعهـــا كالأصيـل وَسْطَ النّهـار
مرتجو جُوده علينا بهـــا إنّا إلى جوده مـــن النظـــار
وشهدنا الشهود في الملأ الأعلى وكنّـــا بهـــا مـــن الحضّار

حَيَّهَلاً بهــا وأهــلا وسهــلا وسلامــاً ونعم عقبى الدار
والغنــاء الرخيم في شعرك الخـالد من وحي ربـك القهـار
وبــه أنت يا فتى سوف تستعلي ولله فيــك سر اختيــار

* * *

واقتحمت اقتحامــةً لملاقاتكهــا بالوداد وهي بَدُورُ
والوداد الذي ينـوط فؤادينــا معـاً في الكتـاب منه سطور
وأضاء الزمان حتى تغشّـاك بإشراقه سناً وعبير
والذي خانني عليه تغلبت وطول المدى عليه ظهير
وكأيٍّ كمثله خانني قبــل فأمسى قد خرّ وهــو عقير
ولدي البيــان والفضـل والإحسان والقـوة التي لا تخـور
والحمد لله من قبل ومن بعــد وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

خـــاتمة

طربت إلى جزلة المنظر وثَغرُ المليحة كالسكر
وطال غيابك يا مشتهاة وإني أريدك أن تحضُري
ألم تعلمي ما سواك الحياة تطيب وما أنا بالمفتري
وكلُّ الطبيعة لمـــا أراه جميلا بذكراك لي يَنْبري
طلاقاتها كبشاشات حُسْنِك يا عبقرية للعبقري
وإشراقُها كإضاءات وجهك ذي الضَوْءِ يافذّة المنظر
ووحشتها مثل هذا البعادِ وبي يا حبيبةُ لا تغدري
أحبك بَين جميع الأنا م حُبّاً يزيد على الأعصر
تعلقتها وهي رود الشباب للحرب مصطفقة العسكر
وقد أدركت أن ما بيننا عميقٌ وأنْ ببقاءٍ حري
ورفّت فراشتها حولنا تلاعبُ بالقبس الأكبر
ألم ترني قد ظننت السلوّ بنفسي حِيناً ولم أقدر
وكيف السلوُّ وقد أشبهوني وأشبهتهم أنا في الجوهر
وقالوا نراك تحبُّ القريض ويُشْبه اسلوبك البحتري

وأبا تمام أيضاً .

For he on honey dew has fed

And drunk the milk of Paradise

والحمـــد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه أجمعين وكان الفراغ منه يوم ٢٤ من المحرم ١٣٩١ هـ .

عبدالله الطيب

فهرست وتوضيح

رقم الفصل	بعض المحتويات	الصفحة
٨	تمهيد وشيء عن زهير بن أبي سلمى ـ ترجمة وصف شكسبير لكليوباترة ـ نونية زهير وداليته من البسيط ـ من شعر جرير والبحتري وأبي تمام الخ	٩٢ — ١٠١
٩	من شعر الصبا ـ مذكرات عن الدرس وكلية غوردون ـ هدايت ـ ولشر ـ الدكتور مكي شبيكة ـ الجامعات الافريقية	١٠٢ — ١٠٩
١٠	من معلقة عنترة وبائية امرىء القيس ـ من دالية أبي تمام في خالد بن يزيد ـ البخاري ـ اشعار ومذكرات ـ ابيات من جون مانسفيلد الشاعر الانجليزي المصري ـ ترجمة من الشاعر الانجليزي جون دون وشيء عن حياته ـ شيء من شعر أبي العلاء المعري وأبي الطيب ترجمة أشعار من جون دون ـ أصناف أشعار ومذكرات ـ ليلى الاخيلية وتوبة ـ ترجمة شيء من شعر جون دون ـ أبيات من يزيد بن الطثرية ـ د.ه. لورنس وصمويل جونسون ـ بكر أبي تمام ـ أصناف أشعار	١١٠ — ١٢٩
١١	شيء من شعر الشماخ ـ أبيات ـ لمحة الى كتاب الشيخ نديم الجسر ـ قصة صاحب الناي ـ النصارى والمسلمون ـ بانت سعاد ـ أبيات يزيد بن الطثرية اللامية الحماسية ـ واللامية في أم شنبل . بائيته وشَعْرُه الجثْل ـ وقصة ذلك	١٣٠ — ١٣٧